

حقق نصوصه وصححها وتوفر على دراستها ...

دكتور عبد المنعم الحفني

الجزء الأول

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩١م



فهرس قوت القلوب

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

ربِّ يسِّر

كتاب **قوت القلوب للمكّى** من أمهات الكتب فى التصوف الإسلامى، ويعتبر مع كتاب **إحياء علوم الدين للإمام الغزالى** من أمهات كتب التصوف والتعليم الصوفى التى لا يُستغنى عنها فى تربية المريدين وتثقيفهم ثقافة إسلامية، ولا يضاهيهما فى ذلك كتاب آخر. والكتابان نبع ثرّ للفكر الصوفى، ويضمان أقوالاً لمشاهير المتصوفة وأعلام التصوف. واعتبر البعض التشابه بينهما دليلاً على أن الغزالى قد استبّطن كتاب القوت للمكى واستنبط منه كتابه الإحياء. ومن هؤلاء **الدكتور زكى مبارك والدكتور عبد الرحمن بدوى**. وفى كتابه عن رابعة العدوية يذهب الدكتور بدوى إلى أن الغزالى فى الإحياء «لم يفعل إلاّ أن نقل مُلخِصاً كلام صاحب القوت، بحروفه فى أغلب فصول كتابه الإحياء، فى الموضوعات المشتركة بينه وبين كتاب القوت». ويزيد الدكتور بدوى فيقول إن هذا النقل «يعطينا شاهداً آخر على مقدار ما لدى الغزالى من أصالة!!»، فكأنه يتهم الغزالى صراحةً بالنقل عن المكى، ويطعن فى أصالته!!

ويستشهد الدكتور بدوى بما ذكره المرتضى الزبيدى فى كتابه **إتّحاف السادة المتقين فى شرح إحياء علوم الدين للغزالى**، من أن الغزالى قد أورد تفسير المكى لبعض أقوال الصوفية، ومنهم رابعة العدوية، ونقل ذلك عنه حرفياً. فهل الغزالى فعلاً وصدقاً قد نقل عن المكى؟ وهل كتاب الإحياء صورة ولو محرّفة عن كتاب القوت؟

الواقع أن المقارنة بين الكتابين تظلم المكى والغزالى معاً، فالمكى متصوف عالم، والغزالى فليسوف متألّه، وكتابات المكى فى القوت تختلف عن مثيلتها فى الإحياء بحسب المنهج وشخصية كلٍ. ولو قارنا مثلاً باب العلم فى الكتابين سنجد الكثير من التشابه، كما سنعثر أيضاً على الكثير من المغايرة. ويعتمد المكى فى شروحه على ما قاله الصوفية الأوائل والصوفية من معاصريه، ويحيل الكثير من آرائه إلى أستاذيّه وإماميّه أبى محمد سهل وأبى الحسن بن سالم.

وبلغ عدد من ينسب إليهم من الصوفية أكثر من الثلاثمئة، ومنهم المشهورون كبشر الحارث، ومعروف الكرخى، وإبراهيم بن أدهم، والجنيد، والحسن البصرى، وإبراهيم الخواص، ويوسف بن أسباط. ومنهم المغمورون الذين أهملت ذكرهم كتب طبقات الصوفية، كالحلية للأصبهانى، والرسالة للقشيرى، مثل ابن أبى شبرمة، وفتح الموصلى، وابن الجرّاح، وابن ميسرة، وإبن مغفل وغيرهم.

وفى كتاب الإحياء فلسفة خالصة، مثل مقالته فى العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه، من باب العلم الذى نوّهنا عنه، والغزالى فيها يسوق رأيه الخالص الذى ربما اعتمد فيه على الدارج المعروف عند أهل الفلسفة، ولكنه لا يستنبط من المكى، ولا يتماثل معه فيها لا من قريب أو بعيد.

ومما يلفت النظر فى أمر الكتابين ـ القوت والإحياء ـ أنهما ووُجها معاً بالنقد الشديد ـ أو بالأحرى بالحسد الشديد ـ من جمهور الفقهاء، واتُهم المكى بالغلط. واعتبر ابن الجوزى مثلاً أن ترتيب المكى للصوفية أو المريدين ترتيبات فى المطاعم هو من تلبيس إبليس عليه، حيث قد حرّم عليهم الأكل وما تحتاج إليه النفس من المطعم والمشرب، على خلاف ما أحلّه الشرع وأمر به. وكذلك اتُهم الغزالى وأنكروا عليه حتى أمر الشيخ الإمام بن حرزهم بجمع ما ظفر به من نسخ الإحياء وهَمّ بإحراقها، بل إن الأمر زاد على ذلك أن أُدخلت فقرات على الإحياء تقطع بأن الغزالى ينقل كتبه عن الآخرين، ومن ذلك ما قيل بشأن كتابه «المستظهرى»، حيث يرد فى الجزء الثانى من الإحياء فقرة مدخولة تفيد أنه استنبط هذا الكتاب السابق من كتاب الباقلانى **«كشف الأسرار وهتك الأستار»**. والحقيقة أنه برغم التشابه أيضاً بين الكتابين، حيث أن موضوعهما واحد، وهو الرد على أصناف الروافض من الباطنية، إلا أن الغزالى انفرد بأبواب لم يتطرق إليها الباقلانى، مثلما فعل فى الإحياء حيث انفرد أيضاً بأبواب لم يتطرق إليها صاحب كتاب القوت.

والرأى عندى أن الكتابين ـ القوت والإحياء ـ يتكاملان، والمكى قد جمع أقوال السلف والكثير من الأخبار والأمثال والحِكَم، ونفذ إلى سرائر دقّت على الأفهام، والغزالى مزج بين علمّى الظاهر والباطن، وبلغ فى ذلك حداً جعل النووى يقول كاد الإحياء أن يكون قرآناً.

وبالمثل فإن كتاب القوت لنبعُ ثرّ وبحر زاخر، جاءت فيه المعانى فى أحسن سبك، حتى أن العلوم لو حدث أنْ كشطت، لأمكن استخراجها من جديد من القوت.

والقارئ للقوت والإحياء سوف يجد أنه مع كل قراءة ستظهر له أسرار وتبين له مفهومات، وشرح الكتاب والسنة يستوفيه كتابا القوت والإحياء، وهما يستوعبان معاً الطريقة الصوفية، وملازمة هذين الكتابين من محبة السلف وما كانوا عليه. والكتابان يجمعان بين الشريعة والطريقة والحقيقة في الدنيا والآخرة، فمن أراد طريق الله، وطريق رسوله، وطريق العارفين بالله، وطريق العلماء من أهل الظاهر والباطن، فعليه بمطالعة الكتابين - القوت والإحياء.

★★★★

والغزالي نكاد نعرف عنه كل شئ، إلا المكّي فلا نكاد نعرف عنه إلا اليسير. ومن عيوب كتب التراجم للمشاهير أن أول كتاب يؤرخ فيه لأحد الأعلام فإن الكتب الأخرى اللاحقة عليه تتابعه على ما كتب. وإنه لشئ ملفت للنظر أن تتشابه ترجمة المكّي في كتب **وفيات الأعيان وشذرات الذهبي وتاريخ بغداد والعبر ولسان الميزان**، فابن خلّكان يقول عن المكّي: إنه أبو طالب محمد بن على بن عطية الحارثي صاحب كتاب قوت القلوب، وكان رجلاً صالحاً مجتهداً في العبادة، ويتكلم في الجامع، وله المصنفات في التوحيد، ولم يكن من أهل مكة، وإنما كان من أهل الجبل وسكن مكة فنُسب إليها. وكان يستعمل الرياضة كثيراً حتى قيل إنه هجر الطعام زماناً واقتصر على أكل الحشائش المباحة فاخضرّ جلده من كثرة تناولها. ولقى جماعة من المشايخ في الحديث وعلم الطريق وأخذ عنهم، ودخل البصرة بعد وفاة أبي الحسن بن سالم فانتهى إلى مقالته، وقَدِمَ بغداد فوعظ الناس، وخلط في كلامه فهجروه وتركوه.

وقال **محمد بن طاهر المقدسي** في كتاب «الأنساب»: إن أبا طالب المكّيّ لمّا دخل بغداد واجتمع بالناس في مجلس الوعظ، خلط في كلامه، وحُفظ عنه أنه قال ليس على المخلوقين أضرّ من الخالق، فبدّعه الناس وهجروه، وامتنع من الكلام بعد ذلك، وله كتب في التوحيد، وتوفى لستٍ خلون من جمادى الآخرة من سنة ست وثمانين وثلثمائة ببغداد، ودفن بمقبرة الملكية بالجانب الشرقي، وقبره هناك مشهور ويزار رحمة الله عليه.

وقال ابن العماد الحنبلي: إن المكّي نشأ بمكة، وتزهّد وسلك ولقى الصوفية، وصنّف ووعظ، وكان صاحب رياضة ومجاهدة، وكان على نِحْلة أبي الحسن بن سالم البصري شيخ السالمية، وروى عن عليّ بن أحمد المصيصي وغيره.

وقال **الحافظ أبو بكر البغدادي**: إن المكّي صنّف كتاباً سمّاه «قوت القلوب» على

لسان الصوفية، ذكر فيه أشياء منكرة مستبشعة فى الصفات، وحدّث عن علّى بن أحمد المصيصى وأبى بكر وغيرهما .. وامتنع عن الوعظ فى جمادى الآخرة من سنة ستٍ وثمانين وثلثمائة.

وقال الإمام شهاب الدين العسقلانى :إنه المكّى الزاهد صاحب قوت القلوب، سمع صحيح البخارى من أبى زيد المروزى، وله أربعون حديثاً أخرجها لنفسه، وكان على مذهب أبى الحسن بن سالم .

وذلك كل ما أمكننا جمعه عن المكّى، غير أننا استطعنا من خلال دراسة كتابه القوت الذى أعطاه عنوان «قوت القلوب فى معاملة المحبوب، ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد» – استطعنا أن نجمع الكثير حوله، فهو مثلاً من النقاد لعصره، ومن ذلك أنه ينقل عن ابن مسعود: لا تزالون بخير ما إذا حاك فى صدر أحدكم شئ وجد من يخبره به ويشفيه منه. وايمُ الله، أوشك أن لا تجدوا ذلك. ويعلق المكّى قائلاً: وقد حصّـلنا فى زماننا هذا فى مثل ما خافه ابن مسعود، لأن مشكلة لو وردت فى معانى التوحيد، وشبهة لو اختلجت فى صدر مؤمن من معانى صفات الموّحد، وأردت كشف ذلك على حقيقة الأمر بما يشهده القلب الموّفق ويثلج له الصدر المشروح بالهدى، كان ذلك عزيزاً فى وقتك هذا، ولكنت فى استكشاف ذلك بين مبتدع ضال يخبرك برأيه عن هواه فيزيدك حيرة، أو متكلم يُفتيك بقصور علمه وبقياس معقوله على ظاهر الدين، وهذا شبهة فكيف تنكشف به شبهة، أو صوفى شاطح، تائه غالط، يجاوز بك الكتاب والسنة لا يباليهما، ويخالف بقوله الأئمة فيجيبك بالظن والوسواس والحدس والتمويه وسقط العلم والأحكام، وهؤلاء تائهون فى مفازة التيه لم يقفوا على الحُجة، قد غرقوا فى بحر التوحيد ويتكلمون فيما لم نُكلّف وما لم ينطق به السلف ....

والمكّى فى هذا الكتاب القوت ليس مجرد جامع للأقوال وإنما، هو مفكر له أصالته ورؤياه لعصره، وللفِرَق الدينية فيه. وما قيل فى المكّى من أنه قد غلط فى التوحيد حتى هجره الناس لم يستقم مع ما يذكره فى هذا المجال، فهو يقول: إن فرض التوحيد هو اعتقاد القلب أن الله تعالى واحد لا من عدد، وأول لا ثانى له، موجود لا شك فيه، وحاضر لا يغيب، وعالم لا يَجهل، وقادر لا يعجز، حّى لا يموت، قيّوم لا يغفل، حليم لا يسفه، وسميع بصير، مَلِكٌ لا يزول ملكه، قديم بغير وقت آخر، بغير حدٍ كائن، لم يزل ولا تزال الكينونة صفته لم يحدثها لنفسه، دائم أبد

الأبد لا نهاية لدوامه، والديمومة وصفه غير محدثها لنفسه، لا بداية لكونه ولا أولية لقدمه ولا غاية لأبديته، آخر فى أوليته، أول فى آخريته، أسماؤه وصفاته وأنواره غير مخلوقة له ولا منفصلة عنه، وأنه أمام كل شئ ووراء كل شئ، وفوق كل شئ، وأقرب إلى كل شئ من نفس الشئ، وأنه مع ذلك غير محل للأشياء، وأن الأشياء ليست محلاً له، وأنه على العرش استوى كيف شاء بلا تكييف ولا تشبيه، وأنه بكل شئ عليم، وعلى كل شئ قدير، وبكل شئ محيط، هو ذات منفرد بنفسه، متوحد بأوصافه، لا يمتزج ولا يزدوج إلى شئ، بائن من جميع خلقه، لا يحل الأجسام ولا تحله الأعراض، ليس فى ذاته سواه، ولا فى سواه من ذاته شئ. ليس فى الخلق إلا الخلق، ولا فى الذات إلا الخالق، فتبارك الله أحسن الخالقين، هو كما وصف نفسه وفوق ما وصفه خلقه. نَصِفُه بما ثبتت به الرواية وصحّت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه ليس كمثله شئ فى كل شئ، بإثبات الأسماء والصفات، ونفى التمثيل والأدوات، وأنه سبحانه لم يزل موجوداً بصفاته كلها لم تزل له، وأن صفاته قائمة لا تزال كذلك، ولا يزال بها نهايةٌ ولا غاية، ولا تكييف ولا تشبيه، ولا تثنيه، بل بتوحيد هو متوحّد به، وتفريد هو منفرد به، لا يجرى عليه القياس، ولا يُمثل بالناس، ولا يُنعت بجنس، ولا يُلمس بحس ولا بجنس من شئ. وهو الأزلى الذى لم يزل، والأبدى الذى لم يحل ، أحدٌ صمدٌ لم يلد ولم يولد ، ومعنى ذلك لم يتولد هو من شىء ، ولم يتولد منه شىء ، ومثل ذلك لم يخلق من ذاته شىء ، كما لم تخلق ذاته من شىء ، سبحانه وتعالى عما يقوله الملحدون من ذلك علواً كبيراً .

هذا هو المكّى فى توحيده لله تعالى، فكيف يُتهم بالغلط ويُنكر عليه حتى ليهجره سامعوه؟!! وإنما هو الحسد له، قد عانى منه الكثيرون، حتى لقد سُجِن مَن سُجِن، ونُكّل بمن نكّل به، وشُرِّد مَن شرد، وأعدم من أُعدم بسببه. ومما يروى عن الجنيْد رضى الله عنه أنه لم يكن يتكلم قط فى علم التوحيد إلا فى قلب بيته، وقد غلّق الأبواب، وأخذ مفاتيحها يضعها تحت فخذه، ويقول: أتحبون أن يكذّب الناس أولياء الله تعالى وخاصته ويرمونهم بالزندقة؟ وكان سبب فعله ذلك تكلمهم فيه، فكان من بعد يستتر بالفقه إلى أن مات!

وكان الشيخ محيى الدين عربى يقول: من لم يُقم بقلبه التصديق لما يسمعه من كلام هذه الطائفة فلا يجالسهم، فإن مجالستهم من غير تصديق سمٌ قاتل. والملاحظ أن الكثير من كلام الصوفية لايتمشى ظاهره إلا على قواعد الفلاسفة، ومن ثم كان من الواجب على العاقل أن لا

يبادر إلى الإنكار عليهم بمجرد عزو ذلك الكلام إليهم، بل ينظر ويتأمل فى أدلتهم التى استندوا إليها، فما كل ما قاله الفلاسفة فى كتبهم باطل، وإنما كان التحذير من مطالعة كتبهم خوفاً من حصول شبهة، ولا سيما من قِبَل أهل الإنكار والدعاوى.

****

ويشتمل كتاب القوت على أخبار رأينا حذفها للإطالة ولأنها غير مألوفة، ومعلومات ربما نعرفها لأول مرة، فيذكر المكّى مؤرخاً للحسن البصرى وبدايات التصوف فى البصرة: أن الحسن كان مجلسه أحد مجالس الذكر التى قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم: مجلس الذكر أفضل من صلاة ألف ركعة. وكان الحسن يخلو مع إخوانه وأتباعه من النُسّاك والعُبّاد فى بيته، مثل مالك بن دينار، وثابت البنانى، وأيوب السختانى، ومحمد بن واسع، وفرقد السبخى، وعبد الواحد بن زيد فيقول: هاتوا انشروا النور! فيتكلم عليهم فى هذا العلم من علم اليقين، وفى خواطر القلوب ووسواس النفوس.

وينبه المكّى إلى أن مجلس الذكر الذى يعنيه ليس هو مجلس القصص، ولا يعنى به القُصّاص، لأنه رأى فى القصص بدعة، ولم يُقَص فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويؤرخ لظهور القصص بوقوع الفتنة فظهر القُصّاص، فلما دخل علىّ البصرة جعل يخرج القُصّاص من المسجد ويقول: لا يُقَصّ فى مسجدنا. حتى انتهى إلى الحسن وهو يتكلم، فاستمع إليه ثُم انصرف ولم يخرجه. وجاء ابن عمر إلى مجلسه من المسجد فوجد قاصاً يقص، فوّجه إليه صاحب الشرطة أنْ أخرجه من المسجد، فأخرجه. ويستنتج المكّى أنه لو كان القص من مجالس الذكر، والقصاص علماء، لما أخرجهم ابن عمر من المسجد.

ومن رأيه أن علماء الآخرة هم الصوفية عن حق، وأن يكون المرء صاحب حديث صوفياً وليس صوفياً صاحب حديث. وهو يأخذ ذلك من حالة معروف الكرخى، فقد كان الإمام أحمد بن حنبل وكذلك يحيى بن سعيد رضى الله عنهما، يختلفان إليه ولم يكن يحسن من العلم والسنن ما يحسنانه، فكانا يسألانه. ويستشهد المكّى بالخبر الذى يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم سئل: كيف نصنع إذا جاء أمر لم نجده فى كتاب الله تعالى، ولا فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال سلوا الصالحين واجعلوه شورى بينهم، ولا تقضوا فيه أمراً دونهم. وفى حديث معاذ فإن جاءك ما ليس فى كتاب الله تعالى ولا فى سنة رسول الله؟ قال أقضى فيه بما قضى

الصالحون، فقال الحمد لله الذى وفق رسول رسوله، وفى بعضها أجتهد رأيى.

ويقول المكّى إن أول كتاب صنّف فى الإسلام كتاب **ابن جريج فى الآثار**، وحروف من التفاسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس بمكة، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعانى باليمن، جمع فيه سُنناً منشورة مبوّبة، ثم كتاب الموّطأ بالمدينة لمالك بن أنس فى الفقه، ثم جمع ابن عيينة كتاب **الجوامع** فى السنن والأبواب، وكتاب التفسير فى أحرف من علم القرآن، **وجامع** سفيان الثورى الكبير فى الفقه والأحاديث، فهذه أول ما صُنف ووضع من الكتب بعد وفاة سعيد بن المسيب وخيار التابعين، وبعد سنة عشرين أو أكثر ومائة من التاريخ.

ومنهج المكّى فى القوت يشرحه فيقول: إن جميع ما ذكره فيه من الأخبار عن النبى صلى الله عليه وسلم، ثم عن الصحابة وعن التابعين وتابعيهم، رسمه حفظاً، وساقه على المعنى إلا اليسير مما اتفق وجوده فى يديه، وقَرُب تناوله منه من الأخبار التى فيها طول، فإنه نقله من مواضعه، وما بعُد عليه فلم يفقهه ولم يشغل همته به، فما كان فيه من صواب وبيان وتثبت، فمن الله تعالى بحسن توفيقه وقوة تأييده، وما كان فيه من خطأ وعَجَل وهوى، فمنه بالسهو والغفلة، ومن عمل الشيطان بالعجلة والنسيان. وما يسوقه عن أصحاب علم القلوب من أحاديث صحيحة بسند ضعيف، إنما لأن لهم مذهبهم فى روايتها، والراوى قد لا يكون عند أصحابه من العلماء دون أصحاب الحديث ممن ضعّفه، وأهل القلوب فى روايتهم لها ليسوا متيقنين من باطلها، ولا يشهدون بروايتها إلا بما علموا، فطالما أن الأخبار الضعيفة لا تخالف الكتاب والسنة فلا يلزم ردّها، لأنه قد يكون فيها ما يدل عليها. وأصحاب علم القلوب يتعبدّون بحُسن الظن، ومنهيون عن الكثير من الظن، ومذمومون بسوء الظن. والتوصل إلى الحقيقة غير ممكن إلا عن طريق المعاينة، ولا سبيل إليها، فاضطروا إلى التقليد والتصديق بحسن الظن بالنَّقَلة مع ما تسكن إليه قلوبهم ويرون أنه حق. وقد روى عن الإمام أحمد بن حنبل أن الحديث إذا لم ينافه كتاب أو سنة، وإن لم يشهدا له، فإنه إن لم يخرج تأويله عن إجماع الأمة فإنه يوجب القبول. ويقول المكّى إن الحديث الضعيف عنده آثر من الرأى والقياس، وهذا أيضاً مذهب الإمام أحمد بن حنبل. والحديث إذا تداوله عصران، أو رواه القرون الثلاثة، أو دار فى العصر الواحد فلم ينكره علماؤه، وكان مشهوراً لا ينكره الطبقة من المسلمين، احتمل ووقع به حجة وإن كان فى سنده قول، إلاّ ما خالف الكتاب والسنن الصحيحة أو إجماع الأمة أو ظهر كذب ناقليه بشهادة الصادقين من

الأئمة. وبرغم أن المكّى يكرر دائماً أنه على مذهب شيخه أبى محمد سهل، فإنه يؤكد أيضاً أنه يشايع الجنيد وأحمد بن حنبل. ويطرح المكّى رأيه بعد تمحيص الآراء الآخرين فيقول مثلاً ونحن لا نرى ذلك أو يقول والذى عندى فى ذلك، أو يقول وأرى .

ويكثر المكّى من الحكايات عن صوفية الإسرائيليين، ومن الأخذ من الكتب الإسرائيلية، فيقول «فى أخبار موسى عليه السلام»، أو «فى أخبار يعقوب عليه السلام»، أو «فى الخبر أن رجلاً من بنى إسرائيل»، ويورد عن الحسن البصرى إلا أنه كثيراً ما يخالفه، فالحسن البصرى مثلاً فى مجال الخوف من الله عز وجل يخاف أن يقع بوصف الجبرية فى ترك المبالاة، وأن يجعله الله تعالى نكالاً لأصحابه وموعظة لأهل طبقته، فلما عوتب فى شدة حزنه قال الحسن ما يؤمننى أن يكون قد اطّلع علىّ فى بعض ما يكره فمقتنى فقال إذهب فلا غفُرت لك، فأنا أعمل فى غير معمل!! ويرد المكّى عليه بأن الخوف لا يكون لكثرة الذنوب، فلو كان كذلك لكنا أكثر خوفاً منه، وإنما يكون الخوف لصفاء القلب وشدة التعظيم لله تعالى.

وطريقة المكّى فى السرد عموماً طريقة جديدة، يعتمد فيها على تداعى الخواطر بخصوص الموضوع، فالشبيه يذكّر بشبيهه، ويكون الاستطراد على هذا المنوال، فالخوف فى مجاله يذكّره بمختلف استجابات طوائف الصوفية إزاءه، فيقول إن أكثر المخاوف كانت فى البصريين وأهل عبادان، فكان مذهبهم القدر والقول باللطف وتفويض المشيئة وتقديم الاستطاعة، ومنهم العمرية أصحاب عمرو، والعبادية شيعة عباد، والفوطية والعطائية أصحاب هشام الفوطى وابن عطاء الغزالى، ومنهم التيمية نفوا نصف القدر، ومنهم المنازلية أصحاب المنزلة بين المنزلتين والقول بمقدور من قادرين وفعل من فاعلين، فابتلوا بالاعتماد على الأسباب وبالنظر إلى أولوية الاكتساب، فحجبهم ذلك عن الله تعالى المقدِّر الوهاب، فهرب هؤلاء من الأمن والاغترار، فوقعوا فى أعظم منهما من القنوط والإياس، فصاروا فى كبائر المعاصى من خوفهم منها، فمثلهم مثل الخوارج خرجوا على الأئمة بالسيف لإنكار المنكر، فوقعوا فى أنكر المنكر من تكفير الأئمة وإنكارهم السلطان وتكفيرهم الأمة بالصغائر، وهذا من أبدع البدع، وهؤلاء كلاب أهل النار. ومثلهم أيضاً مثل المعتزلة هربوا من طريق المرجئة، أن الموحدين لا يدخلون النار، فحققوا الوعيد على الموحدين، وخلّدوا الفاسقين فى النار، فجاوزا حد المرجئة وزادوا عليهم، كما جاوزت المرجئة طريق أهل السنة وقصرت عنهم!

ولا يورد المكّى مجرد آراء الغير ولكنه قد يخالفهم وقد يوافقهم، وقد يعرض الرأيين ويكون له رأى ثالث، فقد فاضل مثلاً بين حال الغنى وحال الفقير للمريد، فأورد رأى أحمد بن عطاء، والرأى المخالف للخوّاص، ثم فضّل رأى الخوّاص، فقال وقد خالفه الخواص فوفق للصواب وكان فوقه فى المعرفة.

ولسوف نجد المكّى يكثر فى كتابه القوت من قول «ويقول الحسن» ويقصد به «الحسن البصرى»، فكلما فعل ذلك فاعلم أن المقصود به البصرى!

ومن دأب المكّى فى طرحه لرأيه أن يستوفى الآراء الأخرى، وكأنما هو يلخصها جميعاً أو يقول المستفاد منها، وطريقته فى ذلك أن يقول «واعلم أنى رأيت أن أجمل كذا»، فمثلاً بعد أن يتحدث حديثاً مستفيضاً فى الزهد ويتناوله من جميع نواحيه ويستقصيه بكل أشكاله، وعند مختلف المذاهب، ولدى كل الأنبياء والمرسلين، والحكماء والصحابة والتابعين، والحواريين والأحبار والصوفية، يقول فى نهاية الفصل مقالته التى يبدأها .. واعلم أنى رأيت».

ويبدو المكّى فى هذا الكتاب الذى بين أيدينا متضلعاً فى مذهب سهل بن عبد الله يتصدى لأقواله بالشروح الكثيرة. ويعتبر كتاب القوت خير مرجع للطريقة السالمية، وفيه جُماع آراء هذه الطريقة. وكان سهل بن عبد الله بن يونس التسترى (٢٠٠ ـ ٢٨٣هـ) أحد أئمة الصوفية وعلمائهم المتكلمين فى علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال، وله كتاب فى تفسير القرآن، وكتاب رقائق المحبين. وطريقته فى التصوف أصولية سُنّية. يقول : أصولنا ستة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكل الحلال، وكفّ الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق» ويقول: ومن كان اقتداؤه بالنبى صلى الله عليه وسلم لم يكن فى قلبه اختيار لشئ من الأشياء، ولا يجول قلبه سوى ما أحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وعنده أن المقتدى لا اختيار له بالاستحسان، وأن عليه أن يلزم نفسه سبعة أشياء : أولها الأمر والنهى وهو الفرض، ثم الأدب، ثم الترهيب، ثم الترغيب، ثم السعة. فمن لم يلزم نفسه هذه السبعة ولم يعمل بها، لم يكمل إيمانه، ولم يتم عقله، ولم يتهنأ بحياته، ولم يجد لذة طاعة ربه».

وعنده أن عبادة الله على ثلاثة وجوه : على الخوف والرجاء والقرب. وأركان الدين أربعة : الصدق واليقين والرضا والحب. ويحيل المكّى إلى سهل فيقول «وكان مذهب سهل». وكثيراً ما

ينسب مذهبه (أى مذهب سهل) للبصريين، أو أنه ينسب البصريين إلى مذهبه، فيقول وهذا أيضاً مذهب البصريين. ولعله مما يميز طريقة المكّى أنه كثيراً ما يردّ المذاهب إلى أصحابها الحقيقيين. ومن الغريب أنه يورد بعض الأقوال لرابعة العدوية باعتبارها عن المسيح عليه السلام، ولربما لذلك كان اتجاه بعض المستشرقين إلى أن ينسب بعض التصوف للتأثيرات المسيحية، وأن يجد فى أقوال رابعة العدوية مشابهة للأقوال المسيحية، مما حدا بالبعض أن ينسب رابعة نفسها لأصول مسيحية.

وهو يورد أنه فى أخبار عيسى عليه السلام أنه مرّ على طائفة من العُبّاد قد احترقوا من العبادة كأنهم الشنان البالية، فقال من أنتم، فقالوا نحن عبّاد، قال لأى شئ تعبّدتم، قالوا خوّفنا الله من النار فخفنا منها، فقال حق على الله أن يؤمنكم ما خفتم ، ثم جاوزهم فمرّ بآخرين أشد عبادة منهم، فقال لأى شئ تعبّدتم، قالوا شوّقنا الله إلى الجنان وما أعدّ فيها لأوليائه فنحن نرجو ذلك، فقال حق على الله أن يعطيكم ما رجوتم، ثم جاوزهم فمرّ بآخرين يتعبدون، فقال ما أنتم، قالوا نحن المحبون لله لم نعبده خوفاً من نار ولا شوقاً إلى الجنة ولكن حباً له وتعظيماً لجلاله، فقال أنتم أولياء الله حقاً، معكم أُمرت أن أقيم، فأقام بين أظهرهم. ويقول المكّى مؤرخاً للتأثير والتأثر فى مجال التصوف أنه عمّن روى عنهم هذا القول وأقيم هذا المقام جماعة من التابعين بإحسان منهم **أبو حازم المدنى ومعروف الكرخى ورابعة العدوية**، والأول قال إنى لأستحى من ربى أن أعبده خوفاً من العقاب فأكون مثل العبد السوء إنْ لم يُعط أجر عمله لم يعمل، ولكن أعبده محبة له، والثانى قيل فيه كان يعبد الله لا خوفاً من نار ولا شوقاً إلى الجنة، بل حباً له، والثالثة قالت ما عبدّت الله خوفاً من الله فأكون كالأمَة السوء إنْ خافت عملت، ولا حباً للجنة فأكون كأمَة السوء إن أُعطيت عملت، ولكنى عبدته حباً له وشوقاً إليه. ويرد المكّى بعضاً من هذا المذهب فى التعبّد لله إلى المسيح عليه السلام - كما رأينا - وبعضه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يكون أحدكم كالعبد السوء إنْ خاف عمل، ولا كالأجير السوء إنْ لم يُعط أجراً لم يعمل.

ومن القضايا التى يثيرها المكّى فى القوت نسبة الأقوال والشعر لأصحابه حيث يورد فى باب المحبة أبياتاً من الشعر منسوبة إلى أبى سعيد الخرّاز فيردها إلى روايات عن أبى تراب النخشبي ويحيى بن معاذ، ويقول المكّى صراحة «إن الخراز أخذها منهما لأنهما أقدم منه». ومن

هذه القضايا أيضاً ما هو لغوى، ففى باب الفقر يدخل فى جدل مع اللغويين حول معنى الفقير والمسكين فيقول إن أهل الله مختلفون فيهما، ويورد أقوالاً لإبن السكّيت والأصمعى ويونس بن حبيب، واستدلالات أهل العراق من هذه التفسيرات، ثم يقدم تفسيره هو مدللاً عليه مما ورد فى الأخبار عن النبى والصحابة والصوفية والحكماء.

ومن طريف ما نذكره عن المكّى طالما أنه قد ورد ذكر العراق والعراقيين أنه كان شديد التحامل عليهم، ففى باب الرضا يذكر عن بغداد وأهلها أنهم جزوعون عن الصبر وكفورون بالنعمة، وقد روى عن عبد الله بن المبارك قال طفت الشرق والغرب فما رأيت بلداً شراً من بغداد، قيل وكيف ذلك يا أبا عبد الرحمن، قال هو بلد تُزدرى فيه النعمة وتُستصغر فيه المعصية. وقيل له لمّا قدم خراسان كيف رأيت الناس ببغداد، قال ما رأيت بها إلاّ شرطياً غضبان أو تاجراً لهفان أو قارئاً حيران. وقيل إنه كان يتصدق كل يوم بدينار لأجل مقامه ببغداد إلى أن يخرج إلى مكة. ويقول المكّى إنه قد بلغه أنه كان يتصدق بستة عشر ديناراً! وينسب المكّى إلى سفيان الثورى أنه قال عن العراق أنه بلد الجبابرة!

ويبدو أن هذه الأقوال وإن كانت تحاملاً إلا أنها تأتى منه كمحاولة لفلسفة عن المكان وعن الزمان، فبعض الأزمنة تتمايز عن أخرى كيوم الجمعة بالنسبة للمسلمين، أويوم عرفة، و يوم عرفة إذا وافق يوم جمعة، وشهر رمضان والشهور الحرم وهكذا. وكذلك فى الأماكن، وفى الخبر أن الله أول ما ينظر من الأرض الحَرَم وأهله، وأول من ينظر إليهم أهل المسجد الحرام. ويقول المكّى عن عبادان نقلاً عن أبى تراب النخشبى رأيت الثغور كلها تسجد لعبادان، ورأيت عبادان ساجدة لجدة لأنها خزانة الحرم وفُرضة أهل المسجد الحرام. ويروى عن سفيان الثورى يقول والله لا أدرى أى البلاد أسكن، فقيل له خراسان، قال مذاهب مختلفة وآراء فاسدة، وقيل الشام قال يشار إليك بالأصابع، وقيل له مكة قال تذيب الكيْس والبدن. ويروى المكّى عن عمر أنه قال لمولى له أين تسكن، قال العراق، قال ما تصنع هناك ـ بلغنى أنه ما من أحد سكن العراق إلا قُيض له قرين من البلاء. وقال ذَكَر كعب الأحبار العراق يوماً فقال فيه تسعة أعشار الشر، وفيه الداء العضال. ويقول المكّى إن أول فرقة مرقت من الدين واتّبعت غير سبيل المؤمنين كانت من البصرة، والفرقة الثانية كانت من المدائن، والثالثة من البصرة، والفرقة الرابعة من الكوفة، ثم افترقت كل فرقة ثمانى عشرة فرقة، فتّمت اثنتين وسبعين فرقة، وكلها نَبَع بأرض العراق، ومنه

طلع قرن الشيطان وظهرت الفتن. ومَن سكن بلداً كثير المنكر ظاهر المعاصى، فكان منزعجاً فيه، غير مطمئن إليه، يرغب إلى الله تعالى فى إخراجه منه، وكان مضطراً للمقام فيه لعيلة ثقيلة أو قلة ذات يد، وعلى يقين من سلامة دينه، فإنه معذور عند الله. وفى تفسير قول الله تعالى - ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها - أنه إذا كنت فى بلد يعمل بالمعاصى فالواجب التحول منه إلى غيره. وتلك هى نظرية المكّى فى المكان. ومن الغريب أن المكّى ينسب إلى المصريين قتل عثمان، ففى معرض التاريخ للخوارج يقول المكّى هم أول قرن نبع من المبتدعين وأول بدعة ابتُدعت فى الإسلام، قالوا لا حُكم إلا لله ورأوا الخروج على الإمام، وكفّروا عثمان وصوّبوا قتل غوغاء المصريين له. وذلك أول تعبير أصادفه عن مصريين اشتركوا فى مقتل عثمان ولاحظ قوله «غوغاء» المصريين!!

وكتاب القوت ليس فى العبادات، وسيرى القارئ أن ما كتبه المكّى فيها هو فى فلسفة العبادات وليس فى فقهها، ففى الصوم مثلاً يتناول أدق خلجاته وخطراته، والصوم المعنىُّ عنده هو صوم الخصوص وليس صوم العوام، ويتناول الفروق بين السائل والمحروم والقانع والمعتّر من زوايا نفسية محضة. وما يهتم الكتاب بتناوله هو **قوت الأعمال**. ويشرح المكّى طريقة الصوفية شرحاً وافياً، ويبين الفروق بين المدارس الصوفية الكبرى فى الطعام واللباس وغيره، ويصف إلى أدق التفاصيل اختلاف الصوفية البغداديين عن الصوفية البصريين، ويقارن بين الاثنين فيقول إن طريقة البغداديين أعلى وطريقة البصريين أسلم. ويتحدث فى الحِمْية الصوفية كأحكم ما يكون الحديث ويفصّل ذلك حتى أنه ليذكر أن الرغيف يتكون من ٣٦ لقمة، ويوزع اللقمات على مدار الساعة، فكل ثلاث لقمات لساعة، واليوم كله له رغيفان!!

وكانت للمكّى اجتهاداته برغم أن كتابه «القوت» من نوع الكتب الجامعة لمختلف الآراء، وهو من دعاة التوسط، ورأيه يتوسط كل المذاهب والآراء، واختياره دائماً للأفضل فيقول «وأستحب أن» أو «أكره أن». ورغم أنه كثير الاستطراد إلا إنه يصف طريقته فيقول إنها تتوخى الإيجاز، ويقول لم يكن قصدى جمع كل ما قيل فى كل فن، وإنما الإيجاز فى إيراده والاكتفاء بذكر الأقوال المستحسنة وما تعلق بها مما لابد منه.

ومن أهم فصول كتاب القوت الفصل الذى يعقده المكّى للأخوّة فى الله والقواعد والأسس التى بها يمكن أن تنصلح المجتمعات. والبناء التحتى للمجتمع الأمثل الذى ينادى به المكّى بناء

مادى قوامه توزيع الثروة والعلاقات الاقتصادية بين الأفراد، والبناء الفوقى الذى ينهض عليه، والذى يشمل العرف والعادات والتقاليد والقوانين والأخلاق والسياسة والتعاليم والفلسفات والمعارف، بناءً مثالى يحكى عنه المكّى فيقول: لم يكن أحد فى المجتمع الإسلامى السلفى يقول فى رحله «هذا لى وهذا لك» (يقصد ما فى الرَحْل من أدوات إنتاج أو استهلاك)، وكان كل من احتاج إلى شئ استعمله عن غير مؤامرة (أى احتيال)، والله سبحانه وتعالى يصف المؤمنين حقاً بذلك فى قوله تعالى - وأَمْرُهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون، ويشرح المكّى الآية فيقول معنى أمرهم أى أمورهم فذكرها بصيغة الجمع لشئ واحد بينهم، وشورى أى مشاع غير مقسوم ولا يُستبد به، وأحدهم فيه سواء، ومما رزقناهم ينفقون أى كانوا خلطاء فى الأموال لا يميز بعضهم رَحْلَه من بعض، أى شركاء. ويبشر المكّى بمجتمع لا نقول إنه شيوعى ولكنه «شركة إسلامية» أو مجتمع شركات "socialistic" وليس «اشتراكياً» "Socialist" إذ المجتمع الاشتراكى كما حدثونا عنه منذ روبرت أوين (١٨٢٧م) ووليام جودوين مجتمع يوتوبى يتساوى فيه الناس فى الفرص وأمام القانون، واختلفوا فيه بصدد الدخول، وظهر اختلافهم فى صياغة شعار الاشتراكية «من كل حسب قدرته وإلى كل حسب احتياجاته» أو «وإلى كل حسب جهده أو حسب إنتاجه». واشتراكية أو بالأحرى اجتماعية المكّى بخلاف ذلك، لأن الفرد فيها يأخذ بقدر حاجته كمسلم يعى وجوده داخل الجماعة الإسلامية، وبحسب نصوص الشريعة والسنة، بصرف النظر عن جهده أو إنتاجه، وقد يكون جهده أكبر من الباقين وما يتقاضاه أقل منهم. ويطلق المكّى اسم المؤاخاة على هذا النظام، ويصف ذلك فيقول كان الحسن البصرى يدخل بيته فيجد إخوانه فيه يأكلون ما يجدون بغير إذن، وكان يُسَّر لذلك ويقول هكذا كنا. ويقول المكّى عن أحد هذه التجمعات الإخائية: كان بيت سعيد بن أبى عروبة فيه الطعام معروضاً للناس ظاهراً لهم، فاللحم كان مسلوخاً مُصلّقاً، والخبز موجود ظاهر. وكذلك كان يفعل بالثياب والأثاث. وكان جميع مافى منزله مسبلاً، فكل من دخل عليه من إخوانه إنْ شاء قطع من المسلوخ فشوى وطبخ، وإن شاء أكل من الخبز بما وجد من الأدم، ومن شاء لبس من الثياب ما شاء، فكان ذلك مشاعاً فى منزله لمن أراد تناوله. ويقول المكّى أيضاً: إنه فى مثل هذا المجتمع الإخائى كان بعضهم ينقطع فى منزل أخيه يفرده بمكان يقوم بكفايته ولا يبرح من منزله على الدوام.

وأساس هذا الإخاء الإشتراكى الذى يبشّر به المكّى الأخلاق والتربية الإسلامية والسُنّة النبوية وسلوك الصحابة رضوان الله عليهم، فالفرد المسلم مأمور بالحركة فى الحياة حركة

تستوعب حاجاته وحاجات من يعولهم، وكذلك حاجات من لا يستطيعون الحركة أو لا يقدرون على الوفاء بما تقوم به حياتهم، وذلك هو الفرق بين الاشتراكية العلمانية أو العلمية واشتراكية الإسلام عند المكّى.

ومن السنة البذل للإخوان والمشاركة بينهم فى كل شئ، أو كما يقول الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: طعام الواحد يكفى الاثنين، وطعام الاثنين يكفى الأربعة، والأصل فى ذلك ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المسلم يأكل فى مَعًى واحد، والمنافق فى سبعة أمعاء.

وهذه الإخائية التى يتمثّلها المكّى فى كتابه «القوت» وينبه إليها عن الرسول صلى الله عليه وسلم نقلاً عن مجتمع المدينة الذى آخى فيه النبى عليه صلوات الله وسلامه بين المهاجرين والأنصار - أقول هذه الإخائية تسبق الاشتراكية الأخلاقية التى قال بها كنط بقرون. ومذهب كنط يعطى الأولوية للعلاقات الأخلاقية ولا يقر مقولات ماركس القائمة على صراع الطبقات والثورة الاجتماعية ودكتاتورية البروليتاريا، ويجعل من الأخلاق علماً موضوعه رفع التناقضات فى العلاقات الاجتماعية. ومقارنة المكّى وكنط ترفع من شأن المكّى فى هذه الخصوصية إلى السماكين بجميع المعايير، لأن كنط يقيم اشتراكيته الأخلاقية على مقولة إنسانية حيث يجعل شعاره «إعمل دائماً بحيث تعتبر الإنسانية سواء فى شخصك أو فى الآخرين غايةً وليست مجرد وسيلة». والمكّى يقيم إخائيته على الدين، ويرجع الأخلاق إلى الدين، ويردها إلى ناموس الله فى خلقه والكون، ولا يعتبر نفسه متحدثاً فيها من فراغ فلقد عايشها الرسول والصحابة أجمعون معيشة حقيقية وواقعية، بينما كنط كان حديثه فيها مجرد أمانى، وانتهى من مناقشته لميتافيزيقا الوجود إلى أن الدين لم يسبق الأخلاق ولم يحددها، وأن الأخلاق على العكس هى التى أدّت إلى الدين. واشتراكية كنط لذلك كان أساسها الأخلاق والفرد الأخلاقى باعتبار الأخلاق أساس الاجتماع، بينما، اشتراكية المكّى أساسها الدين والفرد العابد الذى يفعل فى الحياة بالنية، فالأعمال لُبّها النوايا، والأعمال التى تهمه هى أعمال القلوب، والإنسان المثالى فى الإسلام هو الرسول صلوات الله عليه وسلامه الذى وصفه الله بأنه على خُلُق عظيم، وكتاب المكّى أساساً فى المعاملة أى فى الأخلاق، وإنما هى الأخلاق التى أساسها تمثل المؤمن لمبدأ الخَلْق فى الوجود وهو المحبة، وتقوم على الإيمان بالله والتوكل عليه والتسليم له، والتقوى والورع

والزهد والتجرد، وكلها أساسيات اعتقادية. وطريقة المكّى طريقة اعتقادية إيمانية، وطريقة كنط عقلانية فلسفية، «والقوت» الذى يصفه المكّى هو «قوت القلوب»، بينما القوت الذى يتحدث فيه كنط هو «قوت العقول» الذى يصلح به التفكير العقلانى الفلسفى على مذهبه المثالى الذى يقوم على التصور الفكرى الترانسندنتالى، وأفكاره مصادرها الحس والعقل وليس فيها ذكر للنيّة.

ويتفوق المكّى كعالم نفس يهتم بالتحليل النفسى ويفرّق بين أدق الخواطر والوساوس والمشاعر والأحاسيس، وله كلام رهيف فى الفروق بين المداراة والمداهنة، والفراسة وسوء الظن، واليقظة والحسد، والعتاب والتوبيخ، والصداقة والأخوة، والمودة والمحبة، ويغوص فى المعانى وأضدادها، ويصل فى تحليل النفس إلى أبعد الأغوار.

والإخائيون أو الإخوان الذين يكتب عنهم المكّى ليسوا فقط مجتمع المدينة فى عهد الرسول وخلفائه، ولكنهم كل مجتمعات الإسلام إذا عادوا إلى الدين الحق وتعلموا على المشايخ الأجّلاء، وهم مجتمع وصفهم الله تعالى فقال: ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصه. ويحكى المكّى فى المؤاخاة عن أبى هريرة عندما سأله أحدهم أن يؤاخيه : أتدرى ما حق الإخاء؟ قال الرجل عرّفنى . قال أن لا تكون بدرهمك ودينارك أحق منى!! ويحكى المكّى عن علىّ بن الحسين رضى الله عنهما أنه سأل هل يدخل أحدكم يده فى كيس أخيه فيأخذ منه ما يريد؟ فهذه هى المؤاخاة. ويصل الأمر عند المكى أن يقول : إذا مات صديق الرجل فقد فقد عضواً من أعضائه!!!

وفى الفصل الخامس والأربعين يتحدث المكّى عن التوافق العائلى بين الأزواج ويغوص فى أعماق العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة كأى من علماء النفس المعاصرين، وكواحد من المتخصصين فى الطب النفسى، ويصف أدواء الزواج والخلافات العائلية ويتعرض لعلاجها، ويصنّف الأزواج والزوجات فى أنماط، وهى أول مرة فيما نعلم يُذكر فى باب النساء من يطلق عليهن المكّى الأنّانة والمنّانة والحنّانة والحدّاقة البرّاقة والشدّاقة. ويعرّف الأنانة مثلاً بإنها التى تكثر الأنين والتوجع والتشكى، والمنّانة هى التى تمن على زوجها. ويذكر أيضاً من أنماط النساء المختلعة والمباهية والعاهرة والناشز. والمختلعة مثلاً هى التى تطلب الخلع من زوجها أى الطلاق، وتهدده به باستمرار، والمباهية هى التى تدأب على الطلب لتباهى غيرها وتفتخر على نظائرها .

وينصح المكّى الأزواج بما ينصح به العلماء الكبار مثل ماسترز وجونسون وكثيرين غيرهما ممن كتبوا فى موضوع الجنس والزواج - ينصح الرجل فى الوطء ليتمهل على أهله وليتوقف

حتى تقضى هى نهمتها كمايقضى هو نهمته، فربما تأخر إنزال المرأة لما بعد إنزال الرجل فيكون ذلك كريهاً لها، فإن علم أنها سبقت بالشهوة لم يحتج إلى التوقف، وليس يخفى سبقها بالشهوة على فطن، وأوفق ما يكون الجماع بينهما إذا اتفقت الشهوتان منهما معاً، وأكثر ما يكون التباغض بين الزوجين لاختلافهما من طبع الإنزال أن يكون طبعه سابقاً لطبعها، ويحكى المكّى من سيرة السلف أنهم لم يكونوا يتأخرون عن المرأة حتى يستأمرها فى ذلك، وينبغى له أن يعلّمها، وهذه بعض التربية النفسية الجنسية فيما يخص الرجل والمرأة ويريد المكّى للمريد أن يحيط بها ويعمل بمقتضاها فى حياته مع أهل بيته.

والمهم فى كتاب «القوت» للمكّى أنه كتاب فى فلسفة الدين، وفيها يتحدث المكّى كثيراً عن سُنن السلف بقصد التزيين لها والحض عليها بعد أن يشرحها. ويحكى عمّا كان متبعاً من العادات والتقاليد فيقول وهذه سُنّة قد عفت ومن عمل بها فقد نعّشها، أو يقول وهذا طريق قد مات فمن قام به فقد أحياه، أو وهذا التفقد والبحث طريق قد مات فمن عمل به فقد أحياه، أو وهذه الطريقة قد جُهلت فمن عمل بها فقد أظهرها ، أو وهذا طريق قد مات أهله فمن سلكه فقد أحياهم، أو وهذه سيرة المتقدمين وطريق السابقين فمن سلكها لحق بهم وكان أحدهم. أى أن المكّى ينبه إلى سُنّة قد عفت وطريقة مات أهلها، فكأنه بإحيائها يحيهم أو يلحق بهم ويكون كأحدهم، وهذا هو ما يحبذه المكّى للمريد وهو درب السالكين إلى الله تعالى. ولقد قيل إن الإسلام كله آداب فمن لزم آدابه فقد بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيّعها فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يرجو القبول. والمكّى يرجو للمريد حسن آداب الظاهر والباطن، فلا ظاهر لمن لا باطن له، ولا باطن لمن لا ظاهر له، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول «لو خشع قلبه لخشعت جوارحه».

والمكّى قرآنى يدل على الداء والدواء، والداء هو الذنوب، والدواء الاستغفار، والإسلام هو اتبّاع الأخلاق السنية والتخلى عن الأخلاق الدنية، والمسلم دائم التصفية لنفسه وقلبه دوام افتقاره إلى مولاه، فبدوام الافتقار ينفى عن نفسه وقلبه الكدر، وكلما تحركت نفسه بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته الناقدة وفرّ منها إلى ربه، فبدوام تصفيته جمعيته وبحركة نفسه، ودقته وكدره، فهو قائم بربه على قلبه، وقائم بقلبه على نفسه، والله تعالى يقول - كونوا قوامين لله شهداء بالقسط - وهذه القوامية لله على النفس هى التحقق بالإيمان، ولابد للمؤمن من دوام

الحركة بدوام الافتقار ودوام الفرار وحسن التفقد لمواقع إصابات النفس. والمكّى غايته من كتابه «القوت» أن يوقف المريد على هذا المعنى فيكون المتحقق بالله سبحانه، وكأن فلسفة المكّى يلخصها أنا أعبد الله فأنا موجود ـ إذ الوجود كل الوجود هو التعبد لله تعالى، فيصدق فيه قول القائل فى هذا النفر من البشر الذين يحيون بالعبادة لله -:

قوم همومهم بالله قد علقت   فما لهم هِمَمٌ تسمو إلى أحد

فمطلب القوم مولاهم وسيدهم   يا حُسن مطلبهم للواحد الصمد

عبد المنعم الحفنى

★★★★

★★

★

الفصل الأول

ذكر الآى التى فيها ذكر المعاملة

قال اللّه تعالى ومن أراد الآخرة وسَعَى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيُهم مشكورا، وقال عز وجل مَن كان يريد حرْث الآخرة نزِد له فى حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب. وقال سبحانه وتعالى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يُرى ثُم يجزاه الجزاء الأوفى. وقال جلّت قدرته كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية. وقال عز من قائل ولكلٍ درجاتٌ مما عملوا. وقال تبارك وتعالى وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلاّ مَن آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بماعملوا. وقال سبحانه وتعالى ونودُوا أن تلكمُ الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون. وقال سبحانه وتعالى فلا تعلم نفس ما أُخفى لهم من قُرّة أعين جزاءً بما كانوا يعملون. وقال سبحانه وتعالى نِعْم أجرُ العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون. وقال سبحانه لهم دارُ السلام عند ربهم وهو وليّهم بما كانوا يعملون.

الفصل الثانى

فى ذكر الآى التى فيها أوراد الليل والنهار

قال اللّه تعالى وهو الذى جعل الليل والنهار خِلْفةً لمن أراد أن يذّكر أو أراد شكورا. وقال جلّ ثناؤه إنّ لك فى النهار سبحا طويلا، واذكر اسم ربك وتبتّل إليه تبتيلا. وقال سبحانه واذكر اسم ربك بُكرةً وأصيلا، ومن الليل فاسجد له وسبّحه ليلا طويلا. وقال تعالى وسبّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، ومن الليل فسبّحه وأدبار السجود. وقال تعالى وسبّح بحمد ربك حين تقوم، ومن الليل فسبّحه وإدبار النجوم. وقال تعالى إن ناشئة الليل هى أشدّ وطأً وأقوم قيلا. وقال تعالى ومن آناء الليل فسبّح وأطراف النهار لعلك ترضى. وقال تعالى أمَنْ هو نانت آناء الليل ساجداً وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوى الذين يعملون والذين لا يعلمون. وقال تعالى تتجافى جنوبهم عن المضاجع، يدعون ربهم خوفا وطمعا. وقال

عز اسمُه والذين يبيتون لربهم سُجّدا وقياما. وقال سبحانه وتعالى كانوا قليلا من الليل مايهجعون وبالأسحار هم يستغفرون. وقال تعالى أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل، وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر كان مشهودا، ومن الليل فتهجّد به نافلةً لك. وقال وأقم الصلاة طرفيّ النهار وزُلفاً من الليل، إن الحسنات يُذهبن السيآت، ذلك ذكرى للذاكرين. وقال سبحانه وتعالى فسبحان الله حين تُمسون وحين تُصبحون، وله الحمد فى السموات والأرض، وعشياً وحينتظهرون.

الفصل الثالث

فى ذكر عمل المريد فى اليوم والليلة من فرائض الأوامر وفضائل النوادب

فمن ذلك يُستحب عند طلوع الفجر، وهو البياض المشتق من سواد الليل، المعترض فى قُطر السماء الشرقى عند إدبار النجوم، وإدبارها افتراقها وذهاب ضوءها لغلبة ضوء الفجر عليها، وهو الوقت الذى أمر الله تعالى فيه بذكره، إذ يقول تعالى ومن الليل فسبّحه وإدبار النجوم، فليصلْ العبد ركعتى الفجر ويقرأ فيهما قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد، فهو أكثر ماروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ فيهما، فإن شاء خافَتَ وإن شاء جهر، فقد رُوِىَ حديثان، أحدهما يدل على المخافتة وهو حديث عائشة رضى الله عنها، قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفف ركعتى الفجر حتى أقول قرأ فيهما بفاتحة الكتاب أم لا، والآخر يدل على الجهر وهو حديث ابن عمر: رَمقْتُ النبى صلى الله عليه وسلم عشرين يوما فسمعتهُ يقرأ فى ركعتى الفجر قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد. وفى حديث أبى هريرة وابن عباس أنه قرأ صلى الله عليه وسلم فى الركعة الأولى الآية التى فى سورة البقرة،قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل – إلى آخرها، وفى الركعة الثانية ربّنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين، فليقرأ بذلك أحيانا، ثم يستغفر الله تعالى سبعين مرة، يقول فى كل مرة أستغفرُ الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم، وأسأله التوبة، ثم يسبح الله ويهلله مائة مرة بالكلمات الأربع الجامعات المختصرات، التى هى فى القرآن وليست بقرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وأستغفر الله، وتبارك الله – مرة واحدة، وليَدْعُ بهذا الدعاء، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو به بعد ركعتى الفجر.

(روينا) عن ابن أبى ليلى عن داود بن علىّ عن أبيه عن ابن عباس قال: بعثنى العباس إلى

رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعلى آله، فأتيته ممسيا وهو فى بيت خالتى ميمونة، فقام يصلى من الليل، فلما صلّى الركعتين قبل صلاة الفجر قال: اللهّم إنى أسألك رحمةً من عندك تهدى بها قلبى، وتجمع بها شملى، وتلم بها شعثى، وتردّ بها إلفتِى، وتصلح بها علانيتى، وتقضى بها دينى، وتحفظ بها غائبى، وترفع بها شاهدى، وتزكّى بها عملى، وتبيّض بها وجهى، وتلقنّى بها رشدى، وتعصمنى بها من كل سوء. اللهّم اعطنى إيمانا صادقا، ويقينا ليس بعده كفر، ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة. اللهّم إنى أسألك الفوز عند القضاء، ومنازل الشهداء، وعيش السعداء، ومرافقة الأنبياء، والنصر على الأعداء. اللهّم إنى أنزل بك حاجتى وإن قَصُرَ رأيى، وضَعُفَ عملى، وافتقرتُ إلى رحمتك فأسألك ياقاضى الأمور، وياشافى الصدور، كما تجير بين البحور أن تجيرنى من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور، ومن فتنة القبور. اللهّم ما قَصُرَ عنه رأيي وضعف عنه عملى، ولم تبلغه نيتى وأمنيتى، من خير وعدته أحدا من خلقك، أو خير أنت معطيه أحداً من عبادك، فإنى أرغب إليك فيه، وأسألكه يارب العالمين. اللهّم اجعلنا هادين مهديين، غير ضالين ولا مضلّين، حر باً لأعدائك، وسلماً لأوليائك، نحب بحبك الناس، ونعادى بعداوتك من خالفك. اللهّم هذا الدعاء وعليك الإجابة، وهذا الجهد وعليك التكلان، فإنا لله وإنا إليه راجعون، لا حول ولا قوة إلا باللّه ذى الحبل الشديد والأمر الرشيد، أسألك الأمن من يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود، مع المقربين الشهود، والركّع السجود، والموفين بالعهود، إنك رحيم ودود، أنت تفعل ماتريد. سبحان الذى تعطّف بالعز وقال به. سبحان الذى لبس المجد وتكرّم به. سبحان الذى لاينبغى التسبيحُ إلاّ له. سبحان ذى الفضل والنعم. سبحان ذى القدرة والكرم. سبحانه الذى أحصى كل شئ بعلمه. اللهّم اجعل لى نوراً فى قلبى، ونوراً فى قبرى، ونوراً فى سمعى، ونوراً فى بصرى، ونوراً فى شَعْرى، ونوراً فى بَشَرى، ونوراً فى لحمى، ونوراً فى دمى، ونوراً فى عظامى، ونوراً من بين يدىّ، ونوراً من خلفى، ونوراً عن يمينى، ونوراً عن شمالى، ونوراً من فوقى، ونوراً من تحتى. اللهّم زدنى نوراً واعطنى نوراً، اجعل لى نورا.

وهذه الأنوار التى سألها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعلى آله فى كل جزء من أجزائه، إنما هو دوام النظر من نور النور، يشاهد القيومية فى كل سكون وحركة منه، يكلؤه بنظره ويتولاه بحيطته، فينظر إليه بدوام نظره ليستقيم له بتولى حفظه، فلا يزيغ بصره ولا يطغى، ولا تستهويه النفس بهوى، فليدعُ العبدُ بهذا الدعاء بعد ركعتىّ الفجر، لكنْ يقدم على دعائه المسئلة

لله تبارك وتعالى فى الصلاة على محمد صلى اللّه عليه وسلم وعلى آله، فيستجيب سبحانه وتعالى دعوته ولا يرده، لقول الرسول صلى اللّه عليه وسلم إذا سألتم اللّه تعالى حاجة فابدؤا بالصلاة عليّ، فإن اللّه تعالى أكرم من أن يُسئل فى حاجتين فيعطى إحداهما ويرد الأخرى، ثم ليصل العبد صلاة الغداة فى جماعة ليكون فى ذمة اللّه وجواره. وفى الحديث صلاة الغداة فى جماعة أفضل من قيام ليلة، وصلاة العشاء الآخرة فى جماعة أفضل من قيام نصف ليلة. وليكنْ قائماً فى صلاته، بإلقاء سمع وشهود قلب، وحضور عقل وجمع هَمّ، وصحة تيقظ وحُسن إقبال وتدبّر للكلام، وترتيل وتفهّم بالتماس غرائب التنزيل، فإذا سلّم من صلاته قال مايُستحب من الذكر.

الفصل الرابع

فى ذكر مايُستحب من الذكر وقراءة الآى المندوب إليها بعد التسليم من صلاة الصبح استخرجناها من الآثار

اللهّم صلّ على محمد وآله. اللهّم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام، فحيّنا رَبنا بالسلام، وأدخلنا دار السلام، وتباركتَ ياذا الجلال والإكرام. ثم ليقل سبحان اللّه العظيم وبحمده ثلاثاً، ثم يستغفر اللّه ثلاثا، ثم يقول اللهّم لا مانع لما أعطيتْ، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، ثم ليقل وهو ثان رجْله قَبْل أن يتكلم هذه الكلمات عشر مرات: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حى لايموت، بيده الخير كله وهو على كل شئ قدير. ثم ليقرأ كذلك"قل هو اللّه أحد" عشراً، ويقول أعوذ باللّه السميع العليم من الشيطان الرجيم، رب أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك رب أن يحضرون عشر مرات. وليقل سبحان ربك رب العزة عما يصفون إلى آخر السورة ثلاث مرات. وليقل فسبحان اللّه حين تمسون وحين تصبحون إلى آخر الثلاث آيات ثلاث مرات، ثم يسبّح ثلاثاً وثلاثين، ويحمد كذلك، ويكبر أربعاً وثلاثين، فتلك مائة مرة، وإنْ أحب جعلها خمسا وعشرين زاد فيها التهليل. وإنْ قال سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر خمساً وعشرين مرة استوعب ذلك مائة تسبيحة، وكان أيسر عليه لأجل المداومة، ثم يقرأ سورة الحمد وآية الكرسى وخاتمة البقرة، من قوله آمن الرسول وشهد اللّه الآية، وقل اللهّم مالك الملك الآيتين، ثم يقرأ لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخرها، ثم يقرأ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً الآية، ثم يقرأ صدق اللّه رسوله

الرؤيا إلى آخر السورة، ثم يقرأ خمساً من أول سورة الحديد، وثلاثاً من آخر سورة الحشر، ثم ليقل اللهّم إني أسألك بكَرَم وجهك الصلاة على محمد وآله، وأسألك الجنة وأعوذ بك من النار سبع مرات. وقال قبيصة بن مخارق للنبي صلى الله عليه وسلم علّمني كلمات ينفعني الله بها وأوجزْ، فقد كبر سني وعجزت عن أشياء كنت أعملها، فقال أمّا لدنياك فإذا صلّيت الغداة فقل ثلاث مرات سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم وبحمده، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإنك إذا قلتهن أمِنْتَ من عَمًى وجذام وبرص وفالج. وأمّا لآخرتك فقل اللهّم صلّ على محمد وآل محمد، واهْدني من عندك، وأفِضْ عليّ من فضلك، وانشرْ عليّ منْ رحمتك، وأنزلْ عليّ من بركاتك. ثم قال رسول الله صلي الله عليه وسلم أمّا أنه إذا وافى بهن يوم القيامة لم يدعهن فتح له أربعة أبواب من الجنة، يدخل من أيها شاء.

وإن قال المسبعات العشر التى أهداها الخضر عليه السلام إلى إبراهيم التيمى ووصّاه أنْ يقولها غَدْوَة وعشية، وقال له الخضر أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم، وذكر من فضلها وعِظَم شأنها مايجل عن الوصف، وأنه لايداوم على ذلك إلاّ عبد سعيد قد سبقت له من الله عز وجل الحسنى، وحذفنا ذكر فضائلها اختصارا- فإن قال ذلك فقد استكمل الفضل. والمداومة عليهن تجمع له جميع مافرقناه من الأدعية. روى ذلك سعيد بن سعيد عن أبى طيبة عن كرز بن وبرة وكان من الأبدال. قال أتانى أخ لى من الشام فأهدى لى هدية،وقال ياكرز: إقبل منى هذه الهدية فإنها نِعْم الهدية. فقلت يا أخى مَن أهدى لك هذه الهدية ؟ قال أعطانيها إبراهيم التيمى. قلت أفلم تسأل إبراهيم من أعطاه ؟ قال بلى، قال كنت جالسا في فناء الكعبة وأنا فى التهليل والتسبيح والتحميد، فجاءنى رجل فسلّم علّى وجلس عن يمينى، فلم أر فى زمانى أحسن منه وجها، ولا أحسن منه ثيابا، ولا أشد بياضا، ولا أطيب ريحا، فقلت ياعبد الله من أنت ومن أين جئت، فقال أنا الخضر، فقلت فى أى شئ جئتنى، قال جئتك للسلام عليك وحباً لك فى الله عز وجل، وعندى هدية أريد ان أهديها إليك، فقلت ماهى، قال هى أن تقرأ قبل طلوع الشمس وقبل أن تنبسط على الأرض، وقبل أن تغرب، سورة الحمد سبع مرات، وقل أعوذ برب الناس سبع مرات وقل أعوذ برب الفلق سبع مرات، وقل هو الله أحد سبع مرات، وقل يا أيها الكافرون سبع مرات، وآية الكرسى سبع مرات، وتقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر سبع مرات، وتصلّى على النبى صلّي الله عليه وسلم سبع مرات، وتستغفر لنفسك ولوالديك وما ولدا، ولأهلك وللمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات سبع مرات، وتقول اللهّم يارب افعل

بى وبهم عاجلاً وآجلاً فى الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل، ولاتفعل بنا ياmولاى مانحن له أهل ، إنك غفور حليم، وجواد كريم، رؤف رحيم، سبع مرات، وانظر أن لاتدع ذلك غدوة وعشية. فقلت أحبُ أن تخبرَنى من أعطاك هذه العطية ؟ فقال أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم، فقلت أخبرنى بثواب ذلك، فقال لى إذا لقيت محمدا صلي الله عليه وسلم فسله عن ثوابه فإنه سيخبرك. فذكر إبراهيم التيمى رحمه الله أنه رأى ذات ليلة فى منامه أن الملائكة جاءته فاحتملته حتى أدخلوه الجنة، فرأى مافيها ووصف وصفا عظيما مما رأى فى صفة الجنة، قال فسألت الملائكة فقلت لمن هذا كله، فقالوا للذى يعمل مثل عملك. وذكر أنه أكل من ثمرها وسقوْه من شرابها، فأتانى النبى صلى الله عليه وسلم ومعه سبعون نبيا وسبعون صفا من الملائكة، كل صف مثل مابين المشرق والمغرب، فسلّم علّى وأخذ بيدى، فقلت يا رسول الله إن الخضر أخبرنى أنه سمع منك هذا الحديث، فقال صدق الخضر، صدق الخضر، وكل مايحكيه فهو حق، وهو عالم أهل الأرض، وهو رئيس الأبدال، وهو من جنود الله عز وجل فى الأرض، فقلت يا رسول الله فمن فعل هذا ولم يرمثل الذى رأيت فى منامى، هل يُعطى مما أُعطيته، قال والذى بعثني بالحق إنه ليُعطى العامل بهذا وإن لم يرني ولم ير الجنة، إنه ليُغفرُ له الكبائر التى عملها، ويرفع الله عز وجل عنه غضبه ومقته، ويؤمر صاحب الشمال أنْ لا يكتب عليه شيئاً من السيآت إلى سنة. والذى بعثنى بالحق نبياً ما يعمل بهذا إلا من خلقه الله تعالى سعيدا، ولا يتركه إلاّ من خلقه شقيا، وقد كان إبراهيم التيمى رحمه الله مكث أربعة أشهر لم يطعم طعاما ولم يشرب شرابا، فلعله بعد الرؤيا والله تعالى أعلم. ذَكَرَه الأعمش عنه. فهذا من جُمل ما أتى مما يُستحب أن يُقرأ أو يُقال بعد صلاة الغداة، ولذلك فضائل جمة وردت بها الأخبار حذفنا ذكرها للاختصار.

الفصل الخامس

فى ذكر الأدعية المختارة بعد صلاة الصبح. وهى الجامعة المختصرة المأثورة فى الأخبار المتفرقة

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا افتتح دعاءً افتتحه بقوله سبحان ربى العلّى الأعلى الوهّاب، وأنه كان يقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت وهو حى لا يموت، بيده الخير وهو على كل شئ قدير. لا إله إلا الله، أهل النعمة والفضل والثناء

الحَسَن. لا إله إلا الله، ولانعبد إلاّ إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

وروينا أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال لعائشة رضى الله عنها عليك بالجوامع الكوامل. قولى اللهّم إنى أسألك الصلاة على محمد وآله، وأسألك من الخير كله عاجله وآجله، وما علمتُ منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ماعلمت منه ومالم أعلم، وأسألك الجنة وما قرّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول وعمل، وأسألك من الخير ما سألك به عبدُك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم، وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم، وأسألك ما قضيت لى من أمر، أنْ تجعل عاقبته رشداً برحمتك يا أرحم الراحمين.

(وعن) أنس بن مالك قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يافاطمة، مايمنعك أن تسمعى ما أوصيك به، أن تقولى ياحى يا قيوم، برحمتك أستغيث فأغثنى، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين، وأصلح لى شأنى كله.

وعلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله عنه هذا الدعاء فقال، قل اللهّم إنى أسألك بمحمد نبيّك، وإبراهيم خليلك، وموسى نجيّك وكليمك، وعيسى روحك وكلمتك، وبكلام موسى وإنجيل عيسى، وزبور داود وفرقان محمد صلى الله عليه وسلم، وكل وحىّ أوحيته أو قضاء قضيته، أو سائل أعطيته، أو غنى أقنيته، أو فقير أغنيته، أو ضال هديته، وأسألك باسمك الذى أنزلته على موسى، وأسألك باسمك الذى ثبّت به أرزاق العباد، وأسألك باسمك الذى وضعته على الأرض فاستقرت، وأسألك باسمك الذى وضعته على السموات فاستقلت، وأسألك باسمك الذى وضعته على الجبال فأرسَتْ، وأسألك باسمك الذى استقل به عرشك، وأسألك باسمك الطهر الطاهر، الأحد الصمد، الوتر المنزّل فى كتابك من لدنْك من النور المبين، وأسألك باسمك الذى وضعته على النهار فاستنار، وعلى الليل فأظلم، بعظمتك وكبريائك وبنور وجهك، أن تصلى على محمدٍ نبيّك وعلى آله، وأنْ ترزقنى القرآن والعلم، وتخلطه بلحمى ودمى وسمعى وبصرى، وتستعمل به جسدى بحولك وقوتك، فإنه لا حول لى ولا قوة إلا بك يا أرحم الراحمين.

وروينا عن ابن عمر أن جبريل عليه السلام أتى النبى صلى الله عليه وسلم فعلّمه هذا الدعاء: يانور السموات والأرض، ياجمال السموات والأرض، يا عماد السموات والأرض، يابديع السموات والأرض، ياذا الجلال والإكرام، يا صريخ المستصرخين، ياغوث المستغيثين، يامنتهى

رغبة الراغبين، والمفرّج عن المكروبين، والمروّح عن المغمومين، ومجيب دعوة المضطرين، وكاشف السوء، وأرحم الراحمين، وإله العالمين، منزولٌ بك كل حاجة يا أكرم الأكرمين، ويا أرحم الراحمين.

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: لم يكن النبى صلّى الله عليه وسلم يَدَعُ أنْ يدعو بهؤلاء الكلمات حين يصبح وحين يمسى: أللّهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة، وأسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى، وفى أهلى ومالى. أللهّم استر عوراتى وآمن روعاتى، وأقِلْنى عثراتى. أللّهم احفظنى من بين يدّى ومن خلفى، وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى، وأعوذ بك أن أُغتال من تحتى.

وقال بريد الأسلمى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا بريد ألا أعلمك كلمات من أراد الله عز وجل به خيراً علّمهن إياه، ثم لم ينُسهن إياه أبدا، قال قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليك، قال قل اللّهم إنى ضعيف فقوّ فى رضاك ضعفى، وخذ إلى الخير بناصيتى، واجعل الإسلام منتهى رضاى. أللّهم إنى ضعيف فقوّنى، وإنى ذليل فأعزنى، وإنى فقير فأغننى برحمتك يا أرحم الراحمين.

وروينا عن أبى مالك الأشجعى قال، حدثنى أبى قال، كنا نغدو إلى النبى صلى الله عليه وسلم فيجئ الرجل أوتجئ المرأة فيقول، كيف أقول يا رسول الله إذا أصبحت، قال تقول اللّهم صلّ على محمد وآله، واغفر لى وارحمنى، واهدنى وارزقنى، وعافنى واجبرنى، فقد جمعن لك خير دنياك وآخرتك.

وروينا عن أبى زرعة قال، كتب إلّى أبو هريرة فيما أكاتبه، وشافهنى به فيما ألقاه، أن الشيطان لايطيف بإنسان يقول حين يصبح وحين يمسى: أللّهم إنى أعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر السامة والهامة، وأعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر عذابك وشر عبادك، وأعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر الشيطان الرجيم. أللّهم إنى أسألك بأسمائك وكلمتك التامة، أن تصلّى على نبيك محمد وآله، وأسألك من خير ما تعطى وما تُسأل، ومن خير ماتُخفى وخير ماتُبدى. أللّهم إنى أعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر مايجرى به النهار، إنّ ربى الله الذى لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم. وإنْ كان مساءً قال ومن شر ماجاء به الليل. يقول ذلك ثلاثاً.

وروينا عن عمر بن عبد العزيز عن محمد بن عبيد الله قال: أتي أبو الدرداء فقيل له احترقتْ

دارك، فقال ما كان الله عز وجل ليفعل، ثم أتاه آتٍ فقال يا أبا الدرداء إنّ النار حيث دنت من دارك طُفئت، فقال قد علمت، فقيل له ماندرى أى قوليك أعجب، قال إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من قال هؤلاء الكلمات فى ليل أو نهار لم يضره شئ، وقد قلتهن، وهى: اللهّم أنت ربى لا إله إلا أنت، عليك توكلتُ وأنت رب العرش العظيّم، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، ماشاء الله عز وجل ربى كان، وما لم يشأ لم يكن، أعلَم أن الله على كل شئ قدير، وأن الله قد أحاط بكل شئ علما. اللّهم إنى أعوذ بك من شر نفسى، ومن كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربى على صراط مستقيم.

وقد روينا عن أبى الدرداء أنه قال: من قال فى كل يوم سبع مرات فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم، كفاه الله عز وجل مايهمه من أمر آخرته، صادقا كان أو كاذبا. وروينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: ماأصاب أحداً هَمٌّ ولا حزَنَ فقال اللهّم إنى عبدُك، ابنُ عبدك، بن أمَتك، ناصيتى بيدك، ماض فىّ حكمُك، عدلٌ فىّ قضاؤك، أسألك اللهّم بكل اسم هو لك سميتَ به نفسك أو أنزلته فى كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تصلى على نبيك وحبيبك محمدٍ وآله، وأن تجعل القرآنَ ربيعَ قلبى ونور صدري وجلاء حزنى وذهابَ همى وغمى، إلاّ أذهبَ اللهُ عز وجل هَمّه وحزَنه وأبدله مكانه فرحا، قال قيل يا رسول الله ألاّ نتعلمها، فقال صلى الله عليه وسلم: بلى ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها.

وروينا فى الأخبار أن إبراهيم الخليل كان يقول إذا أصبح: اللّهم هذا خَلْقٌ جديد فافتحه علىّ بطاعتك، واختمه لى بمغفرتك ورضوانك، وارزقنى فيه حَسَنة تقبلها منى، وزكّها وضعّفها لى، وماعملت فيه من سيئة فاغفرها لى، إنك غفور رحيم، ودود كريم. قال ومن دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه، وكذلك إذا أمسى.

وروينا عن رسول الله صلي الله عليه وسلم: من قال إذا أصبح وإذا أمسى ثلاث مرات: رضيت بالله عز وجل ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا، كان حقا على الله يرضيه يوم القيامة.

روينا عن معمر عن جعفر بن برقان أن عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم كان يقول: إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره، ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبح الأمر بيدك لا بيد

غيرك، وأصبحتُ مرتهنا بعملي فلا فقير أفقر مني. اللّهم لا تُشمِّت بي عدوي ولا تسئ بي صديقي، ولا تجعل مصيبتي في ديني، ولا تجعل الدنيا أكبر همّي، ولا مبلغ عملي، ولا غاية أملي، ولاتسلّط عليّ من لايرحمني.

وروينا عن عطاء ابن عباس قال يلتقي الخضر والياس في كل موسم، فيفترقان عن هذه الكلمات: بسم الله ماشاء الله، لا قوّة إلا بالله ماشاء الله، كلُّ نعمة من الله ماشاء الله، الخير كله بيد الله عز وجل ماشاء الله، لا يصرف السوء إلا الله ماشاء الله، لا حول ولا قوّة إلا بالله. فمن قالها إذا أصبح ثلاث مرات أَمِن الحرْقَ والغَرَق والسَّرَق.

ويقال إن هذا من استغفار الخضر عليه السلام: اللّهم إني أستغفرك من كل ذنب تبتُ إليك منه ثم عدت فيه، اللّهم إني أستغفرك من كل عَقْد عقدته لك ثم لم أوف لك به. اللّهم إني أستغفرك من كل نعمة أنعمت بها عليّ فقويتُ بها على معصيتك، اللّهم إني أستغفرك من كل عمل عملته لوجهك خالطه ما ليس لك.

وحكى سعيد بن أبي الروحاء الجّمال – كان من أهل الخير – أنه تواجد ذات ليلة في أرض قفرة فاستوحش وفزع فظهر له شخص، قال فاشتد جزعي منه حتى سمعته يقرأ القرآن، ثم قال ألاّ أدلّك على شئ إذا أنت قلته أنِسْتَ إذا استوحشتَ، واهتديت إذا ضللت، ونمت إذا أرقت، قلتُ علّمني رحمك الله، قال بسم الله ذي الشأن، عَظيم البرهان، شديد السلطان، كل يوم هو في شأن، لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.

وحدثونا عن يعقوب بن عبد الرحمن الدعّاء، قال سمعتُ محمد بن حسان يقول، قال لي معروف الكرخي رحمه الله: ألا أعلمك عشر كلمات، خمساً للدنيا، وخمساً للآخرة، من دعا الله عز وجل بهن وجد الله سبحانه وتعالى عندهن، قلت اكتبها، قال لا، ولكن أُرَدِدُها عليك كما رددها عليّ بكر بن حبيش: حسبي الله تبارك وتعالى لديني، حسبي الله عز وجل لدنياي، حسبي الله الكريم لما أهمّني، حسبي الله الحكيم القوي لمن بَغَى عليّ، حسبي الله الشديد لمن كادني بسوء، حسبي الله الرحيم عند الموت، حسبي الله الرؤف عند المسألة في القبر، حسبي الله الكريم عند الحساب، حسبي الله اللطيف عند الميزان، حسبي الله القدير عند الصراط، حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم. ... وادعُ بهؤلاء الكلمات: اللّهم يا هادي المضلّين، وراحم المذنبين، ومقيل عثرات العاثرين، ارحمْ عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم

أجمعين، واجعلنا من الأحياء المرزقين، الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدّيقين، والشهداء والصالحين، آمين يارب العالمين. يقال إن عُتبة الغلام رؤى فى المنام فقال دخلتُ الجنة بهذه الدعوات. وليقل بعد ذلك هذا الدعاء: اللّهم عالَم الخفيات، رفيع الدرجات، ذا العرش تُلقى الروح من أمرك على من تشاءُ من عبادك، غافرَ الذنب وقابلَ التوب، شديدَ العقاب ذا الطول، لا إله إلا أنت إليك المصير.

ورؤى إبراهيم الصائغ فى النوم فقيل له بأى شئ نجوت، فقال بهذه الدعوات. وليقل هذا الدعاء، يا مَنْ لا يشغله سمع عن سمع، ولا تشتبه عليه الأصوات، يامن لاتغلطه المسائل، ولاتختلف عليه اللغات، يامن لايتبرم بإلحاح الملحّين، أذقنى بَرْدَ عفوك وحلاوة رحمتك. ويقال إن الخضر عليه السلام علّم علىّ بن أبى طالب عليه السلام هذا الدعاء. وليسبح تسبيحات أبى المعتمر، وهو سليمان التيمى، فقد روى من فضلها أن يونس بن عبيد رأى رجلا كان قد قُتل شهيدا ببلاد الروم، فقال له ما أفضل مارأيت ثَمّ مِنْ الأعمال، قال رأيت تسبيحات أبى المعتمر من الله سبحانه وتعالى بمكان. وقال المعتمر بن سليمان رأيت عبد الملك بن خالد بعد موته فقلت ماصنعت، قال خيرا، قلت ترجو للخاطئ شيئاً، قال يلتمس تسبيحات أبى المعتمر فإنها نِعم الشئ وهذه هى التسبيحات: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، عَدَدَ ما خلق الله، وعدد ما هو خالق، وَزِنَةَ ما خلَق، وزنة ماهو خالق، ومِلْء ما خَلَقَ وملء ماهو خالق، وملء سمواته وملء أرضه، ومثلَ ذلك وأضعافَ ذلك، وعددَ خَلْقِهِ وَزِنَةَ عرشه، ومنتهى رحمته، ومداد كلماته، ومبلغَ علمه ورضاه وحتى يرضى وإذا رضى، وعدد ماذكره به خلقُه فى جميع ما مَضَى، وعدد ما هُمْ ذاكروه فيما بقى فى كل سنة وشهر، وجمعة ويوم وليلة، وساعة من الساعات، ونسمة وَشَمٍ وَنَفس، ولمحةٍ وطَرفة، ومن الأبد إلى الأبد، أبد الدنيا وأبد الآخرة وأكثر من ذلك، لا ينقطع أوَّلُه ولا ينفد آخِرُه. وليدعُ بهذا الدعاء فإنه دعاء التوبة مرجوّ فيه الإجَابة.

وروينا عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت: لما أراد الله عز وجل يتوب على آدم طاف سبعاً بالبيت وهو يومئذ ليس بمبنىّ ربوة حمراء، ثم قام فصلى ركعتين، ال: اللّهم إنك تعلم سرّى وعلانيتى فاقبل معذرتى، وتعلَم حاجتى فاعطنى سؤلى، وتعلم نفسى فاغفر لى ذنوبى. اللّهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى، ويقينا صادقا حتى أعلم لايصيبنى إلا مَا كتبتَ لى، والرضا بما قسمت لى ياذا الجلال والإكرام.. فأوحى الله عز

وجل إليه أني قد غفرتُ لك، ولن يأتيني أحد من ذريتك فيدعوني بمثل الذى دعوتني به إلا غفرت له، وكشفت غمومه وهمومه، ونزعت الفقر من بين عينيه، واتّجرتُ له من وراء كل تاجر، وجاءته الدنيا وهى راغمة وإن كان لايريدها. وليقل هذه الكلمات المنثورة فإنها مما روي في اسم الله سبحانه وتعالى الأعظم بأخبارٍ فى ذلك مأثورة:

أللّهم إنى أسألك بأن الحمد لك لا إله إلا أنت، الحنّان المنّان بديُع السموات والأرض، ذو الجلال والإكرام، أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. ياحيّ ياقيوم، ياحيّ حين لا حيّ فى ديمومية مُلكه وبقائه. ياحيّ محيي الموتى، ياحيّ مميت الأحياء ووارث أهل الأرض والسماء. أللّهم إنى أسألك باسمك، بسم الله الرحمن الرحيم، وباسمك الذى لا إله إلا هو الحى القيوم، لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم. أللّهم إنى أسألك باسمك الأعظم الأجّل الأعزّ الأكرم، الذى إذا دُعيتَ به أجبتَ، وإذا سُئلتَ به أعطيتَ، يانور النور، يامدبر الأمور، ياعالم مافى الصدور، ياسميع ياقريب يامجيب الدعاء، يالطيف لما يشاء، يارؤف يارحيم، ياكبير ياعظيم، ياالله يارحمن ياذا الجلال والإكرام. ألم، الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم، وعَنَتْ الوجوه للحيّ القيوم، يا إلهى وإله كل شئ، إلهاً واحداً لا إله إلاّأنت. اللّهم إنى أسألك باسمك الله، الله، الله، الله الذى لا إله إلا هو رب العرش العظيم، فتعالى الله الملك الحقُ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم. أنت الأول والآخر، والظاهر والباطن، وسِعْتَ كلَ شئ رحمةً وعلما. كهيعص، حم عسق، الرحمن الرحيم، ياواحد ياقهار، ياعزيز ياجبار، يا أحد، ياصمد، ياودود ياغفور، هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم، لا إله إلا أنت سبحانك، إنى كنت من الظالمين. أللّهم إى أعوذ باسمك المكنون المخزون، المُنَزّل السلام الطُهر الطاهر، القُدس المقدس، يادهر ياديهور ياديهار، يا أبدياً ياأزل يامَنْ لم يزل ولا يزول، هو ياهو، لا إله إلا هو، يامن لا هو إلا هو، يامَنْ لا يعلم ماهو إلاّهو، يا كان ياكينان، ياروح ياكائن قبل كل كون، يا كائن بعد كل كون، يامكنون لكل كون أهْيًا شراهيا، أدُناى أصباؤت، يامُجلى عظائم الأمور، فإن تولوا فقل حسبى الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم، ليس كمثله شئ وهو السميع البَصير. أللّهم صلّ علّى محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد... وليقل هذه الأدعية المأثورة: اللّهم إنى أسألك الثبات فى الأمر، والعزيمة على الرشد وأسألك شكر نعمتك وحُسن عبادتك، وأسألك اللّهم يارب قلباً سليما، ولسانا صادقا، وعملا متقبلا، وأسألك مِنْ خير ماتعلم،

وأعوذ بك من شر ماتعلم، وأستغفرك لما تعلم، فإنك تعلم ولا أعلم، وأنت علاّم الغيوب. اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واغفر لى ما قدّمت، وما أخّرت، وما أعلنتُ وما أسررت، فإنك أنت المقدّم وأنت المؤخّر، وأنت على كل شئ قدير، وعلى كل غيب شهيد. اللّهم إنى أسألك إيمانا لا يرتد، ونعيما لا ينفد، وقرة عين الأبد، ومرافقة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم فى أعلى جنة الخلد. اللّهم إنى أسألك الطيبات، وفعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين. أسألك اللّهم يارب، الصلاة على محمد وعلى آله أجمعين، وأسألك حبك وحب من يحبك، وحب عملٍ يقرّب إلى حبك، وأن تتوب علىّ وتغفر لى وترحمنى، وإذا أردت بقوم فتنةً فاقبضنى إليك غيرَ مفتونٍ يا أرحم الراحمين. اللّهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلْق أحْينى ما كانت الحياة خير إلىّ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى. أسألك اللّهم يارب خشيتك فى الغيب والشهادة، وكلمة العدل فى الرضا والغضب، والقصد فى الغنى والفقر، ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك، وأعوذ بك من ضرّاء مُضرّة وفتنة مُضلّة. اللّهم يارب زيّنا بزينة الإيمان، واجعلنا هُداةً مهتدين. اللّهم صلّ على محمد وعلى آلِ محمد، واقْسِمْ لنا من خشيتك مايحول بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ماتُدخلنا به جنتك، ومن اليقين ماتهوّن به علينا مصائب الدنيا. اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وارزقنا حزن خوف الوعيد، وسرور رجاء الموعود، حتى نجد لذة مانطلبُ وغمّ مامنه نهرب. اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، سيد الأولين والآخرين، وصلّ على محمد وعلى آله أجمعين، وألبسْ وجوهنا منك الحياء، واملأ قلوبنا بك فرحا، وأسكنْ فى نفوسنا من عظمتك، وذلل جوارحنا لخدمتك، واجعلك أحب إلينا مما سواك، واجعلنا أخشى لك مما سواك. اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وأعنّى على ذكرك وشكرك وحُسن عبادتك. اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وأسألك تمام النعمة بتمام التوبة، ودوام العافية بدوام العصمة، وأداء الشكر بحسن العبادة. اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وأعوذ بك من فتنة الغنى وفتنة الفقر، وأعوذ بك من ضيق الصدر وشتات الأمر وعذاب القبر، وأعوذ بك من غنى مُطغى، ومن فقرٍ منسى، ومن هوى مردى، وقرين مُغْوى. اللّهم إنى أسألك الصلاة على محمد وعلى آله، وأسألك الهدى والتُقى والعفاف والغنى. اللهّم صلّ على محمد نبيك وصفيك، ولا تقدمنى لعذاب ولا خرنى لسيئ الفِتَن. أعوذ بك يا الله من الفتن ماظهر منها وما بطن، وأعوذ بك من المحَن خفى منها وماعلن اللّـهم إنى أسألك الصلاة على نبيك محمد، وعلى آله، وأسألك خير هذا ،ليوم وخير مافيه، وأعوذ بك من شرّه وشرّ مافيه. وأعوذ بك اللّهم يارب من شر طوارق الليل

والنهار، ومن بغتات الأمور وفجاة الأقدار، ومن شر كل طارق يطرق إلاّ طارقاً يطرق منك بخير، يارحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما. أللّهم صلّ على محمد وعلى آله، واجعل يومنا هذا أوّله صلاحا وأوسطه فلاحا وآخره نجاحا. أللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واجعل أوّله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكرمة. أللّهم صلّ على محمد نبيك وعلى آله، وأعوذ بك أنْ أزلّ، أو أزل أو أضل، أو أضل أو أظلم، أو أظلم أو أجهل أو يُجهل عليّ، عز جارك وجلّ وتبارك أسماؤك، ولا إله غيرك. أللّهم صلّ على محمد وعلى آله، وأعوذ بك من عذاب جهنم وعذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيخ الدجّال، وإذا أردت بقوم سوءاً أو فتنة فاقبضني إليك، غير مبدّل ولا مفتون. أللّهم صلّ على محمد وعلى آله. أللّهم أحيني ماكانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي، وأسالك خير الحياة وبركة الحياة، وأعوذ بك من شر الوفاة، وأسالك خير مابينهما وخير ما بعد ذلك، أحيني حياة السعداء، وحياة من تحب بقاءه، وتوفني وفاة الشهداء، وفاة من تحب لقاءه، ياخير الرازقين، ويا أحسن التوّابين، ويا أحكم الحاكمين، ويا أرحم الراحمين، ويارب العالمين. أعوذ بك من شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها، ومن شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها. الحمد لله الذي تواضع كل شئ لعظمته، وذلّ كل شئ لعزته، وخضع كل شئ لملكه، واستسلم كلُ شئ لقدرته. الحمد لله الذي سكّنَ كلُ شئ لهيبته، والحمد لله الذي أظهر كل شئ بحكمته، وتصاغر كل شئ لكبريائه. أللّهم صلّ على نبيك محمد وعلى آل محمد، وأزواجه وذريته في العالمين، إنك حميد مجيد كريم. أللّهم صلّ على محمد، عبدك ونبيك ورسولك، النبي الأميّ، الرسول الأمين، واعطه المقام المحمود يوم الدين. أللّهم إني أعوذ بك من حدة الحرص، وشدة الطمع، وسورة الغضب، وسِنة الغفلة، وتعاطي الذلة، وأعوذ بك من مباهاة المكثرين والإزراء على المقلّين، وأن أنصر ظالما أو أخذل مظلوما، وأن أقول في العلم بغير العلم وأعمل في الدين بغير يقين. أللّهم إني أعوذ بك أن أُشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم. أللّهم إني أعوذ بك من اتّباع خطوات الشيطان وشركه في المال والأهل، وقبول أمره في السوء والفحشاء. أللّهم إني أسالك الصلاة على نبيك محمد وعلى آله، وأسالك حُسن الاختيار وصحة الاعتبار وصدق الافتقار. أللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وافتح بخير واختم بخير وأنت الفتاح العليم. أللّهم صلّ على نبيك محمد وعلى آل محمد، وارحم ماخلقت، واغفر ماقدّرت، وطيّب مارزقت، تمّم ما أنعمت، وتقبّل ما استعملت، واحفظ ما استحفظت، ولا تهتك ماسترت فإنه لا إله لنا إلا أنت. أستغفرك من كل لذة بغير ذكرك، ومن كل راحة بغير خدمتك، ومن كل

سرور بغير قُربك، ومن كل فرح بغير مجالستك، ومن كل شُغل بغير معاملتك. اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واجعلنا من أوليائك المتقين، وحزبك المفلحين، وعبادك الصالحين. اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واستعملنا بمرضاتك عنا، ووفقنا لمحابك منا، وصرّفنا بحسن اختيارك لنا. اللّهم صلّ على محمد وعلى آله، ونسألك جوامع الخير وفواتحه وخواتمه، ونعوذ بك من جوامع الشر وفواتحه وخواتمه. اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واحفظنا فيما أمرتنا، واحفظنا عمّا نهيتنا، واحفظ لنا ما أعطيتنا، ياحافظ الحافظين، ويا ذاكر الذاكرين، ويا شاكر الشاكرين، بحفظك حفظوا، وبذكرك ذكروا، وبفضلك شكروا، ياغوث يامغيث، يامستغاث ياغياث المستغيثين، لاتكلني إلى نفسي يارب طرفة عين فأهلك، ولا تكلني إلى الخلق فأضيع، إكلأني كلاءة الوليد ولاتخلّ عني، وتولّني بما تتولى به عبادك الصالحين. اللّهم صلّ على نبيك محمد وعلى آله، وبقدرتك عليّ تبْ عليّ إنك أنت التواب الرحيم، وبحلمك عني أعف عني إنك أنت الغفّار، وبعلمك بي أرفق بي إنك أنت الرحمن الرحيم، وبملكك لي ملكّني نفسي ولا تسلطها عليّ إنك أنت الملك الجبار، سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت، عملت سوءاً و ظلمت نفسي، فاغفر لي ذنبي إنك أنت ربي، لا إله إلا أنت، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وألهمني رشدي وقني شر نفسي. اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وارزقني حلالاً لاتعاقبني عليه، وقنّعني بما رزقتني، واستعملني به صالحاً تقبله مني. اللّهم إني أسألك أن تصلّي على نبيك محمد وعلى آل محمد، وأسألك العفو والعافية، وحُسن اليقين والمعافاة في الدنيا والآخرة. اللّهم صلّ على نبيك محمد وعلى آل محمد، وأعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، ولا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، أبوء بنعمتك إليك، وأبوء بذنوبي إليك، هذه يداي بما كسبت، أنا عبدك ابن عبدك، ناصيتي بيدك، جارٍ فيّ حكمك، نافذٌ فيّ قضاؤك، عدلٌ فيّ مشيئتك، إنْ تعذب فأهل ذلك أنا، وإنْ ترحم فأهل ذلك أنت، فافعل. اللّهم يامولاي، يا الله يارب، إفعلْ بي ما أنت له أهل، ولا تفعل اللّهم يارب، ياالله ما أنا له أهل، فإنك أهل التقوى وأهل المغفرة، يامَنْ لا تضره الذنوب، ولا تنقصه المغفرة، هب لي اللّهم يارب ما لا يضرك، وأعطني ما لا ينقصك. أفرغ اللّهم علينا يارب صبرا، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، أنت وليّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، إنّا هدنا إليك. ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا، وإليك المصير. ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا، واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم . ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا

فى أمرنا ، وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . ربنا آتنا من لَدُنك رحمة، وهيىء لنا من أمرنا رَشَدا . ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . أللّهم إنى أسألك أنْ تصلى على نبيك محمد وعلى آل محمد ، وأسألك الصيانة والعوْن على الطاعة ، والعصمة من المعصية ، وإفراغ الصبر فى الخدمة ، وإيزاع الشكر على النعمة. وأسألك يا مولاى، ياالله يارب، الصلاة على نبيك محمد وعلى آل محمد وحسن الخاتمة . أللّهم إنى أسألك أن تصلى على نبيك محمد وعلى آل محمد ، وأسألك اليقين وحُسن المعرفة بك ، وأسألك المحبة وحسن التوكل عليك ، وأسألك الرضا المنقلب إليك . ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أنْ آمنوا بربكم فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا، وكفّر عنا سيآتنا، وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسُلك ، ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد . ربنا لا تؤاخذنا إنْ نسينا أو أخطأنا . ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا (إلى آخرها) . أللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، وطهّر قلوبنا فى قلوب الأبرار ، وزكّ أعمالنا فى عمل الأخيار ، وصلّ على أرواحنا فى أرواح الشهداء ، يا أكرم الأكرمين ، ويا أجود الأجودين ، ويا أرحم الراحمين . ربنا آتنا فى الدنيا حسنةً وعلماً ، وزهداً وعبادة ، وأمناً ورزقاً من حلال ، وفى الآخرة حَسَنة رضوانك والجنة ، وقنا برحمتك عذاب النار وعذاب القبر ، وقنا سُخطك وغضبك وعذابك وأهواله ، عاجلاً وآجلاً فى الدين والدنيا والآخرة ، برحمتك يا أرحم الراحمين .... وأنْ تمجدْ الله تعالى غدوةً وعشية بما مجّد به نفسه عز وجل ، فقد روى من ثواب ذلك ما هو غاية الطالبين . وروينا عن علىّ عليه السلام، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: إن الله تبارك وتعالى يمجّد نفسه فى كل يوم ، يقول سبحانه وتعالى إنى أنا الله رب العالمين ، إنى أنا الله لا إله إلا أنا الحى القيوم ، إنى أنا الله لا إله إلا أنا العلىّ العظيم ، إنى أنا الله لا إله إلا أنا العفو الغفور، إنى أنا الله لا إله إلا أنا مبدىء كل شىء وإلىّ يعود، إنى أنا الله لا إله إلا أنا لم ألد ولم أولد ، إنى أنا الله لا إله إلا أنا العزيز الحكيم، إنى أنا الله لا إله إلا أنا مالك يوم الدين، إنى أنا الله لا إله إلا أنا الرحمن الرحيم، إنى أنا الله لا إله إلا أنا خالق الخير والشر، إنى أنا الله لا إله إلا أنا خالق الجنة والنار، إنى أنا الله الذى لا إله إلا أنا الواحد الأحد الفرد الصمد، الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، إنى أنا الله لا إله إلا أنا الفرد الوتر، إنى أنا الله لا إله إلا أنا عالم الغيب والشهادة، إنى أنا الله لا إله إلا أنا الملك القدوس، إنى أنا الله لا إله إلا أنا السلام المؤمن المهيمن، إنى أنا الله لا إله إلا أنا العزيز الجبار المتكبر، إنى أنا الله لا إله إلا أنا الخالق البارىء، إنى أنا الله لا

إله إلا أنا الأحد المصوّر، إنى أنا اللّه لا إله إلا أنا الكبير المتعال، إنى أنا اللّه لا إله إلا أنا المقتدر القهّار، إنى أنا اللّه لا إله إلا أنا الحكيم الكبير، إنى أنا اللّه لا إله إلا أنا القادر الرزاق، إنى أنا اللّه لا إله إلا أنا أهل الثناء والمجد، إنى أنا اللّه لا إله إلا أنا أعلم السر وأخفَى، إنى أنا اللّه لا إله إلا أنا فوق الخلق والخليقة، إنى أنا اللّه لا إله إلا أنا الجبّار المتكبر.... فيختم ويقول:فسبحان اللّه رب العرش العظيم.... فمن دعا بهذه الكلمات فليقل أنت اللّه كذا، وأنت اللّه كذا. ومن دعا بهذه الأسماء كُتِبَ من الشاكرين الساجدين المُخْبِتين، الذين يجاورون محمداً صلى اللّه عليه وسلم، وإبراهيم وموسى وعيسى والنبيين صلوات اللّه عليهم أجمعين، فى دار الجلال، وله ثواب العابدين فى السموات والأرضين. وليقل اللّهم صلّ على محمد وآل محمد صلاة تكون لك رضاءً ولحقّه أداءً، واعطه الوسيلة والفضيلة، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته، وأجِزْه عنّا ما هو أهله، وأجِزْه أفضلَ ما جزيت نبياً عن أُمته، واعطه الشرف والشفاعة يوم الدين. اللّهم صلّ على محمد نبى الرحمة وسيد الأمة، وعلى جميع إخوانه النبيين، وصلّ على أبينا آدم وأُمنا حواء، ومَنْ ولَدا بينهما من الصالحين والمسلمين. وصلّ على ملائكتك أجمعين من أهل السموات والأرضين، وصلّ علينا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين، واغفر لى ولوالدىّ وما توالدا، وارحمهما كما ربيانى صغيرا، واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات. رب اغفر وارحم، وتجاوز عما تعلم، وأنت الأعز الأكرم، وأنت خير الراحمين وخير الغافرين، وإنا للّه وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلىّ العظيم، وحسبُنا اللّه ونعم الوكيل، وحسبُنا اللّه وحده لا شريك له.... فهذا جامع ما جاء من فضائل ما يقال من الدعاء عن المصطفى صلّى اللّه عليه وسلم، وعن الصحابة وعن أئمة الهدى. وحذفنا ذكر فضائل ذلك وما جاء فيه من الروايات إيجازا. يقول هذا الدعاء بعد صلاة الغداة وقبل غروب الشمس فى كل يوم، فإنْ قاله بعد صلاة مكتوبة فقد استكمل الفضل بفضل اللّه عز وجل ورحمته.

الفصل السادس

فى ذكر عمل المريد بعد صلاة الغداة

وهو أنه يأخذ فى تلاوة القرآن، وفى أنواع الذِكْر من التسبيح والحمد والثناء، وفى التفكر فى عظمة اللّه سبحانه وتعالى وآلائه، وفى تواتر إحسانه ونعمائه، من حيث يحتسب العبد ومن حيث لا يحتسب، وفيما يعلم العبد وفيما لا يعلم. ويتفكر فى تقصيره عن الشكر فى ظواهر

النعم وبواطنها، وعجزه عن القيام بما أمره به من حُسن الطاعة ودوام الشكر على النعمة، أو يتفكر فيما عليه من الأوامر والنوادب فيما يستقبل، أو يتفكر في كثيف ستر الله تبارك وتعالى عليه، ولطيف صنْعه به، وخَفيّ لطفه له، وفيما اقترف وفرّط فيه من الزلل، وفي فوت الأوقات الخالية من صالح العمل، أو يتفكر في حكم الله تعالى في المُلك وقدرته في الملكوت، وآياته وآلائه فيهما، أو يتفكر في عقوبات الله عز وجل وبلائه، الظاهرة والباطنة فيهما، ومن ذلك قوله عز وجل وذكّرهم بأيام الله، قيل بنعمه، وقيل بعقوباته. ومنه قوله عز وجل فاذْكروا آلاء الله لعلكم تفلحون، ومثله فبأي آلاء ربكما تكذبان، أي بأي نعمة تكذبان يا معشر الجن والإنس إن استطعتم، وهما الثقلان. ففي أي نوع من هذه المعاني أخذ فيه فهو ذِكْر، والذكر عبادة، وهو يخرج إلى الفكر، والفكر يدخل في الخوف والرجاء، والذكر إذا قوى صار مشاهدة كما قال عز وجل يذْكُرون الله قياما، ثم قال ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ثم قال سبحانك فقنا عذاب النار، ولا يكون مشاهدة إلا عن يقين، واليقين روح الإيمان ومَزيده وفن المؤمن، وقال بعض العلماء في تفسير الخير : تَفَكُّر ساعة خَيْرٌ من عبادة سنة. وهو التفكر الذي ينقل أياً من المكاره إلى المحاب، ومن الرغبة والحرص إلى القناعة والزهد، وقيل هو التفكر الذي يظهر مشاهدةً وتقوى، ويُحدث ذكراً وهدى، كقوله تعالى واذكروا ما فيه لعلكم تتقون، ولقوله تعالى لعلهم يتقون أو يُحدث لهم ذكرا . ومثله يبّين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة، أي يفعلون لما يَبْقَى، ويَرغبون فيما يدوم، ويزهدون فيما يفنى. وقد جعل الله عز وجل البيان، يعلّمنا اقتضاء الشكر عليه، فقال يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون، وكما قال تعالى واذكروا ما فيه لعلكم تتقون، وقد وصف أعداءه بعد ذلك فقال الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذِكْرِي. وقالت أم الدرداء: كانت أكثر عبادة أبي الدرداء التفكر، وقد كان يقول ما يسرني أن أربح في كل يوم ثلثمائة دينار أنفقها في سبيل الله عز وجل، قيلَ ولِمَ ذلك، قال يشغلني ذلك عن التفكر.... أو يعتقد حسن النيات وينوي جميل الطويات فيما بينه وبين الخالق تعالى، وفيما بينه وبين الخلق، أو يستغفر الله تعالى ويجدد التوبة لما مضى من عمره، ولِمَا يأْتنف من مستقبله، أو يخلص الدعاء بتمسكن وتضرع وتملق وتَخَشُّع ووجلٍ وإخبات إلى أن يعصمه من جميع المَنْهِي، وأنْ يوفقه لصالح الأعمال، ويتفضل عليه برغائب الأفضال، وهو في ذلك فارغ القلب، مجرد الهَمّ، موقن بالإجابة، راضٍ بالقسم، أو يتكلم بمعروف وخير ويدعو به إلى الله تعالى، وينفع به أخاه، ويعلّم من هو دونه في العلم. فهذه كانت أذكار المتقدمين وأفكار السالفين، وقد كان الذكر والفكر من أفضل عبادة العابدين، وهو طريق

مختصر إلى رب العالمين، ففى أى هذه المعانى أخذ فهو ذاكر لله عز وجل فلا يزال كذلك، وهو فى جميع ذلك مستقبل القبلة فى مصلاه، ولا يستحب له أن يتكلم أو يعمل غير ما ذكرناه من الأذكار. وقد كانوا يكرهون الكلام بغير معروف وتقوى، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، ومنهم من شدّد فى ذمّ الكلام من الفجر إلى صلاة الغداة بغير ذكر وبرّ. وهذه سنّة قد خلَت فمن عمل بها فقد ذكرها.

الفصل السابع

فى ذكر أوراد النهار وهى سبعة أوراد

وهذا هو **الورد الأول من النهار**، وفى النهار **سبعة أوراد**، أولها من طلوع الفجر الثانى إلى طلوع الشمس، وهو كما ذكرناه من الأذكار، وهو الذى أقسم اللّه عز وجل به فقال والصبح إذا تنفس، فتنفُّسه إلى طلوع الشمس، وهو الظل الذى أمدّه اللّه تعالى لعباده، ثم قبضه إليه ببسطه الشمس عليه، وأظهر من آياته، وجعل الشمس كشفاً له ودليلاً عليه، فقال سبحانه ألَمْ تر إلى ربك كيف مدّ الظل، يعنى بَسَط، ولو شاء لجعله ساكنا، يعنى مُقيماً على حاله لا يتحوّل، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا، يقول كشفناه بها ففيه أن الدليل هو الذى يكشف المشكل ويرفع المشتبه، ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيرا، يعنى أن الظل من تحت الشمس قُبِضَ قبضا يسيراً أى خفيا، لا يُفْطن له ولا يُرى، فاندرج الظل فى الشمس بقدرته اندراج الظلمة فى النور إذا دخل عليها بحكمته، وهو الإصباح والفَلَق الذى يُمدح اللّه عز وجل بخلقه، وأمرنا بالتنزيه له عنده والاستعاذة من شر ما خلق فيه، فقال عز وجل فالق الإصباح، وقال فسبحان اللّه حين تمسون وحين تصبحون، أى فسبّحوه بالصلاة عندهما، وقال قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق، يعنى فلق الصبح. فإذا أمِنَ العبد الفتنة والكلام فيما لا يعنيه والاستماع إلى شبهة من القول، وأمن النظر إلى ما يكره أو يشغله عن الذكر أو يذكّره الدنيا، أمِن من دخول الآفة عليه من التزين والتصنّع للناس، ورُزِقَ الشغل بمولاه والإخلاص له بالإعراض عمن سواه، فقال ما ذكرناه من الذكر فى مصلاه فى مسجد الجماعة فهو أفضل، فلذلك أمر اللّه برفع المساجد، فى قوله عز وجل، فى بيوت أذنَ اللّه أن ترفع ويُذْكَر فيها اسمه. وإن لم يأمن الفتنة وخشى دخول الآفة عليه من لقاء مَنْ يكره، ومَنْ يلْجئه إلى تُقية ومداراة، أو خاف الكلام فيما لا يعنيه، أو الاستماع إلى ما لا يُنْدَب إليه، انصرف إذا صلّى الغداة إلى منزله، أو إلى موضع خلوة بعد أن يقول: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت وهو حى لا يموت، بيده

الخير وهو على كل شيء قدير... عشر مرات في مصلاه وهو ثانٍ رجلَه قبل أن يقوم، ويقرأ بعدها قل هو الله أحد عشراً قبل أن يتكلم، فقد اشتُرِطَ تركُ الكلام في هذين الحديثين اللذين وردا فيهما، ثم أتى ببقية ورده في بيته أو في خلوته وهو في ذلك مستقبل القبلة، وهذا حينئذ أفضل له وأجمع لقلبه، ولا يقدم على التسبيح لله عز وجل والذكر له بعد صلاة الغداة وقبل طلوع الشمس إلا أحد معنيين، معاونة على برّ وتقوى، فُرض عليه أو نُدب إليه، ما يختص به لنفسه أو يعود نفعه على غيره، ويكون ذلك أيضا مما يخاف فوته بفوت وقته. والمعنى الآخر يكون إلى تعلم علم أو استماعه ممن يقرّبه إلى الله تعالى في دينه وآخرته، ويزهّده في الدنيا والهوىَ، من العلماء بالله عز وجل الموثوق بعلمهم، وهم علماء الآخرة أولو اليقين والهدى، الزاهدون في فضول الدنيا. ويكون في طريقه ذاكراً الله عز وجل أو متفكراً في أفكار العقلاء عن الله عز وجل، فإن اتفق له هذان فالغدوّ إليهما أفضل من جلوسه في مصلاه، لأنهما ذكرُلله عز وجل، وعملٌ له وطريقٌ إليه على وصفٍ مخصوصٍ مندوب إليه. قال الله عز وجل: ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه. وقال النبي صلىّ الله عليه وسلم: من غدا في بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع. وقال ابن مسعود: أُغْدُ عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك. والغدوّ والغداة تكون قبل طلوع الشمس. وفي الخبر مَنْ خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله عز وجل حتى يرجع، ومن خرج من منزله يلتمس عِلْما وَضَعَت له الملائكة أجنحتها رضاً بما صنع، واستغفر له دواب الأرض وملائكة السماء وطير الهواء وحيتان الماء. وفي حديث أبي ذر الغفاري رحمه الله : حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة، وأفضل من شهود ألف جنازة، ومن عيادة ألف مريض. قيل ومِنْ قراءة القرآن ؟ فقال وهل تنفع قراءة القرآن إلا بعلم ؟- فإنْ لم يتفق له أحد هذين المعنيين فقعوده في مصلاّه، أو في مسجد جماعته، أو في بيته، أو في خلوته، ذاكراً الله عز وجل بأنواع الأذكار، أو متفكراً فيما فُتِحَ له بمشاهدة هذه الأفكار في مثل هذه الساعة، أفضل له مما سواها. وروينا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم: لأنَ أقعد في مسجد أذكر الله عز وجل فيه، من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس، أَحَبّ إليّ من أن أعتق أربع رقاب. وروينا أن النبي صلىّ الله عليه وسلم كان إذا صلى الغداة قعد في مصلاّه حتى تطلع الشمس، وفي بعضها ويصلي ركعتين.- وقد ندب إلى ذلك في غير حديث. وجاء من فضل الجلوس بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس، وفي صلاة ركعتين بعد ذلك، ما يجلّ وصفه اختصرناه.

وروينا عن الحسن أن النبي صلّى الله عليه وسلم كان يذكر من رحمة ربه أنه قال: يا ابن

آدم اذكرني بعد صلاة الفجر ساعة، وبعد صلاة العصر ساعة، أكفك ما بينهما ... فإذا ارتفعت الشمس وابيّضّت صلّى الضحى ثمان ركعات، وهذا الوقت هو الذى ذكره الله عز وجل فى قوله يُسبِّحْن بالعشى والإشراق، ثم ينظر فإن علم مريضاً عاده، وإنْ حضرت جنازة شيّعها، وإن كانت معونة على برّ وتقوىً سعى فيها، وإن كانت حاجة لأخ من إخوانه قضاها، وإن كانت فرضا يلزمه القيام به سارع إليه، وإن لاح له فضل نُدبَ إليه انتهزه قبل فوته، فهذا أفضل شيء يعمله بعد الإذكار والإفكار بعد طلوع الشمس، فإذا فرغ من ذلك ولم يتفق له ما ذكرناه من القربات، أخذ فى الصلاة أو تلاوة القرآن أو صنوف الأذكار مما أُمِرَ أو نُدبَ إليه، أو المحاسبه لنفسه فيما سلف، أو المطالبة لها فيما يأتنف، أو المراقبة لربه في كل حال، إلى أن تنبسط الشمس وترمض الفصال ويرتفع النهار.– وهذا هو **الورد الثانى من النهار**، وهو الضحى الأعلى الذى أقسم الله تعالى به فقال والضحى، أى إذا أضحت الأقدام بحرّ الشمس. وإذا كان العبد على ذلك فقد اتّبع ما أنزل إليه ربه عز وجل، وقد سمع قوله عز وجل اتّبعوا ما أُنزِلَ إليكم من ربكم، لأنه قال إنما أُمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرّمها، ثم قال وأن أتلو القرآن، وكما قال تعالى اتلُ ما أوحى إليك من الكتاب، وأقم الصلاة إلى الصلاة، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولَذِكْر الله أكبر.– وصلاة الضحى فى هذا الوقت أفضل، وهو حقيقة وقتها لوجود اسمها، قال النبى صلّى الله عليه وسلم صلاة الضحى إذا رمضت الفصال. وخرج علَى أصحابه عليه السلام يوماً وهم يصلون عند الإشراق، فنادى بأعلى صوته : ألا إن صلاة الأوّابين إذا رمضت الفصال. وقوله الأوّابين يعنى التوّابين إلى الله عز وجل فى كل وقت.– ثم ليأخذ العبد بعد ذلك فيما نُدب إليه وأبيح له من التصرف فى معاش، إنْ كان من تجارةٍ بصدق، أو صناعةٍ بنصح إنْ أُحْوِجَ إلى ذلك، وليكتف إنْ كُفِى. وأدنى أحواله الصمت والنوم، ففيهما سلامةٌ من الآثام ومخالطة الأنام، فقد جاء فى العلم يأتى على الناس زمان يكون أفضل علْمهم الصمت، وأفضَل أعمالهم النوم. ومن الناس من يكون أحسن أحواله النوم. وليت العبد يكون فى اليقظة كالنوم إذ فى نومه سلامة، والسلامة متعذرة فى يقظته، وإنما الفضائل للأفاضل الذين زادوا على السلامة والعدل بالإحسان والفضل– هذا لدخول المُشْكلات فى الكلام ووجود الآفات فى الأحوال وخروج الإخلاص من الأعمال. وكان سفيان الثورى يقول كان يعجبهم إذا تفرغوا أن يناموا طلباً للسلامة، فمن الناس من يكون أحسن أحوالهم النوم، وليت العبد يكون يقظته كالنوم، إذ فى نومه السلامة، وأفضل أعماله فى هذا الوقت السلامة، وإنما الفضائل لأهل

الأفضال، الذين زادوا على السلامة والعدل بالإحسان والفضل. فإن نام فى هذا الوقت فهو حينئذ نوم القائلة. وما تسبب فيه من المعايش يصنعه فى هذا الوقت من الضحى الأعلى إلى زوال الشمس، وهذا هو **الورد الثالث من النهار.** ثم يتوضأ للصلاة قبل دخول وقتها، وكذلك يستحب، وهو من المحافظة عليها والإقامة لها. فإنْ حصلت كفايته فى يومه وقُوته فى وقت من النهار، ترك السوق ودخل بيته، أو قعد فى بيت مولاه تعالى واشتغل بخدمته متزودا لعاقبته، وقد كان الصالحون كذلك يفعلون - كان يقال لا يوجد المؤمن إلا فى ثلاث مواطن: مسجد يعمره، أو بيت يستره، أو حاجة لا بد له منها. فإذا زالت الشمس فإن أبواب السماء تُفتح للمصلين والذاكرين، ويستجاب الدعاء للمؤمنين، فهذا هو **الورد الرابع من النهار،** فليصل بعد الزوال أربع ركعات يقرأ فيهن بمقدار سورة البقرة أو سورتين من المائتين، أو أربع من المثانى، يُطيلهن ويُحسنّهن، ولا يفصل بينهن بتسليم. وهذه الصلاة وحدها بين صلاة النهار أربع ركعات بتسليمة واحدة. وهذا الورد هو الإظهار الذى ذكر اللّه عز وجل الحمد فيه، فقال وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون. وليتق العبد الصلاة عند استواء الشمس فى كبد السماء، وهو قبل زوالها عند تقلص الظل، ويقام ظل كل شىء تحته، فإذا زال الظل فقد زالت، وقد خفى استواؤها لقصر النهار ولعدول الشمس فى سيرها عن وسط الفلك، فتقطع عرضا فيكون أقرب لغروبها، فليقدّر ذلك تقريبا. ومقدار استوائها قبل الزوال نحو أربع ركعات بجزء من القرآن أو قدر جزء وهو آخر **الورد الثالث،** وإنما فيه ورد القراءة والتسبيح والتفكر، وهو أحد الأوقات الخمسة التى نهى النبى صلى اللّه عليه وسلم عن الصلاة فيهن، والأربعة الأخر عند طلوع الشمس وحتى ترتفع قيد رُمحْين فى عين الناظر، وعند تدليها للغروب حتى تحتجب، وبعد صلاة الصبح، وبعد صلاة العصر. وأحب له الإحياء ما بين الأذان والإقامة بالركوع، لأنها ساعة مستجاب فيها الدعاء، وتُفتح فيها أبواب السماء، وتزكو فيها الأعمال. وأفضل أوقات النهار أوقات الفرائض. فإن لم يقرأ بين الأذانين من درسه فأستحب له أن يقرأ فى تنفله الآى التى فيها الدعاء مثل آخر سورة البقرة وآخر سورة آل عمران، ومن تضاعيف السور الاثنين والثلاث، مثل قوله تعالى أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا، أو مثل قوله ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وقوله ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير. وإن قرأ الآى التى فيها التعظيم والتسبيح والأسماء الحسنى فحَسَن، مثل أول سورة الحديد وآخر سورة الحشر، ومثل آية الكرسى وقل هو اللّه أحد، ليكون بذلك جامعاً بين التلاوة والدعاء، وبين الصلاة والتعظيم

والمدح بالأسماء. ثم ليصلّ الظهر فى جماعة ولا يدع أن يصلى قبلها أربعاً وبعدها أربعاً بعد ركعتين. وهذا **آخر الورد الرابع من النهار** وهو أقصر الأوراد وأفضلها، فإن كان قَدْ رَقَدَ قبل الزوال فلا يرقد فى هذا الورد، فإنه يُكره له نومتان فى يوم، كما يكره له نوم النهار من غير سهر بالليل. ورويّنا عن بعض العلماء : ثلاث يمقت اللّه عليها : الضحك من غير عجب، والأكل من غير جوع، ونوم النهار من غير سهر بالليل.- وإنْ لم يكن قد رَقَدَ فأحبّ أن ينام بين الظهر والعصر ليتقوى بذلك على قيام الليل، فلينم فإن نومه بعد الظهر للّيلة المستقبلة، ونومه قبل الظهر للّيلة الماضية. فإن دام سهره بالليل واتصلت أوراده بالنهار حَسُنَ أن ينام قبل الظهر لما سلف من ليله، وينام بعد الظهر لما غَبَّر من الأخرى، إلا أنه **لا يُستحب له أن يزيد فى اليوم والليلة أكثر من نوم ثمان ساعات**.. ومن الناس من يقول إنه إنْ نقص من نوم هذا المقدار فى اليوم والليلة اضطرب بدنه لأن النوم قوت الجسم وراحته. قال اللّه تعالى وجعلنا نومكم سباتا، أى راحة، كما قال وجعلنا النهار معاشا- إلا أن يكون السهر عادة، فإن العادة قد تعمل عمل الطبع وتنقل عن العرف فلا يقاس عليها. وإحياء ما بين الظهر والعصر وهو صلاة الغفلة، وهو يشبّه بقيام الليل. ويستحب العكوف فى المسجد بين الأولى والعصر، للصلاة والذكر، ليجمع بين الاعتكاف والانتظار للصلاة فقد كان ذلك من سُنّة السلف. قال كان الداخل يدخل المسجد بين الظهر والعصر فيسمع للمصلين دوياً كدوى النحل من التلاوة، إلا أن يكون بيته أسلم لدينه وأجمع لقلبه، فالأسلم هو الأفضل. وكذلك إحياء الورد الثالث الذى هو بين الضحى الأعلى إلى زوال الشمس فوق هذا الفضل، يدرك به العبد فوت قيام الليل، لأن الناس فى هذين الوقتين مشغولون بطلب الدنيا وخدمة الهوى، والقلب المتيقظ لربه عز وجل يفرغ فى هذين الوقتين ويسكن، ويجد العامل للعمل حلاوة وللإقبال والتفرغ لذة، ويكون لفراغه من الخلق وشغله بالخالق تعالى مزيد بركة، وهذا أحد الوجهين فى قوله تعالى وهو الذى جعل الليل والنهار خِلْفة لمن أراد ان يذكّر أو أراد شكورا، أى جعلهما خلفتين يتعاقبان فى الفضل فيخلف أحدهما لآخر، فمن فاته شيء من الليل قضاه فى هذين الوردين من النهار، أحدهما من الضحى الأعلى إلى الزوال، والثانى ما بين الأولى والعصر. والوجه الثانى أن النهار كله خلفة من الليل، فمن فاته شيء من عمل الليل قضاه بالنهار فكان منه بدلاً، ومن فاته شيء من أوراد النهار كان الليل خلفاً إذ كل واحد منهما خلف من صاحبه، ففيه درك ما فات وخلف ما سلف من الذكر والشكر. والذكر اسم جامع لأعمال القلوب كلها من مقامات اليقين ومشاهدة العلوم من الغيب.

والشكر أيضا يستعمل على جمل أعمال الجوارح من شرائع الإسلام، وهذان جملة عمل العبد وكنه خدمته، وهذان المعنيان اللذان ذكَرَهما الكليم للجليل فى قوله تعالى: كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيرا – فانتظم التسبيح والذكر فى جمل تصرف الجسم وتصرف القلب. وهذا هو **الورد الخامس** الذى هو ما بين العصرين من أطول الأوراد وأمتعها للعبادة، وهو يضاهى الورد الثالث فى الطول، وهو أصيل النهار، وأحد الآصال التى ذكر الله عز وجل فيه سجود كل شىء، وقَرَنَه بالغدوّ فقال : ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها ، وظلالهم بالغدوّ والآصال – فما أقبح أن تكون الأشياء الموات لربها ساجدات ذاكرات والمؤمن الحى عن ربه معرض ذو غفلات ! ثم ليصل قبل صلاة العصر أربعا ، ويغتنم الصلاة بين الأذان والإقامة كما ذكرنا آنفا، فإنها ساعة مرجوّة فيها الإجابة، فإذا دخل وقت العصر دخل العبد فى **الورد السادس من النهار**، وقد أقسم الله عز وجل به فى قوله والعصر، وهذا أحد المعنيين فى الآية، وهو أحد الوجهين من الوقت فى الآصال الذى ذكره الله عز وجل، وهو العشى الذى ذكر الله عز وجل التسبيح فيه والتنزيه والحمد له، فقال وعشياً وحين تظهرون، وقال بالعشى والإشراق.– وليس فى هذا الورد صلاة إلا ما كان بين الأذانين، ثم ينتقل بعد العصر فيما شاء من ذكر أو فكر من أعمال القلوب والجوارح، فيما فُرض عليه أو نُدب إليه، وأفضل ذلك تلاوة القرآن بتدبر وترتيل وتفهم وحسن تأويل، فإذا اصفرّت الشمس ومات حرّها ، وارتفعت إلى أطراف الجُدُر ورؤس الشجر فكانت مثلها حين تطلع، دخل فى **الورد السابع من النهار**، فهذا للتسبيح والذكر والتلاوة والاستغفار إلى غروب الشمس. ومن أفضل ما قيل فى هذا الوقت وفى مثله من أول النهار أن يقال أستغفر الله لذنبى وسبحان الله بحمد ربى – لجمعه بين الاستغفار والتسبيح فى الكلام بلفظ الأمر بهما فى القرآن، لقوله تعالى وأستغفر لذنبك وسبّح بحمد ربك بالعشى والإبكار. وإن قال: أستغفر الله الحىّ القيوم وأسأله التوبة، سبحان الله العظيم وبحمده، فقد جاء فضل ذلك فى الأثر. والأفضل الاستغفار على الأسماء كما فى القرآن، مثل أن يقول أستغفر الله إنه كان غفّارا ، أستغفر الله إنه كان توّابا ، أستغفر الله إن الله غفور رحيم. أستغفر الله التواب الرحيم، ربّ اغفر وارحم وأنت خير الراحمين، فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين. وهذا الورد فى الفضل مثل الورد الأول من طلوع الشمس، وهو المساء الذى ذكر الله تعالى التنزيه فيه فقال فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، أى سبّحوا الله عز وجل، فأقام الاسم مقام الفعل. وهو الطرف الثانى من النهار الذى أمر الله عز

وجل فيه بالتسبيح، بقوله عز وجل فسبّح وأطراف النهار لعلك ترضى.

ويُستحب أن يقرأ قبل غروب الشمس : والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى، والمعوّذتين، وأن تغرب الشمس عليه وهو فى الاستغفار فذلك مما أُمر به فى هذا الوقت من الأذكار. وكما يُستحب من التسبيح والحمد والدعاء والذكر فى أول النهار قبل طلوع الشمس، فإنه يُستحب فى هذا الورد قبل غروب الشمس، لأن الله تعالى قرَنَهما فى الذكر فقال تعالى فسبّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، وقال تعالى: وأطراف النهار لعلك ترضى. وقال تعالى: بالعشى والإبكار. وقال تعالى: قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب، أى من شر الليل إذا دخل، فليُعِدْ العبد ما ذكرناه فى الورد الأول من الأدعية والتسبيح، وليقل عند أذان المغرب: أللّهم هذا إقبال ليلك، وإدبار نهارك، وأصوات دعاتك، وحضور صلاتك، وشهود ملائكتك، صلّ على محمد وعلى آله، واعطه الوسيلة والفضيلة، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته. ثم ليقل رضيتُ بالله رباً، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلّى الله عليه وسلم نبيا، ثلاثاً. ففى هذا أثر وفضل، وكذلك فليقل مثله إذا سمع أذان الفجر، إلا أنه يقول «عند إدبار ليلك وإقبال نهارك»، والنص بهذا فى صلاة المغرب. وكان الحسن البصرى يقول كانوا أشد تعظيما للعشى منهم لأول النهار. وقال بعض السلف كانوا يجعلون أول النهار للدنيا وآخره للآخرة. فإذا توارت بالحجاب انقضت أوراد النهار السبعة. فانظر أيها المسكين ماذا انقضى لك معها، وماذا انقضى منك عندها، وماذا قضى عليك فيها، فقد قطعت من عمرك مرحلة ونقصت من أيامك يوما، فماذا قطعت فى سفرك بقطع مرحلتك، وماذا أزددت فى غدك بما نقصت من نومك ؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم الناس غاديان، فغادٍ لنفسه فمعتقها، أو راهنٌ نفسه فموبقها. وقد قال الله عز وجل فى تصديق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم إن سعيكم لشتى، وقال فى معناه كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين. وجاء فى الخبر لا بورك لى فى يوم لا أزداد فيه خيرا. وجاء فى الأثر مَن استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو محروم.

دخلت أوراد الليل الخمس. فتدارك الآن، رحمك الله تعالى، فيما يستقبل من الليل ما فات مضى من النهار، فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله جل يبغض كل جعظرى جوّاظ، أى سمين كثير الاكل، سخّاب بالأسواق، جيفةٍ بالليل، حمّارٍ لنهار، عالمٍ بأمر الدنيا، جاهلٍ بأمر الآخرة.

الفصل الثامن
فى ذكر أوراد الليل الخمسة

وفى الليل خمسة أوراد، **أولها** أن يصلى بعد المغرب ست ركعات، ويستحب ذلك قبل أن يكلم أحدا. يقرأ فى الأوليين قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد، وليسرع بهما بعد صلاة المغرب من قبل أن يتكلم ويشتغل بشىء. وفى الخبر أسرعوا بركعتين بعد المغرب فإنهما يُرفعان معها. فإن كان منزله قريبا من مسجده فلا بأس أن يركعهما فى بيته، ولُيطل الأربعة الأخر. وكان أحمد ابن حنبل رحمه الله يستحب أن يصليهما الرجل فى بيته، وكذلك كان يفعل ويقول هو سُنّة، لأنه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يصليهما فى بيته، ولكن بيت رسول الله صلى الله عليه كان فى مؤخر المسجد وقد صلاّهما فى المسجد. ثم ليصل بين العشاءين ما تيسر إلى أن يغيب الشفق الثانى، وهو البياض الذى يكون بعد ذهاب الحمرة، وبعد غسق الليل وظلمته، لأنه آخر ما بقى من شعاع الشمس فى القطر الغربى إذا قطعت الأرض العليا ودارت من وراء جبل قاف، مصعدةً تطلب المشرق، فهذا هو الوقت المستحب لصلاة العشاء الآخرة، وهذا آخر الورد الأول من أوراد الليل، والصلاة فيه ناشئة الليل أى ساعاته، لأنه أول نشوء ساعاته، وهو آن من الآناء التى ذكرها الله عز وجل فى قوله ومِنْ آناء الليل فسبح، فالآناء جمع آن أى وقت منه، فَصَلّ. وقيل ناشئة الليل قيام الليل، تقول نشا إذا قام، وقد أقسم الله تعالى به فقال فلا أقسم بالشفق، والشفق ما بين العشائين، وهى صلاة الأوّابين، ويقال أيضا صلاة الغفلة. قال يونس بن عبيد عن الحسن فى قوله عز وجل تتجافى جنوبهم عن المضاجع، قال الصلاة بين العشاءين، حتى قال أنس بن مالك رضى الله عنه وقد سئل عمن نام بين المغرب والعشاء فقال : لا تفعل فإنها هى الساعة التى وصف الله عز وجل المؤمنين بالقيام فيها، فقال عز وجل تتجافى جنوبهم عن المضاجع، يعنى الصلاة بين المغرب والعشاء. وقد أسند ابن أبى الدنيا إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن هذه الآية تتجافى جنوبهم عن المضاجع، قال الصلاة فيما بين العشائين فإنها تُذهب بملاغاة أول النهار وتُهذّب آخره، قوله الملاغاة جمع ملغاة من اللغو، أى تسقط اللغو، أى تطرح المطرّح عن العبد من الباطل واللهو وتهذب له آخره، أى تُصفّيه وتجوّده.

ويستحب العكوف فى المسجد بين العشاءين للصلاة وتلاوة القرآن، فقد روى فضل ذلك إلا

أن يكون بيته أسلم له لدخول آفة عليه، فما سلم فيه فضل به. ثم ليُصل قبل العشاء الآخرة أربعاً وبعدها ركعتين ثم أربعاً، ويقال إن الأربع بعد صلاة العشاء فى بيته يعدلن مثلهن من ليلة القدر، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصليهن في بيته أول ما يدخل قبل أن يجلس، وكان ابن مسعود يكره أن يصلى بعد كل صلاة مثلها، وكانوا يستحبون أن يصلى بعد المكتوبة ركعتين ثم أربعا، وإنْ قرأ فى الأربع فى الأولى آية الكرسى والآيتين اللتين بعدهما، وفى الثانية آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والآية قبلها، وفى الثالثة أول الحديد إلى قوله عز وجل وهو عليم بذات الصدور، وفى الرابعة آخر الحشر من قوله تعالى هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، فقد أحسن وأصاب. فإنْ صلّى بعد الأربع ثلاث عشرة ركعة آخرهن الوتران أحَبّ، فإن هذا العدد أكثر ما روى النبى صلى الله عليه وسلم صلّى به من الليل، إلاّ فى خبر مقطوع وهو سبع عشرة ركعة، والمشهور أنه كان يصلى إحدى عشرة ركعة وثلاث عشرة ركعة، وربما حسبوا فيها ركعتى الفجر. واستحبُ له أن يقرأ فى ركوعه هذا ثلثمائة آية فصاعدا، فإذا فعل ذلك لم يكتب من الغافلين ودخل فى أحوال العابدين، فقدقيل إن الأكياس يأخذون أوقاتهم من أول الليل، والأقوياء يأخذون أورادهم من آخر الليل. فإنّ قرأ فى ركوعه هذا سورة الفرقان وسورة الشعراء ففيهما ثلثمائة آية، فإن لم يحسنهما قرأ خمساً من المفصل، فيهن ثلثمائة آية، سورة الواقعة وسورة نون وسورة الحاقة وسورة المدّثر وسورة سأل سائل، فإن لم يحسنهن قرأ من سورة الطارق إلى آخر القرآن، ثلثمائة آية. ولا يستحب للعبد أن ينام حتى يقرأ هذا المقدار من الآى فى هذا العدد من الركوع بعد صلاة العشاء الآخرة. فإن قرأ فى هذا الورد الثانى، أعنى بعد صلاة العشاء الآخرة وقبل أن ينام، ألف آية فقد استكمل الفضل وكتب له قنطار من الأجر وكُتِبَ من القانتين. وأفضل الآى أطولها لكثرة الحروف. وإنْ اقتصر على قصار الآى عند فتوره أدرك الفضل لحصول العدد، ومن سورة الملك إلى آخر القرآن ألف آية، فإنْ لم يحسن ذلك قرأ قل هو الله أحد مائتى وخمسين مرة فى ثلاث عشرة ركعة فإنّ فيها ألف آية، فهذا فضل عظيم. وفى الخبر من قرأها عشر مرات بَنَى الله عز وجل له قصراً فى الجنة. وروينا عن النبى صلّى الله عليه وسلم فى السوَر التى لم يكن يدعها فى كل ليلة ثلاثة أحاديث، أشهرها أنه لم يكن ينام حتى يقرأ سورة السجدة وتبارك الملك، والذى بعده أنه كان يقرأ فى كل ليلة بنى إسرائيل والزمر، والقريب منها أنه كان يقرأ المسبحات فى كل ليلة ويقول فيها إنه أفضل من ألف آية. قال وكان العلماء يجعلونها ستاً ويزيدون فيها سبّح اسم ربك الأعلى. وفى الخبر كان

رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب سبّح اسم ربك الأعلى، فهذا يدل على أنه كان يكثر قراءتها ولا يدع أن يقرأ هذه الأربع سور فى كل ليلة، سورة يس وسورة لقمان وسورة الدخان وتبارك الملك، فإن ضمّ إليها سورة الواقعة وسورة الصف والحاقة والزمر فقد أكثر وأحسن، فإن لم يكن من عبادته القيام من الليل قدّم الوتر بنية الخبر المروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: أوصانى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أنام إلا على وتر. وإن كان معتاد صلاة الليل فالأفضل تأخير الوتر إلى آخر صلاته من تهجده، أو إلى السحر على حديث ابن عمر رضى الله عنه صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خِفْتَ الصبح فأوتر بركعة. وفى حديث عائشة رضى الله عنها أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول الليل ومن أوسطه ومن آخره، وانتهى وتره إلى السحر. فإن نام على وتر ورزق القيام لم يوتر بعده، وكفاه وتره الأول على الخبر الذى جاء لا وتران فى ليلة. وقد قال بعض العلماء يصلى ركعة واحدة يشفع بها وتره من أول الليل، ثم يصلى صلاته من الليل ويوتر آخر صلاته. وقد روى فى هذا أثر عن عثمان وعلىّ رضى الله عنهما. وإن كان قد صلى ركعتين من جلوس بعد وتره الأول، ثم استيقظ للصلاة، شفعتا وتره الركعة الواحدة لأنهما بمنزلة ركعة واحدة، يشفع بها ركعة الوتر التى صلاّها قبلها. ثم ليصل من الليل مستأنفاً ما بدا له، ثم يوتره بركعة واحدة فى آخر صلاته فيكون له فى ذلك ثلاث أعمال، قصر الأمل، وتحصيل الوتر، والوتر من آخر الليل. وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى ركعتين جالساً بعد وتره والله تعالى أعلم، فليقرأ فيهما جالساً بسورة الزلزلة وسورة ألْهَاكم التكاثر، فقد جاء ذلك فى حديثين أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فيهما بذلك، لما فى الزلزلة والتكاثر من التخويف والوعظ، وفى رواية قل يا أيها الكافرون، لما فى سورة الكافرون من التنزيه من عبادةِ سوى المعبود، وإفراد العبادة لله سبحانه فيها بالتوحيد. وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقرأ بها عند النوم، وأوصى رجلا بقراءتها عند منامه. وتقديم الوتر مستحب لمن لم يكن عادته قيام الليل، ولمن كان الأغلب عليه النوم. وتأخير الوتر يكون لمن أخّر صلاته قبل طلوع الفجر أفضل. وليقل بعد التسليم من الوتر سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح، جَلّلتَ السموات والأرض بالعظمة والجبروت، وتعزّزتَ بالقدرة، وقهرت العباد بالموت. يقول هذا ثلاث مرات وهذا هو **الورد الثانى من الليل**، أعنى الصلاة بعد العشاء الآخرة إلى حد نومة الناس، فقد أقسم الله عز وجل فى قوله والليل وما وسق، أى وما جمع من ظلمته، وذكره الله عز وجل فى قوله إلى غسق الليل، فهناك يغسق الليل وتستوسق

ظلمته. ثم ينام إنْ أحب وهو على طهارة وعن ذِكْر، وقد كان الصالحون لا ينامون إلا عن غلبة، ويكرهون التعمد للنوم وهو التهيؤ للعادة، وقد كان منهم من يمهد لنفسه بالنوم ليتقوّى بذلك على صلاة أوسط الليل وآخره للفضل في ذلك، ومن غلبه النوم حتى شغله عن الصلاة والذكر فإن السنّة أن ينام حتى يعقل ما يقول وينشط في خدمته. وقد كان ابن عباس يكره النوم قاعدا. وفي الخبر لا تكابدوا الليل. وقيل لرسول الله صلّى الله عليه وسلم إن فلانه تصلى من الليل، فإذا غلبها النوم تعلّقت بحبل فنهى عن ذلك. وقال ليصل أحدكم من الليل ما تيسّر فإذا غلبه النوم فليرقد. وقال اكفلوا من العمل ماتطيقون فإن الله تعالى لا يمل حتى تملوا. وقيل له إن فلاناً يصلى الليل لا ينام، ويصوم الدهر لا يُفطر، فقال صلّى الله عليه وسلم خير هذا الدين أيسره، ثم قال لكني أنا أصلى وأنام وأصوم وأفطر فهذه سنتي، فمن رغب عن سنّتى فليس منى، وقال صلّى الله عليه وسلم لا تشادّوا هذا الدين فإنه متين، فمن يُشادّه يغلبه، ولا تبغّض إلى نفسك عبادة الله عز وجل.

والورد الثالث يكون بعد نومة الناس، وهو التهجد الذى ذكره الله فى قوله ومن الليل فتهجد به نافلةً لك. ولا يكون التهجد إلاّ بعد النوم. وتلك النومة هى الهجوع الذى قال الله عز وجل من القائمين آناء الليل، فقال تعالى كانوا قليلا من الليل، ما يهجعون، فالهجوع النوم، والتهجد القيام. وقد يقال الهجود أيضا وهذا يكون نصف الليل. فهذا أوسط الأوراد وهو يشبه الورد الأوسط من النهار فى أفضل أوراده. وهو أفضل الأوراد وأمتعها للعبادة. وقد أقسم الله عز وجل به فى قوله تعالى والليل إذا سجى، قيل إذا سكن. وسكونه هدوّه، وسِـنَة كل عين فيه وغفلتها إلا عين الله تبارك وتعالى فإنه الحى الذى لا تأخذه سِنَة ولا نوم. وقيل إذا سجى إذا امتد وطال، ويقال إذا أظلم. وسئل رسول الله صلى الله عيه وسلم أى الليل أسمَع، فقال جوف الليل الغابر.

وروينا فى أخبار دواد عليه السلام إلهى إنى أحب أن أتعبد لك فى أى وقت تقبل، فأوحى الله عز وجل إليه يا دواد لا تقم أول الليل ولا آخره، فإنه من نام أوله نام آخره، ومن قام آخره لم يقم أوله، ولكن قم وسط الليل حتى تخلو بى أخلو بك، وارفع إلىّ حوائجك.

والورد الرابع تكون بين الفجرين، أحدهما الفجر الأول وهو بدو سلطان شعاع الشمس إذا ظهرت من وراء الأرض الخامسة، وسطع ضوؤها وسط السماء حتى يقطعها بمقدار طلوع

الفجر الأول، ثم تغرب فى الفلك الأسفل المتحانف وتحجبها الأرض السادسة فيذهب الضوء ويعود سواد الليل. كما كان لغيبة الشمس وهو الثلث الأخير، وفيه وردت الأخبار باهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنّات عدن، ومن نزول الجبار إلى سماء الدنيا. وفيه الخبر الذى جاء أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل أى الليل أفضل، فقال نصف الليل الغابر، يعنى الباقى. وهذا هو الورد الرابع من نصف الليل إلى وقت السحر الأول. ثم يدخل **الورد الخامس**، وهو السحر الأخير، وفيه يُستحب السحور، فمن لم يتسحّر فى أوله بغَتَةَ الفجر، وهو قبل طلوع الفجر الثانى بمقدار قراءة جزء من القرآن، وفى هذا الورد الخامس الاستغفار وقراءة القرآن، وقد ذكره الله عز وجل فى قوله وقرآن الفجر، إنّ قرآن الفجر كان مشهودا، قيل تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار لتوسط هذا الورد بينهما، ومن ذلك ذهب أهل الحجاز إلى أن الصلاة الوسطى التى نصّ الله تعالى على المحافظة عليها هى صلاة الفجر، تعظيماً لهذا الوقت وتشريفاً له لتوسطه بين آخر الليل وأول النهار، فهذا الورد هو أقصر الأوراد ومن أفضلها، وهو من السحر الأول إلى طلوع الفجر الثانى إلاّ ما كان من صلاة نصف الليل فذلك هو أفضل شىء من الليل، وهو أوسط الأوراد لأنه هو الورد الثالث. ويصلح فى هذا الورد الخامس من السحر الأخير الصلاة لمن استيقظ من ساعته، أولمن تمّم به صلاته، فالصلاة فيه لها فضل وشرف وهو منزلة الصلاة فى أول الليل بين العشاءين، ولأن معنى قوله عز وجل عند بعض المفسرين «وبالأسحار هم يستغفرون » أى يصلّون، وكذلك قوله عز وجل وقرآن الفجر يعنى به الصلاة، فكنّى بذلك القرآن والاستغفار عن الصلاة لأنهما وصفان منها، كما قيل للصلاة تسبيح وسُبْحة لأن فيها التسبيح، وكذلك يقال للصلاة استغفار لأنه يطلب بها المغفرة. وتكون هذه الصلاة فى السحر بدلاً من السحور إلى طلوع الفجر الثانى، وقد أمر بها سلمان أخاه أبا الدرداء ليلة زاره، فى حديث طويل قال فى آخره: فلمّا كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان نم، فنام، ثم ذهب ليقوم فقال له نم فنام، فلمّا كان عند الصبح قال له سلمان قم الآن، فقاما فصليا، فقال إن لنفسك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقا، وإن لربك عليك حقا، وإن لضيفك عليك حقا، فاعط كل ذى حق حقه. وذلك أن امرأة أبى الدرداء أخبرت سلمان أنه لا ينام الليل، قال فأتيا النبى صلّىَ الله عليه وسلم فذكرا ذلك له، فقال صدَّق سلمان.

وهذا الورد الخامس يُشبه الورد السابع من النهار قبل الغروب فى فضل وقتيهما، وهذا قبل الفجر الثانى، والفجر الثانى هو انشقاق شفق الشمس وهو بدو بياضها الذى تحته

الحمرة، وهو الشفق الثانى على ضد غروبها، لأن شفقها الأول من العشاء، وهو الحمرة بعد الغروب، وبعد الحمرة البياض، وهو الشفق الثانى من أول الليل، وهو آخر سلطان الشمس. وبعد البياض سواد الليل وغسقه، ثم ينقلب ذلك إلى الضد فيكون بدو طلوعها الشفق الأول وهو البياض، وبعده الحمرة وهو شفقها الثانى، وهو أول سلطانها من آخر الليل، وبعده طلوع قرص الشمس. والفجر هو انفجار شعاع الشمس من الفلك الأسفل إذا ظهرت على وجه الأرض الدنيا، يستر عينها الجبال والبحار والأقاليم المسروقة العالية، ويظهر شعاعها منتشراً إلى وسط السماء عرضا مستطيرا، فهذا آخر الورد الخامس، وعنده يكون الوتر. فإذا طلع الفجر فقد انقضت أوراد الليل الخمسة ودخلت أوراد النهار، فانظر هل دخلت فى دخوله عليك فى جملة العابدين، أم خرج عنك وأنت فيه من الغافلين؟ وتفكّر أى لبسة ألْبَسَك فإن الليل جُعِلَ لباسا. هل ألبست فيه حلة النور بتيقظك فتربح تجارة لن تبور، أم ألبسك الليل ثوب ظلمته فتكون ممن مات قلبه بموت جسده بغفلتك؟ ثم يقوم العبد حينئذ فيصلى ركعتّى الفجر، وهما معنى قوله تعالى ومن الليل فسبّحه وأدبار النجوم، قيل ركعتى الفجر. ثم يقرأ نعوذ بالله من سخطه، وبعده شهدالله أنه لا إله إلا هو إلى آخرها، ويقول أنا أشهد بما شهد الله به لنفسه، وَشهِدَتْ به ملائكته وأولو العلم مِن خلْقه، واستودع الله العظيم هذه الشهادة، وهى لى عند الله وديعة حتى يؤديها، وأسأله حفظها حتى يتوفّانى الله عليها. ألّهم أحطط بها عنى وزرا، واجعلْ لى بها عندك ذخرا، واحفظنى بها واحفظها علىّ، وتوفّنى عليها حتى ألقاك بها غير مبدل تبديلا.

وأفضل ما عمل العبد فى ورد من أوراد الليل والنهار، بعد القيام بفرض يلزمه أو قضاء حاجة لأخيه المؤمن يعينه، الصلاة بتدبر الخطاب ومشاهدة المخاطب، فإن ذلك يجمع العبادة كلها. ثم بعد ذلك التلاوة بتيقظ عقل وفراغ هَمّ، ثم أى عمل فتح له فيه من فكر أو ذِكْر، برقة قلب وخشوع جوارح ومشاهدة غَيْب، فإن ذلك أفضل أعماله فى وقته.

الفصل التاسع

فيه ذكر وقت الفجر، وحكم ركعتيه الأداء والقضاء، وحكم الوتر ووقت القضاء له والأداء

وفى الشهر ليلتان يُعتبر بهما وقت الفجر، إحداهما يطلع القمر فيها عند طلوع الفجر الأول ى ليلة ست وعشرين، والأخرى يغيب القمر فيها عند طلوع الفجر وهى ليلة اثنتى عشرة من

الشهر. ومن طلوع الفجر إلى طلوع الشمس مقدار ثلثى سبع تلك الليلة، وهذا يكون فى الصيف، ويكون فى الشتاء أقل من ذلك، لأنه يكون نصف سدس تلك الليلة. **وهذا الورد الأول من النهار**. ووقت الأداء للوتر من بعد صلاة العشاء الآخرة إلى طلوع الفجر الثانى، فإذا طلع الفجر الثانى فقد ذهب الأداء وهو وقت القضاء للوتر، فليصلّ الوتر حينئذ مَنْ لم يكن أدّاه إلى قبل صلاة الصبح، فإذا صلى الصبح ذهب وقت قضاء الوتر أيضا. ووقت الأداء لركعتّى الفجر إذا طلع الفجر الثانى، فالمستحب له أن يصليهما فى منزله وقبل صلاة الغداة، والسُنّة أن يخففهما، فإذا صلّى الصبح ولم يكن صلاّهما فقد ذهب وقت الأداء وبقى له وقت القضاء، فليمهل حتى تطلع الشمس وتحل الصلاة، فليقدمها على سبحة الضحى، وهذا وقت القضاء لركعتّى الفجر إلى صلاة الظهر، فإذا صلى الظهر ولم يكن صلاّهما فقد ذهب وقت قضائهما أيضا.

ومن فاته ورد من الأوراد فاستحب له فعل مثله فى وقته أو قبله إذا ذكره لا على وجه القضاء، فإنه لايقضى إلا الفرائض، ولكن على وجه التدارك ورياضة النفس بذلك، ليأخذ بالعزائم كيلا يعتاد التراخى والترخّص، ولأجل الخبر المأثور: أحب الأعمال إلى الله عز وجل أدومها وإنْ قل. كيف وفى حديث عائشة رضى الله عنها الوعيد على ترك العادة فى العبادة. روت عن النبى صلّى الله عليه وسلم: من عَبَد الله تعالى عبادة ثم تركها ملالةً مقته الله تعالى. وقالت كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم إذا غلبه النوم، أو عاقه مرض فلم يقم تلك الليلة، صلّى من النهار اثنتى عشرة ركعة.

ومن دخل المسجد لصلاة الصبح ولم يكن صلّى ركعتى الفجر فى منزله صلاّهما واجزأتا عنه تحية المسجد. ومن كان قد صلاّهما فى بيته نَظَرَ فإن كان دخوله المسجد بغلس عند طلوع الفجر واشتباك النجوم صلّى ركعتين تحية المسجد، وإن كان دخوله عند انمحاق النجوم ومسفراً عند الإقامة قعد ولم يصل ركعتين، لئلا يكون جامعا بين صلاة الصبح وصلاة قبلها. ولا يصلى بعد طلوع الفجر الثانى شيئاً إلاّ ركعتى الفجر فقط. ومن دخل المسجد ولم يكن صلّى ركعتى الفجر، فإن كان قبل الإقامة صلاّهما. وإن دخل وقت الإقامة وقد افتتح الإمام الصلاة فلا يصليهما، وليدخل فى الصلاة المكتوبة فإنه أفضل، والنهى فيه. وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلاّ المكتوبة. وليقل من قعد فى المسجد من غير صلاة

ركعتين تحية المسجد: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. هذه الأربع كلمات يقولها أربع مرات فإنها عدل ركعتين في الفضل، وكذلك من دخله وكان على غير وضوء أو مرّ في المسجد عابر طريق، ومن دخل مسجداً فلا يقعد حتى يصلي ركعتين، وأكره له دخول المسجد والقعود فيه على غير وضوء.

الفصل العاشر

فيه كتاب معرفة الزوال وزيادة الظل ونقصانه بالأقدام واختلاف ذلك في الصيف والشتاء

قال الله جلّت قدرته: ألمْ تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا، وقال تعالى: وجعلنا الليل والنهار آيتين الآية... إلى قوله عدد السنين والحساب، وقال سبحانه: الشمس والقمر بحسبان.

وفي حديث أبي الدرداء وكعب الأحبار في صفة هذه الأمة: يراعون الظلال لإقامة الصلاة، وأحب عباد الله إلى الله عز وجل الذين يراعون الشمس والقمر والأظلّة لذكر الله عز وجل، وقال بعض العلماء بالحساب والأثر من أهل الحديث: إن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة، وإن الساعة ثلاثون شعيرة، يأخذ كل واحد منهما من صاحبه في كل يوم شعيرة حتى تستكمل الساعة في شهر، وبين أول الشهر وآخره ثلاثون درجة، الشمس كل يوم في درجة. قال وتفسير ذلك أنه إذا مضى من أيلول سبعة عشر يوماً استوى الليل والنهار، ثم يأخذ الليل من النهار من ذلك اليوم في كل يوم شعيرة، حتى يستكمل ثلاثين يوما، فيزيد ساعة حتى يصير سبعة عشر يوما من كانون الأول، فينتهي طول الليل وقصر النهار، وكانت تلك الليلة أطول ليلة في السنة وهي خمسة عشر ساعة، وكان ذلك اليوم أقصر يوم في السنة وهو تسع ساعات. ثم يأخذ النهار من الليل كل يوم شعيرة حتى إذا مضى سبع عشرة ليلة من آذار استوى الليل والنهار، ن كل واحد منهما اثنتي عشرة ساعة، ثم يأخذ النهار من الليل كل يوم شعيرة حتى إذا ى سبعة عشر يوما من حزيران كان نهاية طول النهار وقصر الليل، فيكون النهار يومئذ مسة عشر ساعة والليل تسع ساعات، ثم ينقص من النهار كل يوم شعيرة حتى إذا مضى سبع عشر ليلة من أيلول استوى الليل والنهار، ثم يعود الحساب على ذلك.

قال فمواقيت الصلاة من ذلك أن الشمس إذا وقفت فهو قبل الزوال، فإذا زالت بأقل القليل

فذلك أول وقت الظهر، فإذا زادت على سبعة أقدام بعد الزوال فذلك أول وقت العصر، وهو آخر وقت الظهر. قال والذى جاء فى الحديث أن الشمس إذا زالت بمقدار شراك فذلك وقت الظهر، إلى أن يصير ظل كل شئ مثله، فذلك آخر وقت الظهر وأول وقت العصر. وهكذا صلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فى أول يوم، ثم صلّى من الغد الظهر حين صار ظل كل شئ مثله، فذلك آخر وقت الظهر وأول وقت العصر، ثم صلّى العصر حين صار ظل كل شئ مثليه، وقال مابين هذين وقت. فإذا أردت أن تقيس الظل حتى تعرف ذلك فانصب عوداً أو قم قائما فى موضع من الأرض مستو، ثم اعرف موضع الظل ومنتهاه، فخطّ على موضع الظل خطاً، ثم انظر أينقص الظل أم يزيد، فإن كان الظل ينقص فإن الشمس لم تزل بعد مادام الظل ينقص، فإذا قام الظل فذلك نصف النهار ولايجوز فى هذا الوقت الصلاة، فإذا زاد الظل فذلك زوال الشمس إلى طول ذلك الشئ الذى قِسْتَ به طول الظل، وذلك آخر وقت الظهر، فإذا زاد الظل بعد ذلك قَدَما فقد دخل وقت العصر حتى يزيد الظل طول ذلك الشئ مرة أخرى فذلك وقت العصر الثانى، فإذا قمتَ قائما تريد أن تقيس الظل بطولك فإن طولك سبعة أقدام بقدَمك سوى قدَمك التى تقوم عليها، فإذا قام الظل فاستقبلْ الشمس بوجهك ثم مُرّ إنسانا يعلّم طرف ذلك بعلامة، ثم قِسْ من عَقبك إلى تلك العلامة، فإن كان بينهما أقل من سبعة أقدام سوى مازالت عليه الشمس من الظل فإنك فى وقت الظهر، ولم يدخل وقت العصر، حتى يزيد الظل على سبعة أقدام سوى مازالت الشمس عليه من الظل فذلك وقت العصر.

ثم إن الأقدام تختلف فى الشتاء والصيف فيزيد الظل وينقص فى الأيام، فمعرفة ذلك أن استواء الليل والنهار فى سبعة عشر يوما من آذار، فإن الشمس تزول يومئذ وظل الإنسان ثلاثة أقدام، وكذلك ظل كل شئ تنصبه، فإن الشمس تزول يومئذ وظل كل شئ ثلاثة أسباعه، ثم ينقص الظل، وكلما مضى ستة وثلاثون يوما نقص الظل قَدَما، حتى ينتهى طول النهار وقصر الليل فى سبعة عشر يوما من حزيران، فتزول الشمس يومئذ وظل الإنسان نصف قدم، وذلك أقل ما تزول عليه الشمس، ثم يزيد الظل فكلما مضت ستة وثلاثون يوما زاد الظل قدما، حتى يستوى الليل والنهار فى سبعة عشر يوما من أيلول، فتزول الشمس يومئذ والظل على ثلاثة أقدام، ثم يزيد الظل، وكلما مضى أربعة عشر يوما زاد الظل قدما، حتى ينتهى طول الليل وقصر النهار، وذلك فى سبعة عشر يوما من كانون الأول، فتزول الشمس يومئذ على تسعة أقدام ونصف قدم، وذلك أكثر ماتزول الشمس يومئذ عليه، ثم كلما مضى أربعة عشر يوما زاد

الظل قدما حتى ينتهى إلى سبعة عشر يوما من آذار فذلك استواء الليل والنهار، وتزول الشمس على ثلاثة أقدام وذلك دخول الصيف.

وزيادة الظل ونقصانه الذى ذكرناه في كل ستة وثلاثين يوما قدم فى الصيف والقيظ، وزيادته فى كل أربعة عشر يوما قدم فى الربيع والشتاء، وهذا ذكره بعض علماء المتأخرين من أهل العلم بالنجوم، وقد ذكر غيره من القدماء قريباً من هذا، وذكر زوال الشمس بالأقدام فى شهر تشرين، وخالف هذا فى حدين من نهاية الطول والقصر قدمين، فذكر أن أقل ماتزول عليه الشمس فى حزيران على قدمين، وإن أكثر ماتزول عليه الشمس فى كانون ثمانية أقدام، فكان الأول هو أدق تحديداً وأقوم تحريرا، وذكر أن الشمس تزول فى أيلول على خمسة أقدام، وفى تشرين الأول على ستة، وفى تشرين الأخير على سبعة، وفى كانون على ثمانية. قال وذلك منتهى قصر النهار وطول الليل، وهو أكثر ما تزول عليه الشمس. قال ثم ينقص الظل ويزيد النهار فتزول الشمس فى كانون الأخير على سبعة أقدام، وتزول فى شباط على ستة أقدام، وفى آذار على خمسة، وذلك استواء الليل والنهار، وتزول فى نيسان على أربعة أقدام، وتزول فى آيار على ثلاثة أقدام، وتزول فى حزيران على قدمين، فذلك منتهى طول النهار وقصر الليل، وهو أقل ماتزول الشمس عليه فيكون النهار حينئذ خمس عشر ساعة، والليل تسع ساعات. وتزول الشمس فى تموز على ثلاثة أقدام، وفى آب على أربعة أقدام، وفى أيلول على خمسة أقدام، وفيه يستوى الليل والنهار. وقد روينا عن سفيان الثورى رحمه الله أكثر ماتزول عليه الشمس تسعة أقدام، وأقل ما تزول عليه قدم، وهذا أقرب إلى القول الأول فى التحديد.

وقد جاء فى ذكر الأقدام لوقت الصلاة أثر من سُنّة، فلذلك ذكرنا منها ماشرحه مَنْ عرفه. وروينا عن أبى مالك سعد بن طارق الأشعرى عن الأسود بن زيد عن ابن مسعود قال : كان قدر صلاة الظهر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصيف ثلاثة أقدام إلى خمسة أقدام، وفى الشتاء خمسة أقدام إلى ستة أقدام.– وفصل الخطاب أن معرفة الزوال بهذا تحديد ليس بفرض، ولكن صلاة الظهر بعد تيقن زوال الشمس فرض متى زالت الشمس. [illegible]لغ علمك ويقين قلبك ومنظر عينك، فكانت الشمس على حاجبك الأيمن فى الصيف إذا استقبلت القبلة فقد زالت لاشك فيه، فصلّ إلى أن يكون ظل كل شئ مثله فهذا آخر وقت الظهر وأول وقت العصر، ثم صلّ العصر إلى أن يصير ظل كل شئ مثليه فهذا آخر وقت العصر

المستحب، ثم إلى أن تصفر الشمس وتتدلى للغروب فهذا وقت الضرورات، وهو مكروه إلاّ لمريض أو معذور. وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم من أدرك من العصر ركعة قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر، ومن أدرك من الصبح ركعة قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح - فإذا كانت الشمس على حاجبك الأيسر وأنت مستقبل القبلة فى الصيف فإن الشمس لم تزل مبلغ علمك ومنظر عينك، فإذا كانت بين عينيك فهو استواؤها فى كبد السماء بنظر عينك، ويصلح أن تكون قدزالت لقصر النهار فى أول الشتاء، وقد لاتكون زالت إذا طال النهار وتوسط الصيف. فإذا صارت إلى حاجبك الأيمن فقد زالت في أى وقت كان. ثم إن هذا يختلف فى الشتاء فإذا كانت على حاجبك الأيسر فى الشتاء وأنت مستقبل القبلة فيصلح أن تكون زالت لقصر النهار فى أول الشتاء، وقد لاتكون زالت إذا امتد النهار فى أول الصيف، فإذا كانت الشمس بين عينيك في الشتاء فقد زالت لاشك فيه فصلّ الظهر، فإذا صارت إلى حاجبك الأيمن فهذا آخر وقت الظهر فى الشتاء وهو أول وقت الظهر فى الصيف. وهذا التقدير إنما هو لأهل إقليم العراق وخراسان لأنهم يصلّون إلى الحجر الأسود وتلقاء الباب من وجهة الكعبة، فأما إقليم أهل الحجاز واليمن فإن تقديرهم على ضد ذلك وقبلتهم إلى الركن اليمانى وإلى مؤخر الكعبة، فلذلك اختلف التقدير وتضادّ الاختلاف للتوجه إلى شطر البيت. وتتفاوت الأمصار فى الأقاليم المستديرة حوله. فهذا كان تقدير المتقدمين وماسوى ذلك من التدقيق والتحرير فمُحْدَث، إلاّ أنه علم لأهله. ومَن أُشكل عليه الوقت لجهل بالأدلة أو لغيم اعترض فليتحرّ بقلبه ويجتهد بعلمه ولايصلى صلاة إلاّ بعد تيقن دخول وقتها، وإن تأخر ذلك فهذا أفضل حينئذ، ولكن قد جاء فى الخبر: ثلاثٌ من مناقب الإيمان: الصيام فى الصيف، وإسباغ الوضوء فى الشتاء، وتعجيل الصلاة فى يوم دَجْن. ومن أمثال العرب يوم الدّجْن يُضرب فيه عبد السوء، هذا لأن الوقت فى الغيم كأنه يقصر لغيبة الشمس، فيغفل الإنسان عن مراعاة الوقت أو يتشاغل عنه، لأن الفرائض لاتُقبل إلاّ عن يقين، فأداؤها بعد دخول الوقت على اليقين أفضل من أدائها فى الوقت على الشك. ألمْ تسمع إلى قوله صلّى الله عليه وسلم: فإن غمّ عليكم فأكملوا عدد شعبان ثلاثين. فترك الاحتياط لليقين. ومن صلى وهو يرى أنه الوقت، أو توجه إلى القبلة فيما يعلم ثم تبين له بعد أنه صلى قبل الوقت، أو صلى لغير القبلة، نظر فإن كان الوقت أو بعده قليلا أعاد الصلاة احتياطا، وإن كان الوقت قد خرج فلا شئ عليه وهو معفو الخطأ، والأحب أن يعيد تلك الصلاة متى ذكرها.

وقال بعض العلماء للشمس سبعة أزولة، ثلاثة منها لايعلم بها البشر، الزوال الأول نزوله عن قطب الفلك الأعلى لايشهده ولا يعلمه إلاّ الله عز وجل، والزوال الثانى عن وسط الفلك لايعلمه منْ خلق الله تعالى إلاّ حرّان الشمس، الموكلون بها الذين يرمونها بجبال الثلج ليسكن حرها، ويحتبسوا شعاعها عن العالمين ويسوقونها على العجلة المركبة فى الفلك. والزوال الثالث يعلمه ملائكة الأرض. ثم إن الزوال الرابع يكون على ثلاثة دقائق وهو ربع شعيرة، والشعيرة جزء من اثنى عشر جزء من ساعة. فهذا الزوال تعرفه الفلاسفة من المنجمين أهل العلم بمساحة الفلك، وتركيب الأفلاك فيه وتقدير سير الشمس فى الشتاء والصيف فى فلكها منه، فيقوّمون ذلك بالنظر فى المرتجلات الطالعة على التقويم، فإذا زالت الشمس الزوال الخامس نصف شعيرة وهى ست دقائق عرف زوالها أهل الحساب والتقاويم بالأسطرلاب الطالع، فإذا زالت شعيرة وهو الزوال السادس المشترك، وهو جزء من اثنى عشر جزء من ساعة، عرف زوالها علماء المؤذنين وأصحاب مراعاة الأوقات، فإذا زالت ثلاث شعيرات فهو الزوال السابع، وهو ربع ساعة، عرف الناس كلهم زوالها وعند هذا الوقت صلاة الكافة، وهو أوسط الوقت وأوسعه، وذلك واسع برخصة الله سبحانه وتعالى ورحمته، وهذا كله لبُعد مَنصب السماء ولاستواء تقويم صنعتها فى الأفق الأعلى، ولاتقان صنعتها فى الجو المتخرّق علوا، وفى الأقطار المتسعة المستديرة استواءاً ومتناسبا. وقد يروى فى الخبر أن النبى صلّى الله عليه وسلم سأل جبريل عليه السلام فقال هل زالت الشمس، فقال لا نعم، فقال كيف هذا، فقال بين قولى لك «لا نعم» قطعت فى الفلك خمسين ألف فرسخ. فكان النبى صلّى الله عليه وسلم سأله عن زوالها على علم الله سبحانه وتعالى به. وقد قال بعض الفلاسفة إن السماء تدور كما تدور الرحا، فتدير الأفلاك بدورانها على القطب، ولكن لايُرى ذلك منها لبُعدها وعلوها وتقويم استدارتها. وقد ذكره بعض العلماء من السلف فتبارك الله أحسن الخالقين.

وذكر بعض العارفين أعجب من هذا وألطف من قدرة الله عز وجل وخفىّ صنعه، ذكر أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة، وأن الساعة اثنتا عشرة دقيقة، وكل دقيقة اثنتا عشرة شعيرة، وكل شعيرة أربعة وعشرون نَفَسا. فتظهر الأنفاس من خزانة الجسم فتنشئ الشعائر، وتنشأ الشعائر فتظهر الدقائق فتنتج الساعات، وتتحرك الساعات فتدير الأفلاك فتنشر الليل والنهار فى الجو والأقطار، ويُنشَر الليل والنهار فتدير السماء فى الآفاق وينعقد الحسبان بالتفصيل، فإذا خَفِىَ الإحساس انقطعت الأنفاس فانفكت الأفلاك، فعندها تنتشر النجوم

وتنشق السماء وتخرب الديار وتظهر دار القرار، فسبحان الله ألطف الصانعين وأقهر القادرين، وقد قال سبحانه وتعالى إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت، وقال سبحانه وتعالى يوم تمور السماء موْراً، يعنى تدور دوراً فسبحان اللطيف الحكيم، أدار تلك الأفلاك الكثاف بهذه الأنفاس اللطاف، كما حجب الفلك الكثيف بستر الفضاء اللطيف، فالفلك العظيم لايحجب السماء، والفضاء الرقيق يحجب الفلك لأنه أراد سبحانه وتعالى أن يرينا السماء، وأحب أن يخفى عنا الفلك، فلم نر إلاّ ما أرانا، فالعبد هو سبب لذلك، ومحرك لذلك، ولا يشعر بذلك، فمداره أنفاسه، وأنفاسه ساعاته، وساعاته عمره، وعمره أجله، وأجله آخرته، وهو فى غفلة بدنياه وفى لعب بما يهواه، فإن نظرت إلى السماء رأيتها تنشئ الأنفاس، وإن نظرت إلى الأنفاس رأيتها تدير الأفلاك، وإن نظرت إلى فوق الفوق عميت عما سواه، فلا إله إلاّ هو رب العرش العظيم، صُنْعُ الله الذى أتقن كل شئ، إن ربى لطيف لما يشاء، سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم، وفى الأرض آيات للموقنين، وفى أنفسكم أفلا تبصرون، فلا أقسم بماتبصرون ومالا تبصرون، سيذكّر من يخشى ويتجنبها الأشقى.

فأما صلاة المغرب فأفضل ما صُـلّيت إذا تدلى حاجب الشمس الأعلى وهو غيبتها عن الأبصار. وروى عن عمر رضى الله عنه أنه أخّر صلاة المغرب ليلة حتى طلع نجم فاعتق رقبة. وروينا عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه أخّر المغرب حتى طلع كوكبان فاعتق رقبتين. وأفضل ما صلّيت فيه العشاء الآخرة إذا غاب البياض الغربى وأظْلَمَ مكانه وهو الشفق الثانى إلى مابعد ذلك. فتأخيرها أفضل إلى ربع الليل مالم تنم، والنوم قبلها مكروه شديد. ووقتٌ حَسَن فى السنّة أن تصلى بمقدار غيبة القمر ليلة ثلاث من الشهر، وهذا يكون بعد سبع ونصف من الليل، لأنّا روينا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى العشاء الآخرة لسقوط القمر ليلة ثلاث. وأفضل ما صُـلّيت فيه صلاة الصبح إذا طلع الفجر الثانى، وهى الصلاة الوسطى التى أفرد الله تبارك وتعالى محافظتها لأنها تختص بمعان ثلاث من التوسط لاتوجد فى سائر الصلوات، منها أنها بين الليل والنهار، والثانى أنها بين صلاتين من صلاة الليل وصلاتين من صلاة النهار، والثالث أنها متوسطة بين صلاتىّ جهر وصلاتىّ مخافتة. وأيضا فإنها أقصر الصلاة عدداً، لاثلاثاً ولا أربعاً، فلمّا اختصت بتوسط هذه المعانى دون غيرها كانت هى الوسطى.

وأيضا فإن الله تعالى نصّ على ذكر الفجر فى قوله عز وجل وقرآن الفجر، إنّ قرآن الفجر

كان مشهودا، وقيل فى تفسير ذلك تشهده ملائكة الليل والنهار، فكان هذا ذكراً لها بوصفٍ آخر، توكيداً للمحافظة عليها، فإن صحّ الخبر عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، بطل ماقلناه وثبت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه هو الحق وبه نقول، ولاأحسب الخبر إلا ثابتاً فقد جاء بأشد اليقين. وأُخْبِرْنا أن النبى صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عَنها فقال هى التى شُغِلَ عنها أخى سليمان حتى توارت بالحجاب. والسُنَّة أن تقرأ فى صلاة الصبح بسورة من المثانى أو بطوال المفصل لأنها قصرت وعوّض عنها طول القيام. فإن كان أجمع للمصلين وأكثر لعددهم إذا توسط الوقت فحَسَن قبل أن تُمحَق النجوم، فأما إنْ يسفر حتى ينتشر البياض تحت الحمرة وذلك هو شئ من شعاع الشمس فلا وإنْ كثروا، فصلاتُها بغلس فى القليل أفضل، والمحافظة على أوائل الأوقات من كل صلاة من أفضل الأعمال، إلاّ ماذكرناه من تأخير صلاة العشاء الآخرة للأثر فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – فضل الصلاة فى أول الوقت على الصلاة فى آخر الوقت كفضل الآخرة على الدنيا. وفى الخبر أن الصلاة فى آخر وقتها ولما فاته من الوقت الأول خير له من الدنيا وما فيها. والخبر المشهور أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل أى الأعمال أفضل، فقال الصلاة لوقتها. وقد جاء فى الأثر الوقت الأول رضوان الله عز وجل، والوقت الأخير عفو الله تبارك وتعالى، وقيل فرضوان الله عز وجل يكون للمحسنين، وعفو الله سبحانه وتعالى يكون عن المقصّرين. والوقت الأول من كل صلاة من عزيمة الدين، وطريقة المقيمين للصلاة المحافظين، والوقت الثانى رخصة فى الدين وسعة من الله عز وجل ورحمة للغافلين.

الفصل الحادى عشر

فيه كتاب فضل الصلاة فى الأيام والليالى. وذكر ماجاء فى صلاة النهار من الفضائل

روينا عن أبى سلمة وعن أبى هريرة قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا خرجتَ من منزلك فصلّ ركعتين يمنعانك مخرج السوء، وإذا دخلت إلى منزلك فصلّ ركعتين يمنعانك مدخل السوء. وعن سعيد بن أبى سعيد الطويل سمع أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى صلاة الصبح: مَنْ توضأ ثم توجه إلى مسجدٍ يصلى فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة، ومحى عنه سيئة، والحسنة بعشر أمثالها، فإذا صلّى ثم انصرف عند طلوع

الشمس كُتب له بكل شعرة فى جسده حسنة، وانقلب بحِجّة مبرورة، فإن جلس حتى يركع كتب الله له بكل جلسة ألف ألف حسنة. ومن صلّى العتمة فله مثل ذلك، وانقلب بحجة وعُمرة مبرورة. وعن عطاء بن يسار عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال مَنْ صلى أربع ركعات بعد زوال الشمس، يُحسن قراءتهن وركوعهن وسجودهن صلّى معه سبعون ألف ملك، ويستغفرون له حتى الليل. ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع أربعاً بعد الزوال، يطيلهن ويقول إن أبواب السماء تُفتح فى هذه الساعة، وأُحبُ أن يرفع لى فيها عمل. قيل يارسول الله فيهن سلام فاصل؟ قال لا. وروى عنه صلى الله عليه وسلم: رحم الله عبداً صلّى أربعا قبل العصر.

ذكر صلاة يوم الأحد

وروى عن سعيد بن جبير عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم مَنْ صلّى يوم الأحد أربع ركعات، يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وآمن الرسول مرةً، كتب الله عز وجل له بعدد كل نصرانى ونصرانية حسنات، وأعطاه ثواب نبى، وكتب له حِجة وعُمرة، وكتب له بكل ركعة ألف صلاة، وأعطاه الله عز وجل فى الجنة بكل حرف مدينة من مسك أذفر. وروينا عن على عليه السلام ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: وحدوا الله تبارك وتعالى بكثرة الصلاة فى يوم الأحد، فإنه سبحانه وتعالى واحد أحد لا شريك له. - فمن صلّى يوم الأحد بعد صلاة الظهر أربع ركعات بعد الفريضة والسنة، قرأ فى الركعة الأولى فاتحة الكتاب وتنزيل السجدة، وفى الثانية فاتحة الكتاب وتبارك الملك، ثم تشهّد وسلّم، ثم قام فصلّى ركعتين أخرتين قرأ فيهما فاتحة الكتاب وسورة الجمعة، وسأل الله تبارك وتعالى حاجته، كان حقاً على الله سبحانه وتعالى أن يقضى حاجته ويبرئه مما كانت النصارى عليه.

ذكر صلاة يوم الاثنين

وروينا عن أبى الزبير عن جابر قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: مَنْ صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة، وآية الكرسى مرة، وقل هو الله أحد مرة، والمعوذتين مرة، فإذا سلّم استغفر الله عز وجل عشر مرات، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم عشر مرات، غفر الله عز وجل له ذنوبه كلها. وعن ثابت البنانى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ صلّى يوم الاثنين اثنتى عشرة ركعة، يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسى مرة، فإذا فرغ من صلاته قرأ اثنتى عشرة مرة قل هو

الله أحد، واستغفر الله اثنتى عشرة مرة، يُنَادَى به يوم القيامة أين فلان بن فلانٍ، ليَقُمْ فيأخذ ثوابه من الله عز وجل، فأول مايعطى من الثواب ألف حلة، ويُتَوج ويقال له ادخل الجنة، فيستقبله مائة ألف ملك، مع كل ملك هدية يسعون به حتى يدور على ألف قصر من نور يتلألأ.

ذكر صلاة يوم الثلاثاء

وعن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: مَنْ صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند انتصاف النهار، يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسى مرة، وقل هو الله أحد ثلاث مرات، لم يكتب عليه خطيئة إلى سبعين يوما، فإن مات إلى سبعين يوما، مات شهيداً وغُفِرَ له ذنوب سبعين سنة.

ذكر صلاة يوم الأربعاء

وعن أبى إدريس الخوْلانى عن مُعاذ بن جبل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ صلى يوم الأربعاء اثنتى عشرة ركعة عند ارتفاع النهار، يقرأ فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ثلاث مرات، والمعوذتين ثلاث مرات، نادى به ملك عند العرش ياعبد الله، استأنف العمل فقد غُفر لك ماتقدم من ذنبك – ودفع الله عز وجل عنه عذاب القبر وضيقه وظلمته، ودفع عنه شدائد القيامة.

ذكر صلاة يوم الخميس

وروينا عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صلى يوم الخميس مابين الظهر والعصر ركعتين، يقرأ فى الركعة الأولى فاتحة الكتاب مرة ومائة مرة آية الكرسى، وفى الركعة الثانية فاتحة الكتاب مرة، ومائة مرة قل هو الله أحد، ويصلى على النبى مائة مرة، أعطاه الله عز وجل ثواب مَنْ صام رجب وشعبان ورمضان، وكان له من الثواب مثل حاج البيت، وكُتِبَ له بعدد كل من آمن بالله عز وجل وتوكل عليه.

ذكر صلاة يوم الجمعة

وروينا عن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه وعن أبيه وعن جده، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يوم الجمعة صلاة كله. وما من عبد مؤمن قام إذا

استقلت الشمس وارتفعت قيد رمح أو أكثر من ذلك، فتوضأ ثم أسبغ الوضوء، فصلّى تسبيحة الضحى ركعتين إيمانا واحتسابا، كتب الله له مائتى حسنة، ومحا عنه مائتى سيئة. ومَنْ صلى أربع ركعات رفع الله تبارك وتعالى له فى الجنة أربعمائة درجة، ومن صلى ثمان ركعات رفع الله له فى الجنة ثمانمائة درجة، وغفر الله له ذنوبه كلها. ومن صلى اثنتى عشرة ركعة كتب الله عز وجل له ألفا ومائتى حسنة، ومحا عنه ألفا ومائتى سيئة، ورفع له فى الجنة ألفا ومائتى درجة.

وروى أبو صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صلى الصبح يوم الجمعة فى جماعة،ثم جلس فى المسجد يذكر الله سبحانه وتعالى حتى تطلع الشمس، كان له فى الفردوس الأعلى سبعون درجة، بُعْدُ ما بين الدرجتين حُضْر الجواد المضمر سبعين سنة. ومن صلى صلاة الجمعة كان له فى الفردوس خمسون درجة حُضْر الجواد خمسين سنة. ومن صلّى العصر فى جماعة فكأنما أعتق ثمانية من ولد إسمعيل، كلهم رب بيت. ومن صلى المغرب فى جماعة فكأنما حج حجة مبرورة وعُمْرَة متقبلة. وعن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من دخل الجامع يوم الجمعة فصلّى أربع ركعات قبل صلاة الجمعة، قرأ فى كل ركعة الحمد مرة، وقل هو الله أحد خمسين مرة، فإنه لم يمت حتى يرى مقعده فى الجنة أو يُرى له.

ذكر صلاة يوم السبت

وعن سعيد عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ صلّى يوم السبت أربع ركعات، يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة، وقل يا أيها الكافرون ثلاث مرات، فإذا فرغ وسلّم قرأ آية الكرسى، كَتَب الله له بكل حرف حجة وعُمْرَة، ورفع له بكل حرف أجر سنة، صيام نهارها وقيام ليلها، وأعطاه الله عز وجل بكل حرف ثواب شهيد، وكان تحت ظل عرشه مع النبيين والشهداء.

فضل صلاة الجماعة

روى أبو كامل عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: مَنْ صلّى أربعين يوما فى جماعة لاتفوته التكبيرة الأولى مع الإمام، كتب الله عز وجل له براءتين، براءة من النار، وبراءة من النفاق.

ذكر ماجاء فى صلوات الليل وما دخل فيه من الصلاة بين العشاءين

صلاة ليلة الأحد

عن مختار بن فلفل عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: مَنْ صلّى ليلة الأحد عشرين ركعة، قرأ فى كل ركعة الحمد لله مرة، وقل هو الله أحد خمسين مرة، والمعوذتين مرة، ثم استغفر الله عز وجل مائة مرة، واستغفر لنفسه ولوالديه مائة مرة، وصلى على النبى، وتبرأ من حوله وقوته والتجأ إلى حول الله عز وجل وقوته، وقال أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن آدم صفوة الله تبارك وتعالى وفطرته، وإبراهيم خليل الله، وموسى كليم الله، وعيسى روح الله، ومحمد صلّى الله عليه وسلم حبيب الله تبارك وتعالى، كان له من الثواب بعدد من دعا لله عز وجل، ومن لم يدع لله عز وجل وبعثه الله تبارك وتعالى يوم القيامة مع الآمنين، وكان حقا على الله سبحانه وتعالى يوم القيامة أن يدخله الجنة مع النبيين.

فضل صلاة ليلة الاثنين

وروينا عن الأعمش عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ صلى ليلة الاثنين أربع ركعات، قرأ فى الركعة الأولى الحمد لله وقل هو الله أحد عشر مرات، وفى الركعة الثانية الحمد لله وقل هو الله أحد عشرين مرة، وفى الركعة الثالثة الحمد مرة وقل هو الله أحد ثلاثين مرة، وفى الركعة الرابعة الحمد مرة وقل هو الله أحد أربعين مرة، ثم تشهد وسلّم وقرأ قل هو الله أحد خمساً وسبعين مرة، واستغفر الله لنفسه ولوالديه خمساً وسبعين مرة ، وصلّى على محمد خمساً وسبعين مرة، ثم سأل اللّه سبحانه وتعالى حاجته ، كان حقاً على اللّه عز وجل أن يؤتيه سؤله ما سأل، وهى تسمى **صلاة الحاجة**. وعن القاسم بن عبد الرحمن عن أبى أمامة قال قال رسول اللّه صلى اللّه على وسلم: من صلىّ ليلة الاثنين ركعتين ، يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو اللّه أحد خمس عشرة مرة، وقل أعوذ برب الفلق خمس عشرة مرة ، وقل أعوذ برب الناس خمس عشرة مرة، ويقرأ بعد التسليم خمس عشرة مرة آية الكرسى، ويستغفر اللّه سبحانه وتعالى خمس عشرة مرة، جعل اللّه عز وجل اسمه فى أصحاب الجنة وإن كان من أصحاب النار، وغفر له من ذنوب السرّ وذنوب العلانية، وكتب له بكل آية قرأها حجّة وعُمْرة، وإن مات ما بين الاثنين إلى الاثنين مات شهيدا .

ذكر صلاة ليلة الثلاثاء

وفى الخبر من صلّى ليلة الثلاثاء اثنتى عشرة ركعة، يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة، وإذا جاء نصر الله خمس عشرة مرة، بنى الله له بيتا فى الجنة، عرضه وطوله وسع الدنيا سبع مرات .

صلاة ليلة الأربعاء

فى الخبر من صلّى ليلة الأربعاء ركعتين يقرأ فى أول ركعة فاتحة الكتاب مرة، وقل أعوذ برب الفلق عشر مرات، وفى الركعة الثانية فاتحة الكتاب مرة، وقل أعوذ برب الناس عشر مرات، نزل من كل سماء سبعون ألف ملك يكتبون ثوابه إلى يوم القيامة .

فضل صلاة ليلة الخميس

وروى أبو صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ صلى ليلة الخميس ما بين المغرب والعشاء ركعتين، يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسى خمس مرات، والمعوذتين خمس مرات ، فإذا فرغ من صلاته استغفر الله تبارك وتعالى خمس عشرة مرة ، وجعل ثوابه لوالديه، فقد أدّى حقهما وإن كان عاقًا لهما، وأعطاه الله تعالى ما يعطى الصدّيقين والشهداء .

فضل صلاة يوم الجمعة

وروى أبو جعفر محمد بن على عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: من صلّى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتى عشرة ركعة، يقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب مرة، وقل هو الله أحد عشر مرات، فكأنما عَبَدَ الله سبحانه وتعالى اثنتى عشرة سنة، صيام نهارها وقيام ليلها . وروينا عن كثير بن سليم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صلّى ليلة الجمعة العشاء الآخرة فى جماعة، وصلى ركعتىّ السُنّة، ثم صلى بعدها عشر ركعات، قرأ فى كل ركعة الحمد مرة، وقل هو الله أحد مرة، والمعوذتين مرة، ثم أوتر بثلاث ركعات، ونام على جنبه الأيمن ووجهه إلى القبلة، فكأنما أحيا ليلة القدر. وقال النبى صلى الله عليه وسلم: أكثروا علىّ من الصلاة فى الليلة الغرّاء واليوم الأزهر، يعنى ليلة الجمعة ويوم الجمعة .

فضل صلاة ليلة السبت

وعن كثير بن شنظير عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: مَنْ صلّى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتى عشرة ركعة بنى الله له قصراً فى الجنة، وكأنما تصدّق على كل مؤمن ومؤمنة، وتبرأ من اليهودية ، وكان حقا على الله عز وجل أن يغفر له .

ذكر فضل الصلاة بين العشاءين وما يختص به ذلك الوقت فى كل ليلة

روينا عن سليمان التيمى أن رجلا حدّثه قال، قيل لعبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بالصلاة غير المكتوبة، قال ما بين المغرب والعشاء. وروى أبو صخر أنه سمع محمد بن المنكدر يحدّث عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: مَنْ صلّى ما بين المغرب والعشاء فإنها من صلاة الأوّابين. وعن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قال، ما أتيت عبد الله بن مسعود فى تلك الساعة إلا وجدته يصلى، فقلت له فى ذلك ،فقال نعم، ساعة الغفلة، يعنى بين المغرب والعشاء. وسئل مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أى شىء كان يصنع النبى صلى الله عليه وسلم بين المغرب والعشاء إذا دخل منزله، قال يصلى. وعن ثابت البنّانى قال كان أنس بن مالك يُصلى بين المغرب والعشاء ويقول هى ناشئة الليل. وحدّثنا عن فضيل بن عياض عن إبان بن أبى عياش قال سألت امرأة أنس بن مالك، فقالت إنى أرقد قبل العشاء فنهاها، وقال نزلت هذه الآية فيما بينهما تتجافى جنوبهم عن المضاجع. وحدّثنا أحمد بن أبى الحوارى، قال قلت لأبى سليمان الدارانى أصوم النهار وأقعد أتعشى بين المغرب والعشاء أحب إليك، أو أفطر النهار وأحيى ما بينهما، فقال إن جمعتهما فهو أفضل، قلت فإن لم يتيسر لى، قال فافطر بالنهار وصلّ الليل بين المغرب والعشاء. وعن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أفضل الصلوات عند الله عز وجل صلاة المغرب، لم يحطها عن مسافر ولا مقيم، فتح بها صلاة الليل وختم بها صلاة النهار، فمن صلى المغرب وصلى بعدها ركعتين بنى الله له قصرين فى الجنة، لا أدرى من ذهب أو فضة، ومن صلى بعدها أربع ركعات غفر الله له ذنوب عشرين سنة، أو قال أربعين سنة. وروى أبو سلمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صلى ست ركعات بعد المغرب عدلت له عبادة سنة، أو كأنه أحيا ليلة القدر. وروى سعيد بن جبير عن ثوبان قال قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم: مَنْ عَكَفَ نفسه ما بين المغرب والعشاء فى مسجد جماعة، لم يتكلم إلا بصلاة أو بقرآن، كان حقا على الله سبحانه وتعالى أن يبنى له قصرين فى الجنة، مسيرة كل قصر منهما مائة عام، ويغرس له بينهما غراسا لو طافه أهل الدنيا لوسعهم. وروى محمد بن الحجاج أنه سمع عبد الكريم بن الحرث يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من ركع عشر ركعات ما بين المغرب والعشاء بُنِيَ له قصر فى الجنة.فقال عمر إذاً تكثر قصورنا يا رسول الله، قال الله أكبر وأفضل، أو قال وأطيب. ويروى أبو عائشة السعدى وأبو حفص العوفى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ صلّى المغرب فى جماعة ثم صلّى بعدها ركعتين، ولم يتكلم بشىء فيما بين ذلك من أمر الدنيا، يقرأ فى الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وعشر آيات من أول البقرة، وآيتين من وسطها، وهى وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، إلى آخر الآيتين، وقل هو الله أحد خمس عشرة مرة، ثم يركع ويسجد، فإذا قام إلى الركعة الثانية قرأ بفاتحة الكتاب وآية الكرسى وآيتين بعدها، إلى قوله تعالى أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، وثلاث آيات من آخر البقرة من قوله عز وجل لله ما فى السموات إلى آخرها، وقل هو الله أحد خمس عشرة مرة، بنى له فى جنات عدن ألف مدينة من الدُر والياقوت، فى كل مدينة ألف قصر، فى كل قصر ألف دار، فى كل دار ألف حجرة، فى كل حجرة ألف صُفّة، فى كل صُفّة منها ألف خيمة، فى كل خيمة ألف سرير من أصناف الجواهر، على كل سرير ألف فراش، بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور مُنَضّد، وألف مرفقة من هذا الطرف من السرير، وألف مرفقة من الطرف الآخر، فوق تلك الفرش زوجة من الحور العين، لا توصف بشىء إلاّ زادت عليه جمالا وكمالا لا يراها ملك مقرب ولا نبى مرسل إلاّ افتُتنَ بحسنها، قد ملأ ماكمتاها ما بين طرفى السرير، على كل زوجة منهن ألف حلة، لا توارى حلة حلة، ولا توارى الحلل كلها الجلد، يرى بعضها من تحت بعض كما يرى السلك الياقوتة، وكما يرى الشراب الأحمر من الزجاجة البيضاء، لكل زوجة منهن مائة ألف وصيف، ومائة ألف جارية، ومائة ألف قهرمان على قصورها وضياعها. هذا لها خاصة، سوى خدم زوجها، فى كل خيمة منهن نهر من التسنيم، ونهر من الكوثر، وعين من الكافور، وعين من الزنجبيل، وعين من السلسبيل، وغصن من شجرة طوبى، وغصن من سدرة المنتهى. فى كل خيمة ألف مائدة من الدر والياقوت، أدنى مائدة منها مثل استدارة الدنيا مرتين، على كل مائدة منها ألف صحفة، صحاف من ذهب، مكللة بالدر والجوهر، فى كل صحفة منها مائة ألف لون من طعام مختلف

طعمه ولونه وريحه، يعطى الله سبحانه وتعالى وليه المؤمن من القوّة ما يأتى على تلك الأطعمة ومثلها من الأشربة، ويأتى على أولئك الأزواج كلهن فى مقدار يوم من أيام الدنيا، فسبحان الملك الوهاب القادر على ما يشاء رب العالمين. وعن عبد الرحمن بن منصور عن سعد بن سعيد عن كرز بن وبرة – وكان وبرة من الأبدال، قال: قلت للخضر عليه السلام علّمنى شيأ أعمله فى ليلى، فقال إذا صلّيت المغرب فقم إلى صلاة العشاء الآخرة مصليا من غير أن تكلم أحدا، وأقبل على صلاتك التى أنت فيها، وسلّم فى كل ركعتين، واقرأ فى ركعة بفاتحة الكتاب مرة، وقل هو الله أحد سبع مرات، فإذا فرغت من صلاتك انصرف إلى منزلك ولا تكلم أحدا، وصلّ ركعتين، واقرأ بفاتحة الكتاب مرة، وقل هو الله أحد سبع مرات فى كل ركعة، ثم اسجد بعد تسليمك، واستغفر الله سبحانه وتعالى سبع مرات، وصلّ على النبى عليه وسلم سبع مرات، وقل سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم سبع مرات، ثم ارفع رأسك من السجود واستو جالساً، وارفع يدك وقل يا حىّ يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، يا إله الأوّلين والآخرين، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، يارب يارب يارب، يا الله يا الله يا الله، ثم قم وأنت رافع يديك وادع بهذا الدعاء، ثم نم حيث شئت، مستقبل القبلة على يمينك، وصل على النبى صلى الله عليه وسلم وأدم الصلاة عليه، حتى يذهب بك النوم. فقلت له أحب أن تعلمنى ممن سمعت هذا الدعاء، فقال إنى حضرت محمداً صلى الله عليه وسلم حيث علّم هذا الدعاء وأوحى إليه به، وكنت عنده وكان ذلك بمحضر منى، فتعلمته ممن علّمه إياه. ويقال إن هذه الصلاة وهذا الدعاء، مَنْ داوم عليهما بحسن يقين وصدق نية، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه قبل أن يخرج من الدنيا . وقد فعل ذلك بعض الناس فرأى أنه دخل الجنة، ورأى فيها الأنبياء، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلّمه وعلّمه، ولهذا فضائل كثيرة اختصرناها للإيجاز.

الفصل الثانى عشر

فى ذكر الوتر وفضل الصلاة بالليل

عن مبارك بن عوف الأحمسى عن عمر بن الخطاب قال إن الاكياس الذين يوترون أول الليل، وإن الأقوياء يوترون آخر الليل وهو أفضل. وقد يروى فى خبرٍ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر رضى الله عنه متى توتر، فقال من أول الليل قبل أن أنام، وقال لعمر

رضى الله عنه متى توتر، فقال من آخر الليل، فقال لأبى بكر حذّر هذا، وقال لعمر قوّى هذا .
وفى بعض الأخبار أنه قال لأبى بكر مثلك كالذى قال أحرزت نهبى وابتغى النوافلا،
وقال لعمر إنك لقوى مكين. وروينا عن عثمان رضى الله عنه أنه قال أما أنا فأوتر أول الليل،
فإذا استيقظت صلّيت ركعة شفعت بها وترى، فما شبهتهما إلا كالغريبة من الإبل ضممتها إلى
أخواتها، ثم أوترت من آخر صلاتى. والمشهور عنه من فعله أنه كان يحيى الليل كله بركعة واحدة
يختم فيها القرآن وهى وتره. وروينا عن علىّ عليه السلام أنه قال الوتر على ثلاثة أنحاء ، إن
شئت أوترت أول الليل ثم صليت ركعتين ركعتين ، وإن شئت أوترت بركعة فإذا استيقظت شفعت
إليها أخرى ، ثم أوترت من آخر الليل . وإن شئت أخّرت الوتر حتى يكون آخر صلاتك . وفى
حديث ابن عمر صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خِفْتَ الصبح فأوتر بركعة ، وهذا أحب الوجوه إلىّ
. وقال مجاهد قال عبد الله بن عمر مَنْ صلّى أربعا بعد العشاء كُنّ كعَدْلِهن من ليلة القدر . قال
حصين فذكرت ذلك لإبراهيم فقال كان عبد الله بن مسعود يكره أن تتبع كل صلاة بمثلها ،
وكانوا يصلون ركعتين ثم أربعا ، فمن بدا له أن يوتر أوتر، ومن أراد أن ينام نام . وقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم أوتروا يا أهل القرآن من كل الليل . وقالت عائشة رضى الله عنها قد
أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أوله وأوسطه وانتهى وتره إلى السحر . وفى الخبر كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتر عند الأذان ويصلى ركعتين عند الإقامة . وسأل رجل علياً
عليه السلام عن وقت الوتر فسكت عنه، ثم خرج إليهم عند الأذان لصلاة الفجر فقال أين
السائل عن الوتر ، هذا وقت وتر حسن . وروى أبو إمامة عن عمرو بن عنبسة قال سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول إن أقرب ما يكون الرب عز وجل من العبد جوف الليل الأخير ،
فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله سبحانه وتعالى فى تلك الساعة فكن . وروى أبو ذر
الغفارى قال قلت يا رسول الله أى الليل الصلاة فيه أفضل ، قال نصف الليل الغابر يعنى
الباقى . وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام أى الليل أسمع ، فقال إن
العرش يهتز من السَحَر . وقد روى فى الخبر أن الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله
خيرا إلا أعطاه . وروى فى خبر آخر يصلى أو يدعو إلا استجاب له ، وهى فى كل ليلة . ويقال
إن فى الليل وقتاً لا بد أن ينام فيه أو تغفل كل ذى عين إلا الحى الذى لا يموت ، فلعلها هذه
الساعة . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم إذا مضى نصف الليل ، وفى لفظ آخر إذا بقى

ثلث الليل الأخير نزل الجبار سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا فقال لا يسأل عن عبادى غيرى ، هل من تائب فأتوب عليه ، هل من مستغفرٍ فأغفر له ، هل من داع فاستجيب له ، هل من سائل فأعطيه . وفى حديث عمرو بن عنبسة عليك بصلاة آخر الليل فإنها مشهودة محضورة ، يعنى يحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار .

الفصل الثالث عشر

فيه كتاب جامع ما يستحب أن يقول العبد إذا استيقظ من نومه للتهجد وفى يقظته عند الصباح

ليقل إذا استيقظ من منامه بكرة أصبحنا وأصبح الملك لله، والعظمة لله، والبهاء لله، والقدرة لله، والعزة لله، والتسبيح لله. أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ، اللّهم إنا نسألك أن تبعثنا فى يومنا هذا إلى كل خير، ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءاً أو نجرّه إلى مسلم فإنك قلت وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى . اللّهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسبانا ، أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه ، وأعوذ بك من شرّه وشرّ ما فيه ، بسم الله ما شاء الله، لا قوّة إلا بالله ما شاء الله ، كل نعمةٍ من الله ما شاء الله، الخير كله بيد الله، بسم الله لا يصرف السوء إلا الله، رضيت بالله عز وجل رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . وليقرأ المعوّذتين فإذا أمسى قال مثل ذلك كله إلا أنه يقول أمسينا وأمسى الملك لله عز وجل، أسألك خير هذه الليلة. ولا يدعه أن يقول فى كل ليلة بسم الله الذى لا يضرّ مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ، أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شرّ ما ذرأ وبرأ ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم. وإنْ يقل دخوله من الخلاء عند وقت السحر كان أفضل كيلا يشغله عن الذكر ، يجعل ذلك فى آخر النهار أو من أول الليل ، فقد فعل ذلك كثير من الصالحين وهو حسن ، إلاّ أن دخول الخلاء عند الصباح أصلح للجسد من جهة الطب وأنظف للطهارة سيما لمن يأكل بالنهار ،

ذكر ما يستحب من القرآن

إذا أخذ العبد مضجعه للنوم ليقل باسمك ربى وضعت جنبى وباسمك أرفعه ، اللّهم إنْ أمسكت نفسى فاغفر لها وارحمها ، وإنْ أرسلتها فاعصمها واحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين .– وعلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم البراء بن عازب أن يقول إذا أخذ مضجعه ليلا: اللّهم إنى وجهت وجهى إليك ، وفوّضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رهبة ورغبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك . آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبرسولك الذى أنزلت .– وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول عند النوم اللّهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك – وأنه أمر أن يقال الحمد لله الذى علا فقهر ، الحمد لله الذى بطن فجبر ، الحمد لله الذى ملك فقدر ، الحمد لله الذى هو يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير . وليقل بعد ذلك اللّهم إنى أسألك الراحة بعد الموت ، والعفوعند الحساب . اللّهم إنى أعوذ بك من غضبك وسوء عقابك وشر عبادك وشر الشياطين وشركهم . وليقرأ خمساً من أوّل سورة البقرة ، وثلاثاً من آخرها وآية الكرسى والآيتين اللتين بعدها . وليقرأ قوله عز وجل وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، والآية التى بعدها إلى قوله تعالى لقوم يعقلون . ويقال من قرأ هذه الآية عند منامه حفظ عليه القرآن فلم ينسه ، ولا يدع أن يقرأ آخر بنى إسرائيل الآيتين قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، وهذه الآية من سورة الأعراف إن ربكم الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، فإنه يدخل فى شعاره مَلَك يوكل بحفظه ويستغفر له. وليقرأ الخمس الآيات من أوّل سورة الحديد ، والثلاث من آخر سورة الحشر ، وقل يا أيها الكافرون ، وقل هو الله أحد ، والمعوّذتين ، وينفث بهن فى يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده . كذلك روى عن النبى صلى الله عليه وسلم مِنْ قوله وفعله. وليقرأ عشراً من أوّل الكهف، وعشراً من آخرها ، وهذه الآى لقيام الليل . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقراءة قل يا أيها الكافرون عند النوم ، وكان عليه السلام يقول ما أرى أن رجلا مستكملاً عقله ينام قبل أن يقرأ الآيتين من سورة البقرة آمن الرسول ، وليقل اللّهم أيقظنى فى أحب الساعات إليك، واستعملنى بأحب الأعمال لديك، التى تقربنى إليك، وتبعدنى من سخطك بعداً ، أسألك فتعطينى، واستغفرك فتغفر لى، وأدعوك فتستجيب لى . اللّهم لا تؤمّنى مكرك، ولا تولنى غيرك، ولا ترفع عنى سترك، ولا تُنسنى ذكرك، ولا تجعلنى من الغافلين . ويقال من قال هذه الكلمات عند نومه أهبط الله سبحانه وتعالى ثلاثة أملاك يوقظونه للصلاة، فإن صلى ودعا أمّنوا على دعائه ، وإن لم يقم تعبدتْ الأملاك فى الهواء وكُتب له ثواب

عبادتهم . ثم ليسبح ثلاثاً وثلاثين مرة، وليحمد ثلاثا وثلاثين مرة، وليكبر ثلاثا وثلاثين مرة، وإن أحبّ ربّعها خمسا وعشرين مرة فقال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خمسا وعشرين مرة ، فهن يجمعن له مائة كلمة وهو أخف عليه للمداومة .

وروينا عن مطرف عن الشعبى عن عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر ما يقول حين ينام، وهو واضع خده على يده اليمنى وهو يرى أنه مقبوض فى تلك الليلة : أللّهم ربّ السموات السبع وربّ العرش العظيم ، ربنا وربّ كل شىء ، مُنْزِل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، فالق الحب والنوى ، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها . أللّهم أنت الأوّل فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء ، إقض عنى الدين، وأغننى من الفقر . وليسبّح ثلاثا وثلاثين مرة ، وليكبّر أربعا وثلاثين مرة ، وإن شاء ربّعها خمسا وعشرين مرة وزاد فيها التهليل فهن يجمعن له مائة كلمة ، وهو أخف عليه للمداومة . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وندب إليه فى أدبار الصلوات الخمس وعند النوم ، فهذا جامع ما يُستحب من قراءة الآى والدعاء عند النوم .

ذكر هيئة العبد عند النوم واهبته للمضجع ومعنى الاعتبار بذلك لذوى الأبصار

يستحب للعبد أن ينام على طهارة سابغة وإلا مسح أعضاءه بالماء مسحا ، وقد كانوا يستحبون السواك عند النوم فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله ، وكان بعض السلف يجعل عند رأسه سواكه وطهوره ، فإذا انتبه من الليل استاك ومسح أعضاءه بالماء مسحا ، وكانوا يذكرون الله عز وجل بالتلاوة والتسبيح فى تقلّبهم ويعدون هذا يعدل قيام الليل. وقد روى هذا الخبر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعن غيره ، وروينا عن رسول الله صلى اللهّ عليه وسلم نحوه، وأنه كان يستاك فى كل ليلة مرارا عند كل قوْمة من نومه ، فليعدّ العبد طهوره وسواكه عند رأسه وينوى قيام الليل ، فأى وقت استيقظ توضأ وصلّى ، أو قعد فقرأ، أو دعا وذكر الله عز وجل واستغفره ، أو تفكّر فى آلائه وعظمته ومعانى قدرته ، ففى أى وجه أخذ من هذه المعانى فهو ذِكْر ، وقد استعمل بذلك وفيه قُربة إلى الله عز وجل ، وهو فضل من الله تعالى ورحمته عليه .

ولا ينبغى للعبد أن يبيت وله شىء يوصى فيه إلا ووصيّته مكتوبة عنده ، فإنه لا يأمن القبض بالوفاة . وقد ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك فى قوله لا ينبغى لعبد أن ينام ليلتين وله شىء يوصى فيه إلاّ ووصيته مكتوبة عنده ، ويقال من مات عن غير وصية لم يؤذَن فى الكلام فى البرزخ إلى يوم القيامة ، تتزاور الأموات ويتحدثون وهو لا يتكلم فيما بينهم إلى يوم القيامة ، فيقول بعضهم لبعض هذا المسكين مات عن غير وصية فيكون ذلك حسرة عليه بينهم .

وموت الفجاة تخفيف ومستحب للمؤمن الفقير للثواب، الذى لا مال ولا دين عليه ، فأما المُثقَل بالدين، والمِخلّط فى الدين، ومن له مال أو هو مصر على مَطْل، فإن موت الفجاة لهؤلاء عقوبة ومكروه . ولا ينبغى للعبد أن يبيت إلا تائبا من كل ذنب ، سليم القلب لجميع المسلمين ، لا يحدّث نفسه بظلمْ أحد، ولا يعتقد على خطيئة إنْ استيقظ . وقد جاء فى الخبر مَنْ أوى إلى فراشه لا ينوى ظلم أحد، ولا يحقد على أحد، غُفِرَ له ما اجترم . وليستقبل فى نومه القبلة ، واستقبال القبلة على ضربين ، إنْ كان مستلقيا فاستقباله القبلة أن يكون وجهه إليها مع أخمص قدميه كحال الميت المُسَجّى ، وإنْ كان نائما على جنب فاستقبال القبلة أن يكون وجهه إليها مع شقه الأيمن كهيئة المُلّحَد فى قبره، فسيصير إليه عن قريب، وَلْيُذَكِّر بنومه على هذين الحالين عند موته وحين اضطجاعه فى قبره . وقد قال الله عز وجل ألم نجعل الأرض كِفَاتاً ، أحياء وأمواتا فى أحد الوجهين ، وهو مذهب أهل التفسير، أى يكفتهم ويجمعهم أحياء على ظهرها، وأمواتا فى بطنها . وقد جعل الله سبحانه وتعالى النوم من آياته الدالة عليه لأهل السمع منه وهو سمع اليقين ، وقرنه بالابتغاء من فضله فقال عز وجل ومن آياته منامكم بالليل والنهار، وابتغاؤكم من فضله، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . وكان فقراء أهل الصُفّة وبعض زهّاد التابعين إذا رقدوا لا يجعلون بينهم وبين الأرض شيئا، فكان أحدهم يباشر التراب بجلده ويطرح ثوبه فوقه، يقول منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، كأنهم كرهوا الترفع عليها والوقاية منها . ويجدون ذلك أرق لقلوبهم وأبلغ فى تواضعهم .

ومثل النوم عند أهل الاعتبار مثل البرزخ هو بين الدنيا والآخرة ، كذلك النوم بين الحياة والموت ، فإذا كُشِفَ حجاب النوم ظهرت الدنيا بالحكمة ، وكذلك إذا كشف الغطاء ظهرت الآخرة بالقُدرة فصارت الدنيا كالأحلام فى النوم . وقد قال الله عزّ وجل وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيها . وكان بعضهم يقول عجباً لمن يعصى الله عزّ وجل ثم ينام

بعد ذلك . وذكر بعض العلماء عن الله عزّ وجل إنْ كنتم تعصوني فاخرجوا من بساطي ولا تناموا في قبضتي . وقال لقمان لابنه يا بنيّ إنْ كنت تشك في الموت فلا تنم، فكما أنك تنام فكذلك تموت . وإنْ كنت تشك في البعث فإذا نمت فلا تنتبه ، فكما أنك تنتبه بعد نومك فكذلك تُبعث بعد موتك . فليتذكر العبد عند نومه حين موته ، وليعلم أن الله تعالى يكون له بعد موته كما كان العبد له قبل نومه ، فلينظر على أى حال نام وعلى أى هَمٍّ توفاه الله عليه ، وليتذكر بانتباهه البعث فإن العبد يُبْعَث على ما مات عليه في الدنيا ، فيبعث بهَمِّه ويُحشر مع محبوبه، كما ينتبه النائم عن هَمِّه إلى محبوبه الذى نام عنه . وفى الخبر أن المرء مع من أحب وله ما احتسب . وروى عنه صلّى الله عليه وسلم من مات على مرتبة من المراتب بُعِثَ عليها يوم القيامة . وروينا عن كعب الأحبار قال إذا نمت فاضطجع على شقك الأيمن واستقبل القبلة بوجهك فإنها وفاة .

بيان آخر من الاعتبار لأهل التبصرة والتذكار

وليعلم العبد أن الله عزّ وجلّ يكون له بعد بعثه من قبره كما كان العبد له بعد بعثه من نومه، فلينظر إلى أى حال يُبْعَث ، وإنْ كان العبد لنظر مولاه مُكَرِّما ، ولشأنه وحُرُماته مُعَظِّما، وإلى محبوبه ومرضاته ومسرته من النعيم المقيم مُسْرِعا، كان الله تعالى في آخرته لوجهه مكرِما. وإنْ كان العبد في حق مولاه متهاونا، وبأمره مستخفا، ولشعائره مستصغرا كان الله تعالى له مُهينا وبشأنه متهاونا. قال الله تعالى وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء، ثم قال قليلا ما تذكّرون، مُوَبِخاً لهم بذلك. وقال في مثله أفنجعل المسلمين كالمجرمين، ثم قال مالكم كيف تحكمون، ثم أخبر بحكمه فيهم فقال أم حسب الذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، سواء محياهم ومماتهم، ساء ما يحكمون. هكذا تقدير الكلام وهو من المقدم والمؤخر، فرفع حسناتهم وأخبر بسوء حكمهم، ثم ذكر حكمهم عنده في المحيا والممات فقال سواء محياهم ومماتهم، أى كما كانوا في الحياة كذلك يكونون بعد الوفاة، ثم عقب ذلك بذكر عدله في خلْقه فقال وخَلَقَ الله السموات والأرض بالحق، ولِتُجْزَى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون، فكان هذا فصل الخطاب وتذكار أولى الألباب . وقال في معناه، وأمر بتدبر كلامه، وأمر بتذكر العقلاء عن خطابه، فقال كتاب أنزلناه إليك مباركٌ ليدبّروا آياته، وليتذكر أولو الألباب ، هل يتدبرون فيجدون أنّا نجعل المفسدين كالمصلحين أو نجعل المتقين كالفاسقين ، وهو قوله تعالى أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم

نجعل المتقين كالفجار. فالتدبر التفهم، والتذكر التقوى والعمل .

وروينا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مَنْ أحب أن يعلم منزلته عند اللّه عزّ وجلّ فلينظر كيف منزلة اللّه تعالى من قلبه، فإن اللّه عز وجل يُنزِل العبد عنده بحيث نزله العبد من نفسه، فإذا نام العبد على طهارة وذِكْر، وعن مثل هذه المشاهدة والفكر، فإن مضطجعه يكون مسجدا، وأنه يكتب مصليا حتى يستيقظ، ويدخل فى شعاره ملَك، فإن تحرك فى نومه فذكّر اللّه عز وجل دعا له الملك واستغفر له. وفى الخبر إذا نام العبد على طهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة، وإن لم ينم على طهارة قصرت روحه عن البلوغ فتلك المنامات أضغاث أحلام لا تَصدُق، فإن غلبه النوم حتى يصبح حُسِبَ له قيام ليلة وكان نومه عليه صدقة، ومن كان هذا وصفه فى منامه يسبق كثيرا من العباد فى قيامهم عن شهود غفلة وسهو، وقد روينا فى خبر نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح .

ذكر ما يستحب من القول عند القيام إلى التهجد

فإذا قام العبد من الليل متهجداً فليقل الحمد للّه الذى أحيانى بعد إذ توفانى وإليه النشور، وليقرأ العشر الأواخر من سورة آل عمران ، وليَستَك وليتوضأ ويقول سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت، أستغفرك وأسألك التوبة فاغفر لى وتُبْ علىّ إنك أنت التّواب الرحيم. اللّهم اجعلنى من التوّابين واجعلنى من المتطهرين، واجعلنى صبورا شكورا، واجعلنى أذكرك كثيرا وأسبحك بكرةً وأصيلا، ثم يرفع رأسه إلى السماء فيقول أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وأعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سَخطك ، وأعوذ بك منك، لا أُحصى ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، أنا عبدك ابن عبدك، ناصيتى بيدك، جارٍ فىّ حكمك ، عدلٌ فىّ قضاؤك، هذه يدى بما كسَبَتْ، وهذه نفسى بما اجترَحَتْ، لا إله إلاّ أنت، سبحانك إنى كنت من الظالمين، عملت سوأً وظلمت نفسى فاغفر لى ذنبى إنك أنت ربى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فلا إله إلا أنت ، لا إله إلا أنت . فإذا قام إلى الصلاة متوجهاً فليقل اللّه أكبر كبيرا، والحمد للّه كثيرا، وسبحان اللّه بكرةً وأصيلا، ثم ليسبح عشراً، وليحمد عشراً، وليهلل عشراً، وليكبر عشراً، وليقل اللّه أكبر ذو الملكوت والجبروت، والكبرياء والجلال، والعظمة والقدرة، وليقل هذه الكلمات فإنها مأثورة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فى قيامة للتهجد: اللّهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ولك الحمد، أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد،

أنت نور السموات والأرض ولك الحمد، أنت زين السموات والأرض ولك الحمد، أنت قيام السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن، أنت الحق ومنك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد صلى الله عليه وسلم حق. اللّهم لك أسلمتُ، وبك آمنت، وعليك توكلت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر اللّهم يارب لى ما قدّمت وما أخّـرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر لا إله إلا أنت. اللّهم آت نفسى تقواها. اللّهم زكّها أنت خير مَنْ زكّاها، أنت وليُّها ومولاها. اللّهم اهدنى لأحسن الأعمال لا يهدى لأحسنها إلا أنت، واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت، أسألك مسئلة البائس المسكين، وأدعوك دعاء المفتقر الذليل، فلا تجعلنى بدعائك ربِّ شقيا، وكن بى رؤفاً رحيما، يا خير المسؤلين، ويا أكرم المُعطين.

ويُستحب أن يفتح صلاته بركعتين خفيفتين، ويستحب له أن لا يأكل شيأ ولا يشرب ماء حتى يقضى همته من صلاته، فإن العبد إذا استيقظ من نومه يكون جام القلب فارغ الهَمّ، فإذا أكل أو شرب تغيّر قلبه عن هيئته فَلْيُغَيِّب أكله، إلا أن يخاف أن يَفْجَاه الفجر إنْ لم يتسحر أو يشرب، فليبدأ حينئذ بذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

الفصل الرابع عشر

فى ذكر تقسيم الليل ونومه ووصف القائمين والمتهجدين

قد قرن الله سبحانه وتعالى قوّام الليل برسوله المصطفى وجمعهم معه فى شكر المعاملة وحُسن الجزاء فقال تعالى: إنّ ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثُلُثه وطائفةٌ من الذين معك. وقد أخبر الله سبحانه أن قراءة الليل أشدّ وطأ للقلب وأقوم قيلاً للحفظ والذكر، أى يواطىء القلب اللسان بالفهم والحفظ، وقد سمّى الله تعالى أهل الليل علماء، وجعلهم أهل الخوف والرجاء، وأخفى لهم قرة العين من الجزاء، فقال أمّن هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، ثم قال هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون. وهذا من المحذوف ضده لدلالة الكلام عليه، والمعنى أمّن هو هكذا عالمٌ قانتٌ مطيعٌ لا يستوى مع من هو غافلٌ نائمٌ ليله أجمع، فهو غير عالم بما يحذر وبما يرجو من ربه عز وجل. وقال عز وجل فى وصفهم فى الدنيا ووصف ما أعَدّ لهم فى الآخرة – والذين يبيتون لربهم سُجَداً وقياما، تتجافى جنوبهم عن المضاجع، يدعون ربهم خوفا وطمعا – أى تنبو عن الفراش فلا تطمئن لما فيها من خوف الوعيد ورجاء الموعود، ثم قال فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا

يعملون ، قيل كان عملهم قيام الليل، وقيل بل كانوا أهل خوف ورجاء ، وهذان من أعمال القلوب عن مشاهدة الغيوب، فلمّا أخفوا له الإخلاص بأعمال السرائر أخفى لهم من الجزاء نفيس الذخائر، ولا تقر أعين هؤلاء المحبين إلا بوجهه كما لم يعملوا إلاّ لوجه الله تعالى، وقال بعض العلماء فى قوله تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة، قال هى صلاة الليل استعينوا بها على مجاهدة النفس ومصابرة العدوّ، ثم قال وإنها لكبيرة إلاّ على الخاشعين، يعنى الخائفين المتواضعين، لا تُثقل عليهم ولا تجفو بل تخف وتحلو. وفى الخبر قيل يا رسول الله إن فلانا يصلى من الليل فإذا أصبح سرق، فقال سينهاه ما تقول. وقال صلىّ الله عليه وسلم نِعْمَ الرجل عبد الله بن عمر لو كان يصلى من الليل، قال فما فاتته بعد ذلك ليلة حتى يقوم فيها.

وفى الخبر عليكم بقيام الليل فإنه مرضاة لربكم ومكفر لسيآتكم، وهو دأب الصالحين قبلكم، ومنهاة عن الإثم، وملقاة للوزر، ومَذهبة لكيد الشيطان، ومطردة للداء عن الجسد. وقد جعل الله سبحانه قيام الليل من أوصاف الصالحين بقوله يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، إلى قوله وأولئك من الصالحين ، فيستحب من قيام الليل ثلثاه ، وأقل الاستحباب من القيام سدسه، لأنّا روينا أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقم ليلة قط حتى أصبح، بل كان ينام منها، ولم ينم ليلة حتى يصبح بل كان يقوم منها. ويقال إن الصلاة أوّل الليل للمتهجدين، وقيام أوسطه للقانتين، وقيام آخره للمصلين، والقيام من الفجر للغافلين. وحدثنا عن عبد الله بن عمر قال، حدثنا يوسف بن مهران قال بلغنى أن تحت العرش ملكا فى صورة ديك براثنه من لؤلؤ وصئصئتاه من زبرجد أخضر، فإذا مضى نصف الليل الأوّل ضرب بجناحه وَزَقَى وقال ليقم القائمون، فإذا مضى نصف الليل ضرب بجناحه وَزَقَى وقال ليقم المتهجدون، فإذا مضى ثلث الليل ضرب بجناحه وَزَقَى وقال ليقم المصلون، فإذا طلع الفجر ضرب بجناحه وَزَقَى وقال ليقم الغافلون وعليهم أوزارهم.

وقال بعض العلماء أهل الليل على ثلاثة أصناف قوم قطعهم الليل فكان هؤلاء المريدون ذوو الأوراد والأجزاء كابدوا الليل فغلبهم ، قال وقوم قطعوا الليل فكان هؤلاء العاملون الذين صبروا وصابروا الليل فغلبوه، وقال قوم قطع بهم الليل فكان هؤلاء المحبون والعلماء، أهل الفكر والمحادثة، وأهل الأنس والمجالسة، وأهل الذكر والمناجاة، وأهل التملق والملاقاة، نغّص عليهم الليل حالهم، وقصّر النعيم عليهم ليلهم، ورفع الحبيب عنهم نومهم، وخفّف الفهم عليهم قيامهم،

وأذهب مزيد الوصل عنهم مَلَلهم، وأوصل العتاب لهم سهرهم. وقيل لبعض أهل الليل كيف أنت والليل فقال ما رعيته قط، يريني وجهه ثم ينصرف وما تأملته . وقال آخر أنا والليل فرسا رهان، مرة يسبقني إلى الفجر، ومرة يقطعني عن الفكر. وقيل لبعضهم كيف الليل عليك فقال هو ساعة أنا فيها بين حالين، أفرح بظلمته إذا جاء، وأغتّم بفجره إذا طلع. ما تمّ فرحي به قط، ولا اشتفيت منه قط. وقيل لبعض المحبين كيف الليل عليك، فقال والله ما أدرى كيف أنا فيه إلاّ أنا بين نظرة ووقفة ، يُقبل بظلامه فاتدرعه، ثم يسفر قبل أن أتلبسه، ثم أنشد

لم أستتم عناقه لقدومه * حتى بدا تسليمُه لوداع

وقال بعضهم

وزارني طَيفُك حتى إذا * أراد أن يمضي تعلقتُ به

فليت لَيْلي لم يزل سرمدا * والصبح لم أنظر إلى كوكبه

وشكا بعض المريدين إلى أستاذه طول سهره بالليل ، وأن السهر قد أضرّ به، ثم قال أخبرني بشيء أجتلب به النوم، فقال له أستاذه يا بني إن لله نفحات في الليل والنهار تصيب القلوب المتيقظة، وتخطيء بالقلوب النائمة، فتَعَرّض لتلك النفحات ففيها الخيرة ، فقال يا أستاذ تَركتني لا أنام بالليل ولا بالنهار .

وتذاكر قوم قِصَر الليل عليهم فقال بعضُهم، أما أنا فإن الليل يزورني قائما ثم ينصرف قبل أن أجلس. وقال عليّ بن بكّار منذ أربعين سنة ما أحزنني شيء إلاّ طلوع الفجر. وقال الفضيل بن عياض إذا غربت الشمس فرحتُ بدخول الظلام لخلوتي فيه بربي، فإذا طلع الفجر حزنت لدخول الناس عليّ. وقال أبو سليمان أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا. وقال أيضا لو عوّض الله عز وجل أهل الليل من ثواب أعمالهم ما يجدونه في قلوبهم من اللذة لكان ذلك أكبر من أعمالهم. وقال بعض العلماء ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلاّ ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة. وقال بعضهم قيام الليل والتملق للحبيب والمناجاة للقريب في الدنيا ليس من الدنيا، هو من الجنة أظهر لأهل الله تعالى في الدنيا، لا يعرفه إلاّ هُمْ ولا يجده سواهم روْحاً لقلوبهم . وقال عُتْبَه الغلام كابدتُ الليل عشرين سنة ثم تنعّمت به عشرين سنة. وقال يوسف بن أسباط قيام ليلة

أسهل عليّ من عمل قفة. وكان يعمل كل يوم عشر قِفَاف. وقال غيره ما رأيت أعجب من الليل إذا اضطربْتَ تحته غلبك، وإن ثَبَتّ له لم يقف. وبكى عامر بن عبد الله حين حضرته الوفاة فقيل له فى ذلك فقال والله ما أبكى حباً للبقاء، ولكن ذكرت ظمأ الهواجر فى الصيف وقيام الليل فى الشتاء. وقال ابن المُنكدر ما بقى من لذات الدنيا إلا ثلاث، قيام الليل ولقاء الإخوان والصلاة فى جماعة. وقال بعض العارفين إن الله عز وجل ينظر بالأسحار إلى قلوب المتيقظين فيملؤها أنواراً، فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير، ثم تنشر من قلوبهم العوافى إلى قلوب الغافلين. وقال بعض العلماء إن اللهّ عز وجل ينظر إلى الجنات عند السحر نظرة فتشرق وتضىء، وتهتز وتربو وتزداد جمالا وحسنا وطيبا ألف ألف ضعف فى جميع معانيها، ثم تقول قد أفلح المؤمنون فيقول الله عز وجل هنياً لك منازل الملوك، وعزتى وجلالى وارتفاع مكانى لا أسكنك جبارا ولا بخيلا ولا متكبراً ولا فخورا، وينظر إلى العرش نظرة فيتسع ألف ألف سعة، ويزداد بكل سعة ألف ألف عالم منها ، كل عالم لا يعلم وسعه الا الله عز وجل، ثم يهتز فيثقل على الحَمَلَة حتى يموج بعضهم فى بعض ويحطم بعضهم بعضا وهم بعدد جميع ما خلق الله عز وجل، وأضعاف ما خلق الله عز وجل، فيقول العرش سبحانك أينما كنت وأينما تكون، فينادى حَمَلَة العرش سبحان من لا يعلم أين هو إلا هو، سبحان من لا يعلم ما هو إلا هو.

وروينا عن بعض العلماء من القدماء أن الله عز وجل أوحى إلى بعض الصدّيقين أن لى عبادا من عبادى يحبونى وأحبهم ويشتاقون إلىّ وأشتاق إليهم، ويذكرونى وأذكرهم ، وينظرون إلىّ وأنظر إليهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم مقتُك. قال يارب وما علامتهم، قال يراعون الظلام بالنهار كما يراعى الراعى الشفيق غنمه ، ويحنّون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها عند الغروب، فإذا جنّهم الليل واختلط الظلام، وفُرشت الفُرش ونُصبت الأسرّة، وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا لىّ أقدامهم، وافترشوا لىّ وجوههم، وناجونى بكلامى، وتملّقوا لى بأنعامى، فبيْن صارخٍ وباكى، ومتأوّه وشاكى، وبين قائم وقاعد، وبين راكع وساجد، بعينى ما يتحملون لأجلى، وبسمعى ما يشتكون من حبى، أوّل ما أعطيهم أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم، والثانية لو كانت السموات السبع والأرض وما فيهما من موازينهم لاستقللتها لهم، والثالثة أقبل بوجهى عليهم فترى مَنْ أقبلتُ بوجهى عليه لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيه.

وقال مالك بن دينار إذا قام العبد يتهجد من الليل ورتّل القرآن كما أمر، قَرُب الجبار تعالى منه. قال وكانوا يرون أن ما يجدون في قلوبهم من الرقة والحلاوة والفتوح والأنوار من قرب الرب تعالى من القلب. وفي الأخبار عن الجبار عز وجل: أي عبدي أنا الله الذي اقتربتُ لقلبك، وبالغيب رأيتَ نوري. وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أذن الله لشيء إذْنه لحسن الصوت بالقرآن، يعني ما أستمع إلى شيء كاستماعه إليه. وفي الحديث الآخر: لَلّه أشد أذناً إلى قارىء القرآن من صاحب القيْنة إلى قينته، وأهل اللهو في غفلة عما أهل الآخرة فيه، وفي عَمًى عما ينظر هؤلاء الحاضرون إليه، وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون، بل قلوبهم في غمرة من هذا وطبَع على قلوبهم فهم لا يسمعون.

ويقال إن وهب بن مُنَبِّه اليماني ما وضع جنبه إلى الأرض ثلاثين سنة كانت له مُسوّرة من أدم، إذا غلبه النوم وضع صدره عليها وخفق خفقات ثم يفرغ إلى القيام، وكان يقول لأنْ أرى في بيتي شيطانا أحب إلى الله من أن أرى فيه وسادة، يعني لأنها تدعو إلى النوم. وقال رقبة بن مسقلة رأيت ربّ العزة تعالى في النوم فسمعته يقول وعزتي وجلالي لأكرمنّ مثوى سليمان التيمي فإنه صلّى الغداة بوضوء العشاء الآخرة أربعين سنة. ويقال إنه كان مذهبه أن النوم إذا خامر القلب وجب الوضوء .

ذكر مَنْ روى عنه انه أحيا الليل كله . ومن اشتهر بإحياء الليل كله. وصلّى الغداة بوضوء العشاء الآخرة أربعين سنة أو ثلاثين سنة حتى نقل عنه ذلك

أربعون من التابعين، منهم سعيد بن المسيب وصفوان بن سليم المدنيان، وفضيل بن عياض ووهيب بن الورد المكّيان، وطاوس ووهب بن منبه اليمانيان، والربيع بن خيثم والحكم بن عيينة الكوفيان، وأبو سليمان الداراني وعلي بن بكار الشاميان، وأبو عبد الله الخوّاص وأبو عاصم العباديان، وحبيب أبو محمد وأبو جابر السلماني الفارسيان، ومالك بن دينار وسليمان التيمي ويزيد الرقاشي وحبيب بن أبي ثابت ويحيى البكّاء البصريون، وكهمس بن المنهال وكان يختم في الشهر تسعين ختمة، وما لم يفهم رجع فقرأه مرة أخرى. وأيضا من أهل المدينة أبو حازم ومحمد بن المنكدر في جماعة يكثر عددهم، هؤلاء المشهورون منهم.

فإن أحبّ المريد نام ثلث الليل الأول وقام نصفه ونام سدسه الأخير، وإن أراد نام نصف

الليل وقام ثلثه ونام سدسه، فقد روى أن هذا من أفضل القيام، وأنه كان قيام نبي الله عز وجل داود عليه السلام، جاء ذلك في روايتين. وإنْ أحَب العبد قدّم القيام فيهما وأخّر وتره إلى السحر، فإن قام نصف الليل قسّم نومه في أوّل الليل وآخره، فإن قام ثلث الليل نام سدسه الأخير، وإنْ اختار أن يقوم من أوّل الليل حتى يغلبه النوم ثم ينام، ثم يقوم متى استيقظ، ثم ينام متى غلبه النوم، ثم يقوم آخر الليل، فيكون له في الليل نومتان وقومتان، فهذا من مكابدة الليل، وهو من أشد الأعمال، وهذه طريقة أهل الحضور واليقظة وأهل التذكار والتذكرة، فقد كان هذا من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال أنس بن مالك ما كنت تريد أن ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم نائما إلاّ رأيته، ولا كنت تريد أن تراه قائما إلاّ رأيته. وكان هذا مذهب بن عمر وأولي العزم من الصحابة في قيام الليل، وفعله جماعة من التابعين. وقد رأينا من كان له في الليل قومات ونومات في تضاعيف ذلك، فأما أن يكون المنام والقيام موزونا عدلا فليس ذلك إلاّ لنبي بقلب دائم اليقظة وبوحي من الله عز وجل، ولا يسلك هذا الطريق إلاّ بأسباب هي زاده، لأن كل طريق يُقطع بزاد مثله، فمن أراده احتقب وأخذ من زاده، فالأسباب أحدها هَمٌّ يلزم القلب وحزن يسكن فيه. أو يقظة دائمة يحيا بها القلب، وفكر في الملكوت متصل، وخلو المعدة من الطعام وقلة الشرب، وأن يقيل بالنهار ولا يكثر تعب جوارحه في أمر الدنيا، فهذه رياضة المريد إلى أن يألف القيام، وليستوطن حينئذ فيتجافى جنبه لما في قلبه من الخوف والرجاء الذي قد استكنّ فيه.

وروى عن الله سبحانه وتعالى أن عبدي، الذي هو عبدي حقا، الذي لا ينتظر بقيامه صياح الديك.— ففي هذا حثٌّ على القيام قبل السحر. ونوم آخر الليل نستحبه لمعنيين، أحدهما أنه يذهب بالنعاس بالغداة، وقد كانوا يكرهون النعاس بالغداة ويأمرون الناعس بعد صلاة الصبح بالنوم، والمعنى الثاني أنه يُقل صُفرة الوجه، فلو قام العبد أكثر الليل ونام سحراً ذهب نعاسه بالغداة وقلّت صفرة وجهه، ولو نام أكثر الليل وسهر من السحر جلب عليه النعاس بالغداة وصُفرة الوجه، فليتق العبد ذلك فإنه باب غامض من الشهرة والشهوة الخفية، وليُقل شرب الماء بالليل فقد يكون منه الصُفرة سيّما في آخر الليل وبعد الانتباه من النوم.

وقالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوتر من آخر الليل، فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهن، وإلاّ اضطجع في مصلاّه حتى يأتيه بلال فيؤذنه

بالصلاة. وقالت أيضا ما ألفيته السحر الأعلى إلاّ نائما، تعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفى الخبر الآخر كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أوتر من آخر الليل اضطجع على شقّه حتى يأتيه بلال فيخرج معه إلى الصلاة، فقد كان السلف يستحبون هذه الضجعة بعد الوتر وقبل صلاة الصبح حتى قال بعضهم فهى سُنّة، منهم أبو هريرة ومروان.

والنوم من آخر الليل وفى الثلث الآخير مزيد لأهل المشاهدة والحضور، لأنه كشف لهم عن الملكوت واستماع العلوم من الجبروت، وهو راحة وسكن للعمّال وأهل المجاهدة، ولذلك حظرت الصلاة بعد صلاة الفجر، وبعد صلاة العصر، ليستريح عمّال الله عز وجل وأهل أوراد الليل والنهار فيهما . والنوم من آخر الليل هو نقصان لأهل السهو والغفلة من حيث كان مزيداً لأهل الشهود واليقظة، لأنه آخر خدمة أولئك ففيه راحتهم، وهو تطاول النوم والغفلة بهؤلاء فهو نقصهم. وليفصل العبد فى تضاعيف صلاة الليل بجلوسٍ يسبّح فيه مائة تسبيحة فذلك ترويح له وعون على الصلاة، وهو داخل فى قوله تعالى ومن الليل فسبّحه وأدبار السجود، أى أعقاب الصلاة فى أحد الوجهين على قراءة مَنْ نَصَب، وإنْ أراد المزيد أحيا الوردين اللذين من أوّل الليل، أحدهما بين العشاء والثانى قبل نومة الناس، فإنّ إحياء هذين الوردين عند بعض العلماء من صيام يوم؛ ثم ليقم الورد الرابع وهو ما بين الفجرين وهو أوّل ثلث الليل الأخير ، والورد الخامس وهو السحر الأخير قبل طلوع الفجر الثانى، وهو يصلح للقراءة والاستغفار إنْ كان لم يعتد للقيام فى جوف الليل. وفى خبر أبى موسى ومعاذ لمّا التقيا قال معاذ لأبى موسى، كيف تصنع فى قيام الليل، قال أقومه أجمع لا أنام منه شيئاً، وأتفوّق القرآن فيه تفوّقا، قال معاذ لكنى أنام ثم أقوم واحتسب فى نومتى ما احتسب فى قومتى، فذكرا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأبى موسى: معاذ أفقه منك. وقد كان بعضهم لا ينام حتى يغلبه النوم. وكان بعض السلف يقول هى أوّل نومة فإن انتبهت ثم عدت إلى نومة أخرى فلا أنام الله عينىّ. وسئل فزارة الشامى عن وصف الأبدال وكانوا يظهرون له، فقال أكْلُهم فاقة، ونومهم غلبة، وكلامهم ضرورة، وصمتهم حكمة، وعلمهم قُدرة. وقيل لآخر صِفْ لنا الخائفين، فقال أكْلُهم أكْلُ المرضى، ونومُهم نوم الغرقى.

ولا يدع العبد أن يقوم مقدار خمس الليل أو سدسه، وهو ورد من أوراد الليل أو وردان على تلافهما فى الطول والقصر، متفرقا كان قيامه أو متصلا. وأى ورد أحياه من الليل بأى نوع

من الأذكار فقد دخل في أهل الليل وله معهم نصيب. ومن أحيا أكثر ليلته أو نصفها كُتب له إحياء جميعها وتصدّق عليه بما بقي منها . ومن صلّى في ليلة عشرين ركعة وأوتر بعدها بثلاث حُسب له كأنه أحياها بفضل الله ورحمته. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم ليلةً نصف الليل، وليلةً ثلثه، وليلةً ثلثيه، وذلك مذكور في أوّل الآيتين من قيام الليل في سورة المُزّمل. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم ليلةً نصف الليل ونصف سدسه معه، ويقوم ليلةً ربعه، ويقوم ليلةً سدس الليل، وذلك مذكور في آخر الآيتين من قيام الليل، وهذا على قراءة من كسر ونصفِه وثلثِه، فأمّا من نصب فقال ونصفَه وثلثَه فإنه يعني يقوم النصف مع نصف السدس، والنصف وحده، والثلث وحده، وهو الذي ذكرناه من الآية الأولى، وقد جاء في التفسير نحو هذا . وهو صلّى الله عليه وسلم مفترضٌ عليه صلاة الليل، فالآية الأولى أمره تعالى بقيام الليل فيها ، والأخرى أخبره عنه بقيامه كيف هو، فالأجود أن يكون ما أخبر عنه مواظباً لما أمره به، فالذي أمره به أنه قال تعالى قم الليل، ثم استثنى القليل منه فقال إلا قليلا، ثم فسر أمره فقال نصفه أو انقص منه قليلا، يعني والله أعلم انقص نصف السدس أو نصف الثلث، هذان أقل أسماء النقصان عند العرب، ثم قال أو زدْ عليه، يعني زد على النصف، كأنه زد عليه نصف سدس الليل لأنه أخبر عنه في الآية الاخرى بأقل من الثلثين، فقال إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل، يكون هذا نصفا ونصف سدس، وهو أقل التسمية عندهم، ثم قال ونصفه أي ويعلم أنك تقوم نصفه أيضا وثلثه أي وتقوم ثلثه، فهذه الأخبار أشبه بوطء الأمر من قراءة مَنْ كَسَرَ فقال ونصفِه وثلثِه، يريد وتقوم أدنى من نصفه وهو الربع أو الثلث، وأدنى من ثلثه وهو السدس أو نصف السدس. وقد قالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقوم من الليل إذا سمع الصارخ يعني الديك، فهذا يكون من السحر فقط، فكان هذا يكون سدس الليل أو نصف سدسه ففيه رخصة وسعة لقوّام الليل. قلنا هذا تقريب لا تحديد والله أعلم. والنصب اختيارنا في القراءة على معنى كثرة القيام ولمواطأة الخبر عنه للأمر.

وقد جاء في الأثر صلِّ من الليل ولو قدر حَلْب شاة فهذا قد يكون أربع ركعات وقد يكون ركعتين. وقال أبو سليمان مَن أحسَنَ في نهاره كوفي في ليله، ومن أحسن في ليله كوفي في نهاره. وكان يقول أهل الليل على ثلاث طبقات، منهم إذا قرأ متفكرا بكى، ومنهم إذا تفكّر صاح، وراحتُه في صياحه، ومنهم من إذا قرأ وتفكّر بُهِتَ فلم يبك ولم يَصِحْ، قلتُ له من أي شيء صاح هذا ، ومن أي شيء بُهِتَ هذا ، فقال لا أقوى على التفسير. وقال رجل للحَسَن يا أبا

سعيد، إني أبيت مُعافى وأحب قيام الليل وأتخذ طهورى، فما بالى لا أقوم، فقال ذنوبك قيدتك يا ابن أخي. وكان الحسن إذا دخل السوق فسمع لغطهم ولغوهم قال أظن ليل هؤلاء ليل سوء ما يقيلون. وقال بعض السلف كيف ينجو التاجر من سوء الحساب وهو يلغو بالنهار وينام بالليل. وقال الثورى حُرِمْتُ قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته، قيل له وما هو، قال رأيت رجلا بكى فقلت فى نفسى هذا مُرَاءٍ. وقال بعضهم دخلت على كرز بن وبرة وهو يبكى فقلت ما بالك، أتاك نعي بعض أهلك، فقال أشد، فقلت وجعٌ يؤلمك، قال أشد، قلت فما ذاك، قال بابى مغلق وسِتْرِي مُسْبَل، ولم أقرأ جُزئى البارحة، وما ذاك إلا بذنب أحدثته. وقال محمد بن شبانة سمعت بعض الشيوخ الثقات المستورين ببغداد يقول، سمعت ابن الصافى البقّال بدينور يقول، كان بدينور سجّان، قال إنى بقيت على باب السجن نيّفا وثلاثين سنة، فما من أحد حُمِلَ إلى السجن من الذين أخذهم الطوف بالليل إلاّ سألته فقلت له، هل صلّيت صلاة العشاء الآخرة فى جماعة إلاّ قال لا. وقال أبو سليمان لا يفوت أحداً صلاة فى جماعة إلاّ بذنب. وكان يقول الاحتلام بالليل عقوبة، والجنابة البُعد، فكأنه بَعُدَ من الصلاة والتلاوة، إذْ فى ذلك قرب. ومن هذه قوله تعالى فبَصُرَت به عن جُنُب. وكان الحسن يقول إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل وصيام النهار. وقال بعض العلماء إذا صمت يا مسكين فانظر عند مَنْ تفطر، وعلى أى شيء تفطر، فإنّ العبد ليأكل الأكلة فينقلب قلبه عما كان عليه، فلا يعود إلى حاله الأول. وقال آخر كم من أكلة منعت قيام الليل، وكم من نظرة حرمت قراءة سورة، وإنّ العبد ليأكل الأكلة أو يفعل فعلة فيحرم بها قيام سَنَة، فبحُسن التفقد تعرف المزيد من النقصان ، وبقلة الذنوب يوقف على التفقد.

وكان الفضيل يقول لو رزقت من فهم القرآن وقيام الليل فى أول أمرى ما رزقت الآن ما كتبت حديثا قط، ولا اشتغلت بغير القرآن. ويقال إن طول القيام راحات القيامة، وأن صلاة الليل كفّارات الكبائر. وقيل إنه جُبْران لما نقص من الفرائض من صلاة الليل. وقد كانوا يستحبون فى صلاة النهار كثرة الركوع والسجود، وفى صلاة الليل طول القيام. واعْلم أنّ صلاة الليل نافلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان متمماً لفرائضه، وصلاة الليل تكملة لفرائضنا. وفى الخبر إذا نام العبد عقد الشيطان على رأسه ثلاث عُقَد، فإنْ قعد وذكر الله انحلّت عقدة، وإذا توضأ انحلّت عقدة، وإذا صلّى ركعتين انحلّت العُقَد كلُها فأصبح نشيطا طيب النفس، وإلاّ أصبح كسلانا خبيث النفس. وفى الخبر أن الرجل إذا نام حتى يصبح، بَالَ

الشيطان فى أذنه، وقد روينا فى الخبر الآخر أن للشيطان سعوطا ولعوقا ونروراً، فإذا أسعط العبد ساء خلقه، وإذا ألعقه ذَرِبَ لسانه بالشر، وإذا ذرّه نام بالليل حتى يصبح.

ويُستعان على قيام الليل بثلاث، أكل الحلال، والاستقامة على التوبة، وغم خوف الوعيد أو شوق رجاء الموعود. والذى يحرم العبد به قيام الليل أو يعاقب معه بطول الغفلة ثلاث، أكل الشبهات، أو إصرار على الذنب، وغلبة هَمّ الدنيا على القلب.

الفصل الخامس عشر

فى ذِكر وِرْد العبد من التسبيح والذكر والصلاة فى اليوم والليلة. وفضل صلاة الجماعة. وذكر أفضل الأوقات المرجو فيها الإجابة. وذكر صلاة التسبيح وما يستحب أن يكون شعاره

ليكن للعبد فى كل يوم وليلة ورد من التسبيح وأقل ذلك تسعمائة مرة من أنواع الأذكار التى وردت بها الأخبار، فليقل لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت وهو حى لا يموت، بيده الخير وهو على كل شىء قدير، مائة مرة، فإذا قال ذلك مائتى مرة لم يعمل أحد فى يومه أفضل من عمله، بأثرٍ فيه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وليقل سبحان اللّه والحمد للّه، ولا إله إلاّ اللّه واللّه أكبر، وتبارك اللّه، مائة مرة. وليقل اللّهم صلّ على محمد عبدك ونبيك، ورسولك النبى الأمى، مائة مرة. وليقل أستغفر اللّه الحى القيوم وأسأله التوبة مائة مرة. وليقل سبحان اللّه العظيم وبحمده مائة مرة. وليقل لا إله إلاّ اللّه الملك الحق المبين ، مائة مرة. وليقل ما شاء اللّه، لا قوة إلاّ باللّه، مائة مرة. يقول هذا فى كل يوم وفى كل ليلة، فإنْ رُزِقَ مزيدا عليه فهو فضل، وإلاّ كان هذا معلومه. وقد كان فى الصحابة مَنْ وِرْدُه فى كل يوم اثنا عشر ألف تسبيحة، وكان من التابعين من ورده كل يوم ثلاثون ألفا. وحدّثونا عن إبراهيم بن أدهم عن بعض الأبدال أنه قام ذات ليلة يصلى على شاطىء البحر، فسمع صوتا عاليا بالتسبيح ولم ير أحدا، فقال من أنت، أسمعُ صوتك ولا أرى شخصك، فقال أنا مَلَكٌ من الملائكة موكلٌ بهذا البحر، أسبح اللّه عز وجل هذا التسبيح منذ خُلِقْت، قلت فما اسمك، قال مهيهيائيل، قلت فما ثواب من قاله، قال من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يُرى له، وهو هذا التسبيح: سبحان الله العلى الديّان. سبحان الله شديد الأركان. سبحان من يذهب بالليل ويأتى بالنهار. سبحان الذى لايشغله شان عن شان. سبحان الله الحنّان المنان. سبحان الله المسبّح فى كل مكان.

وإن كان للعبد من الصلاة أوراد معلومة فحسن قد فعل - وكان من التابعين من ورده في كل يوم ثلثمائة ركعة وأربعمائة ركعة. وكان منهم من ورده ستمائة ركعة إلى ألف ركعة. وأقل ما نقل عنه من الأوراد مائة ركعة في اليوم. وكان كرز بن وبرة مقيما بمكة، وكان يطوف في كل يوم سبعين أسبوعا، وفي كل ليلة سبعين أسبوعا. قال فَحَسَبْنا ذلك فكان عشرة فراسخ، فلهذه الأسابيع مائتان وثمانون ركعة. قال وكان يختم مع ذلك القرآن في اليوم والليلة مرتين. وقال هشام بن عروة كان أبي يواظب على ورده من التسبيح كما يواظب على جزئه من القرآن. وروى عنه أيضا كان يواظب على جزئه من الدعاء كما يواظب على جزئه من القرآن.

ولا يدع العبد أن يسبح أدبار الصلوات الخمس مائة تسبيحة عند كل صلاة مكتوبة، وكذلك عند النوم مائة. وليواظب على أن يقول إذا أصبح وإذا أمسى ماجاء في تفسير قوله عز وجل له مقاليد السموات والأرض، فإن لذلك ثوابا عظيما. وروينا عن عثمان رضي الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن تفسير هذه الآية، له مقاليد السموات والأرض، فقال لقد سألتني عن شئ ما سألني عنه أحد قبلك، هو لا إله إلا الله والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، ولا حول ولا قوة إلا بالله، واستغفر الله الأول والآخر، والظاهر والباطن، له الملك وله الحمد، بيده الخير وهو على كل شئ قدير. مَنْ قالها عشراً حين يصبح وحين يمسى أُعْطَى بها ست خصال، فأول خصلة يُحْرَس من إبليس وجنوده، والثانية يُعْطَى قنطارا من الأجر، والثالثة يُرْفَع له درجة في الجنة، والرابعة يُزَوّجه الله عز وجل من الحور العين، والخامسة يحضرها اثنا عشر ملكا، والسادسة يكون له من الأجر كمن حج واعتمر. وقد روينا في تفسيرها قولا آخر من رواية أخرى، واتصل به ذِكْر كنز أهل الجنة ما هو، فإن ضم هذا إليه فقد جمع الروايتين واستوعب الفضيلتين. رواه عبد الرحمن ابن أبي ليلى عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم مسائل فأجابه عنها، فقال مامقاليد السموات والأرض، فقال: أن يقول العبد لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأما كنز أهل الجنة فيقول سبحان من في السماء عرشه، سبحان من في السماء موضع أثره، سبحان من سبقت رحمته غضبه، سبحان من لاملجأ ولا مهرب إلا إليه. ياعثمان من قالها كل يوم عشر مرات كُتِبَ له بها ست خصال، وينجيه الله من إبليس وجنوده، وإن مات مات شهيدا، وبُنِي له قصراً في الجنة، وكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وكأنما اشترى ثمانية من ولد إسمعيل وأعتقهم. ولايدع قراءة هذه الآيات الست عند كل صلاة يصليّها فريضة أو تطوع، ففي ذلك ثواب عظيم سبحان ربك رب العزة عما

يصفون، إلى آخر السورة، وقوله فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، إلى قوله وكذلك تخرجون. واستغفر للمؤمنين والمؤمنات فى كل يوم خمسين مرة، خمسا وعشرين إذا أصبح، وخمسا وعشرين إذا أمسى، فإنه يُكْتَب من الأبدال بأثر فى ذلك رويناه من ذلك، ولفظ الاستغفار الذى جاء فى الخبر أنْ يقول: أللّهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، حيّهم وميتهم، وشاهدهم وغائبهم، قريبهم وبعيدهم، إنك تعلم متقلبهم ومثواهم ـ وليقل هذا الاستغفار فى تشهده أيضا، فقد جاء ذلك، وليقل فى كل عشر مرات أللّهم أصلح أمة محمد، أللّهم ارحم أمة محمد، أللّهم فرّج عن أمة محمد صلّى الله عليه وسلم. يقال من قاله فى كل كُتِبَ له ثواب بدل من الأبدال. وليقل إذا أصبح ثلاثا وإذا أمسى ثلاثا، أللّهم أنت خلقتنى وأنت هديتنى، وأنت تطعمنى وأنت تسقينى، وأنت تميتنى وأنت تحيينى، أنت ربى لارب لى سواك، ولا إله إلاّ أنت وحدك لا شريك لك ـ فإن فى ذلك شكر نعمة يومه. ولا يدع أن يقول كلما استيقظ من نومه، وكلما أراد المنام، هذه الكلمات ـ بسم الله ماشاء الله، لا قوة إلا بالله ماشاء الله، كل نعمة من الله ماشاء الله، الخير كله بيد الله ماشاء الله، لايصرف السوء إلا الله ـ ففى هذا عصمة من الله عز وجل وحرز له من الشيطان. وقد جاء فى الخبر من قالهن مائة مرة يوم عرفة قبل غروب الشمس ناداه الله عز وجل من فوق عرشه ـ قد أرضيتنى وعلىّ رضاك، سلنى ماشئت أُعطك ـ ولا يدع أن يقول كل غداة وكل عشية ـ فإن تَوَلَّوْا فقل حسبُى الله، لا إله إلاّ هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم، سبع مرات، وكذلك يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار سبعا. وكلما سمع الأذان قال كما يقول المؤذن، فإذا فرغ فليقل رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلّى الله عليه وسلم نبيا، أللّهم بهذه الدعوة التامة والكلمة الصادقة والصلاة القائمة تصلّ على محمد وآله واعطه الوسيلة والفضيلة، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته ـ فإن كان الأذان لصلاة الصبح أو لصلاة المغرب زاد فى ذلك ـ أللّهم هذا إدبار ليلك وإقبال نهارك، وأصوات دعاتك وحضور صلاتك وشهود ملائكتك، صلّ على محمد وآله ـ ثم ليدعُ بما أحب وليغتنم الصلاة والدعاء بين الأذان والإقامة فإنه يُستَحب، ولتكن هذه الكلمة هجيره وشعاره فى الأوقات فإنها من دعاء الأبدال فيما بينهم، وشعارهم فى أوقاتهم ـ ماشاء الله، ولا قوّة إلاّ بالله العفو الغفور، ياسلام سلّم يارب، يارب، ياذا الجلال والإكرام، افتح بخير واختم بخير، فلا إله إلاّ الله الحّى القيوم، سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا، يارب يارب يا الله يا الله، ياعزيز يا عزيز، ياقريب ياقريب، ياحليم ياستّار، سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا، يا الله يا الله، ياعزيز يا عزيز،

يا قريب يا قريب، ياكريم ياغفار، ياواسع المغفرة اغفر لى، عافنا واعف عنا، نسألك العفو والعافية ياغيّاث المستغيثين ـ وفى جميع ماذكرنا فضائل وردت بها الآثار عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وطوينا نشر ذلك إذلم يكن قصدنا ذكر فضائل الأعمال وإنما أردنا شرح أوراد العمّال.

ولايدع السواك كلما استيقظ من نوم النهار وبالليل، فإنه يقال من خير خصال الصائم إلاّ بعد العصر فقد كره للصائم. وفى الخبر طيّبوا طرق القرآن من أفواهكم بالسواك. وفى الحديث السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب عز وجل. ويقال إن الصلاة بعد السواك تفضُل على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفا. وأوكد ما استعمل فيه السواك أربعة أوقات ـ قبل الزوال للصائم، ويوم الجمعة مع الغُسل لها، وفى قيام الليل، وبالغداة عند الاستيقاظ من النوم.

وقد كانوا يستحبون أن لا يأتى علّى العبد يوم وليلة إلاّ تصدّق فيه بصدقة وان قَلّ مثل لقمة أو تمرة، حتى كان بعضهم يتصدّق ببصلة وبخيط، لأنه جاء فى الأثر ـ كل امرئ يوم القيامة فى ظل صدقته، والله سبحانه يشكر القليل الدائم وهو أحب إليه من الكثير المنقطع. ألم تركيف ذمّ من أعطى وقطع فى قوله تعالى وأعطى قليلا وأكدى، أى قطع. ومدح فواكه الجنة يعيب بذلك فواكه الدنيا فى تدبر الخطاب فقال ـ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولاممنوعة، أى فازهدوا من فواكة الدنيا فإنها مقطوعة ممنوعة رغبةً فى هذه الدائمة. وكان من أخلاف السلف أن لايردوا سائلا إلاّ بشئ وإنْ قل، لقول رسول الله صلّى الله عليه وسلم ـ اتقوا النار ولو بشق تمرة، ولقوله صلّى الله عليه وسلم ـ للسائل حق ولو جاء على فرس مطوّق بفضة، ولقوله صلى الله عليه وسلم ـ لا ترد السائل ولو بظِلف محترق. ودفعت عائشة رضى الله عنها إلى السائل عنبة واحدة، قال فنظر بعضنا إلى بعض فقالت ـ مالكم إنّ فيها لمثاقيل ذرة كثيرة.

وقد كان من أخلاقهم أن لايسأل أحد شيئا أو يراد بأمر مباح فيقول لا، لكراهتهم الخلاف ومحبتهم الائتلاف. وكان ذلك من أخلاق رسول الله صلّى الله عليه وسلم، ماسئل شيئاً قط فقال لا، فإن لم يقدر عليه سكت. وقد كانوا يجتمعون على الأمر الواحد بقلب واحد ولا يستبد بعضهم بأمر دون بعض، ولا يستأثر أحدهم بشئ دون أخيه، بذلك وصفهم الله عز وجل فى قوله تعالى ـ وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون، أى أمورهم مشاعة فيما بينهم غير مقسومة، هم فيها سواء.

ويُستحب للعبد أن يجمع بين هذه الأعمال الأربعة - صوم وصدقة وعيادة مريض وشهود جنازة، وقد كان هذا طريق المريدين يسارعون إليه ويحرصون عليه، وفي الخبر من جمع بين هذه الأربع في يوم غُفِرَ له، وفي بعضها دخل الجنة، فإنْ اتفق له منها ثلاث أو اثنان فأعجزه مابقي حُسِبَ له تمامها لحسن نيته، ولا يدعنَّ الجماعة سيما إذا سمع التأذين أو كان في جوار المسجد، وحد الجوار أن يكون بينه وبين المسجد ثلاث دور، وأولى المساجد أن يصلى فيه أقربها منه، إلاّ أن يكون له نية في الأبعد لكثرة الخطا أو لفضل الإمام فيه والصلاة خلف العالم الفاضل، أو يريد أن يعمر بيتا من بيوت الله عز وجل بالصلاة فيه وإن بَعُد، وقال سعيد بن المسيب من صلّى الخمس في جماعة فقد ملأ البرّين والبحريْن عبادة، وليتوضأ لكل صلاة قبل دخول وقتها فإنه من المحافظة عليها ومن حسن معاملتها، وقال أبو الدرداء - وحلف بالله وما سمعته حالفا بالله قط - قال من أحب الأعمال إلى الله عز وجل ثلاث، أمرٌ بصدقة، وخطوة إلى صلاة جماعة، أو إصلاح بين الناس، ويستحب له كلما دخل المسجد أو منزله أن يصلى ركعتين فإن ذلك من عمل الأبرار، وكلما خرج منه صلّى ركعتين، وقد كان السلف لايخرجون من منازلهم حتى يتوضؤا، ويُستحب له كلما أحدث أن يتوضأ، وكلما توضأ أن يصلى ركعتين فإن ذلك من عمل الأبرار، وهو لمن مات على هذا العمل شهادة، وإذا خرج من منزله قال - بسم الله ماشاء الله، حسبى الله، توكلت على الله، لا قوة إلا بالله، اللّهم إليك خرجتُ وأنت أخرجتنى، اللّهم سلّمنى وسلّم منى فى دينى كما أخرجتنى، اللّهم إنى أعوذ بك أنْ أزل أو أضل، أو أظلم أو أُظلم، أو أجهل أو يُجهل علىّ، عز جارك وجلّ ثناؤك ولا إله غيرك - وليقرأ سورة الحمد والمعوذتيْن، ولا يدع صلاة الضحى أربع ركعات، ويزيد ماشاء الله إلى ثمان ركعات إلى اثنتى عشرة ركعة ولايزيد على ذلك، إنْ نشط أطالهُنّ، وإنْ فَتَرَ قَصرهن، وليجعل من قراءته فيهن - والشمس وضحاها، أو سورة والضحى وآخر سورة البقرة وآخر سورة الحشر، ثم ليتنفل بعد ذلك بما شاء من غير أن تكون ورد الضحى فيلزمه المواظبة عليه، وفي حديث عائشة رضى الله عنها أن النبى صلّى الله عليه وسلم كان يصلى الضحى أربعا ويزيد ما شاء الله، وفي خبر عن الله عز وجل - يا ابن آدم صلّ لى أربع ركعات فى أول النهار أكفك آخره، وفي حديث أم هانى بنت أبى طالب أن النبى صلّى الله عليه وسلم صلّى الضحى ثمان ركعات، وفي الخبر - يصبح ابن آدم وعلى كل سُلاَمَى من جسده صدقة، يعنى في كل مفصل، وفى جسده ثلاثمائة وستون مفصلا، فأمرُك بالمعروف صدقة، ونهيُك عن المنكر صدقة، وحملُك عن الضعيف صدقة، وهدايتك

إلى الطريق صدقة، وإماطتك الأذى صدقة، حتى ذكَر التسبيح والتهليل، ثم قال ـ وركعتا الضحى تأتى على ذلك كله، أو قال ـ تُجْمَعْن لك ذلك.

وقد كان من سيرة المتقدمين دخول المسجد سَحَراً قبل طلوع الفجر، والقعود فيه إلى صلاة الصبح، ويفضلون هذا الفعل. حدثونا عن رجل من التابعين قال دخلت المسجد قبل طلوع الفجر فألفيت أبا هريرة قد سبقنى، فقال يا ابن أخى لأى شئ خرجتَ من منزلك هذه الساعة، فقلت لصلاة الغداة، فقال أبشر فإنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأفضل الأوقات المرجو فيها الإجابة أربعة ـ عند السَحَر، وعند طلوع الشمس، وعند غروبها، وبين الأذان والإقامة. وأفضل أوقات الليل والنهار أوقات الصلاوات المكتوبات.

وإذا دعا الله سبحانه وتعالى فليدعه بمعانى أسمائه، فإنها صفاته وهو يحب ذلك، وإنما أظهرها ليعرف بها الداعى وليدعوبها، مثل أن يقول ياجبار اجبُر قلبى، ياغفار اغفر ذنبى، يارحمن أصلحنى، يارحيم ارحمنى، ياتواب تب على ياسلام سلّمنى. وأستحبُ أن يدعو الله عز وجل بأسمائهً التسعة والتسعين فى كل يوم وليلة مرة، فإنه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من أحصاها دخل الجنة، وهى متفرقة فى جميع القرآن، فمن دعا الله عز وجل بها موقنا كان كمن ختمه، فإن تعذر عليه حفظها فإنها منشورة على غير ترتيب، فليتطرق إليها من حروف المعجم فليذكر من كل حرف مافيه، كأن يبتدئ بالألف فينسق ماعليه من الأسماء، ثم بالباء ثم بالتاء فيقول يا الله يا أول يا آخر يا بارئ ياباطن ياتواب. وقد يتعذر عليه وجود بعضها فى بعض الحروف كفيرها، إلاّ أنها تخرج فى سائر الحروف المتيسرة بالأسماء الظاهرة، فإذا عدّ من الأحرف تسعة وتسعين اسما أجزأه لأنه يجد فى الحرف الواحد العشرة فأكثر، ودون ذلك فلا يضره إن لم يعرف فى بعض الحروف اسما إذا أحصى العدد فقد حصل له الفضل للأثر فى ذلك.

ذكر صلاة التسبيح

استحبُ للعبد أن يصلى صلاة التسبيح فى الجمعة مرتين، مرة نهاراً، ومرة ليلاً، وهى ثلثمائة تسبيحة فى أربع ركعات إن صلاّها نهاراً لم يفصل بينهن بتسليم، وإن صلاّها ليلاً سلّم فيها سلامين، فقد كان الصالحون يصلونها ويتعرفون بركتها ويتذاكرون فضلها، وقد روينا فيها روايتين، إحداهما حديث الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال للعباس بن عبد المطلب ـ ألا أعطيك، ألا أمنحك، ألا أحبوك بشيء، إذا أنت فعلته غفر الله لك ذنبك، أوله وآخره، قديمه وحديثه، وخطاه وعمده، سره وعلانيته، تصلى أربع ركعات، تقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغت من القراءة فى أول ركعة وأنت قائم قلت سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خمس عشرة مرة، ثم تركع فتقولها عشرا، ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشرا، ثم تسجد فتقولها عشرا، ثم ترفع من السجود فتقولها عشرا، ثم تسجد الثانية فتقولها عشرا، ثم ترفع من السجود ثم تجلس فتقولها عشرا، ثم تقوم، فذلك خمسة وسبعون فى كل ركعة، تفعل ذلك فى أربع ركعات، إنْ استطعت أن تصليها فى كل يوم مرة فافعل، فإن لم تفعل ففى كل جمعة مرة، فإن لم تفعل ففى كل شهر مرة، فإن لم تفعل ففى كل سنة مرة، وإن لم تفعل ففى عمرك مرة. حدثناه عن أبى داود السجستانى، فقال ليس فى صلاة التسبيح حديث أصح من هذا، فذكر فى هذه الرواية أنه يسبّح فى القيام خمس عشرة مرة بعد القراءة، وأنه يسبح عشرا بعد السجدة الثانية فى الركعة الأولى قبل القيام كأنه يجلس جلسة قبل أن ينهض، وفى الركعة الثانية أيضا كذلك قبل التشهد. وروينا فى الخبر الآخر أنه يفتتح الصلاة فيتوجه ويقول سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك وتعالى جَدُّك ولا إله غيرك، ثم يسبح خمس عشرة تسبيحة قبل القراءة، ثم يقرأ الحمد وسورة، ثم يسبح عشرا، ثم يركع فيكون له فى قيامه خمس وعشرون تسبيحة، ولا يسبّح بعد السجود فى الجلسة الأولى بين الركعتين ولا فى جلسة التشهد شيأً. كذلك روينا فى حديث عبد الله بن زياد بن سمعان عن معاوية بن عبد الله بن جعفر عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وسلم علّمه صلاة التسبيح قال فيها ـ يفتتح الصلاة مكبراً ثم يقول ـ فذكر الكلمات وزاد فيها ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم، وقال فيه يقول ذلك خمس عشرة مرة، ولم يذكر بعد السجدة الثانية عند القيام أن يقولها. وهذه الرواية أحب الوجهين إلىّ وهو اختيار عبد الله بن المبارك. حدثونا عن سهل بن عاصم عن ابن وهب قال سألت ابن المبارك عن الصلاة التى يسبّح فيها، فقال يقول سبحان الله والحمد لله الكلمات خمس عشرة مرة، ثم يتعوّذ ويقرأ فاتحة الكتاب وسورة، ثم يقولها عشرا ثم يركع، وذكرها قال فذلك خمس وسبعون، يصلى أربع ركعات على هذا، إنْ صلاّها ليلا فأحب أن يُسلّم فى الركعتين، وإن صلاّها نهارا صلاّها أربعا، وإنْ شاء سلّم، وإذا عدّ فى الركوع فليُعد بإصبعه على ركبتيه، وفى السجود بإصبعه على الأرض. وحدثونا عن محمد بن جابر قال قلت لابن المبارك فى صلاة التسبيح إذا رفعت رأسى للقيام من آخر السجدتين أسبّح قبل أن

أقوم، قال لا تلك القعدة ليست من سنّة الصلاة. وقال ابن أبى رزمة عن ابن المبارك قلت يقول سبحان ربى العظيم ثلاث مرات، سبحان ربى الأعلى ثلاث مرات، قال نعم، قلت فإنْ سَهَا يسبح فى السهو عشرا، قال لا، إنما هى ثلثمائة تسبيحة. وأحب أن تكون السورة التى يقرأها فى صلاة التسبيح مع الحمد فوق العشرين آية، فقد روينا فى حديث عبد الله بن جعفر الذى رواه اسماعيل بن رافع أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى السورة التى بعد أم القرآن عشرين آية فصاعدا، كذلك أحبُ زيادة - لا حول ولا قوة إلا بالله - لما ذكرناه فى الخبر الآخر، فإنْ قرأ مع فاتحة الكتاب فى كل ركعة عشر مرات - قل هو الله أحد - فقد ضاعف العدد واستكمل الأجر.

الفصل السادس عشر

فى ذكر معاملة العبد فى التلاوة ووصف التالين للقرآن حق تلاوته بقيام الشهادة

استحبُ للمريد أن يختم القرآن فى كل أسبوع ختمتين، ختمة بالنهار وختمة بالليل، ويجعل ختمة النهار يوم الاثنين فى ركعتى الفجر أو بعدهما، ويختم ختمة الليل ليلة الجُمعة فى ركعتى المغرب أو بعدهما، ليستقبل بختمته أول النهار وأوّل الليل، فإن الملائكة تصلى عليه إن كانت ختمته ليلا حتى يصبح، وتصلّى عليه إن كان ختمه نهارا حتى يُمسى، فهذان الوقتان يستوعبان كلية الليل والنهار. وفى الخبر لم يفقه من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمر أن يقرأ القرآن فى كل سبع. وكذلك جماعة من الصحابة يختمون القرآن فى كل جمعة. وروينا عن يحيى بن الحارث الدينارى عن القاسم بن عبد الرحمن قال وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وليلة السبت بالأنعام إلى هود وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الاثنين بطه إلى طسم موسى وفرعون، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى صاد، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن، ويختم ليلة الخميس. وكذلك كان زيد بن ثابت وأبى يختمان القرآن فى كل سبع. وروينا عن ابن مسعود أنه سبّع القرآن فى سبع ليال فكان يقرأ فى كل ليلة بسُبعه، إلاّ أن تأليفه على غير ترتيب مصحفنا هذا فلم يذكره لأن الاعتبار لا يتبين به، وجماعة يُذكر عنهم ختم القرآن فى كل يوم وليلة، وقد كَرِهت طائفة ختمه فى أقل من ثلاث، والتوسط من ذلك ماذكرناه وهو أن يختم فى كل ثلاثة أيام.

ذكر أحزاب القرآن وكيف حزّبه الصحابة رضى الله عنهم

إن قرأ العبد القرآن أحزابا، فى كل يوم وليلة حزبا، فحسن وهو سُنّة، وذلك أشد لمواطأة القلب وأقوم للترتيب وأدنى إلى الفهم، وإنْ أحّب قرأ فى كل ركعة ثُلث عُشر القرآن أونصف ذلك، يكون الجزء من الأجزاء الثلاثين فى كل ركعة أو ركعتين، فإن قرأ فى كل ورد حزباً أو حزبين أو دون ذلك فحسن.

وأحزاب القرآن سبعة، فالحزب الأول ثلاث سور، والحزب الثانى خمس سور، والحزب الثالث سبع سور، والرابع تسع سور، والخامس إحدى عشرة سورة، والسادس ثلاث عشرة سورة، والمفصل من ق، فهذه كانت أحزاب القرآن، ولذلك حزّبه الصحابة رضى الله عنهم أجمعين، وكانوا يقرؤنه كذلك. وفى خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكأنه حزّبه على عدد هذه الآى، إذ عددها ستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية، وقد اعتبرت ذلك فى كل حزب فرأيته يتقارب، وهذا قبل أن تعمل الأخماس والعواشر والأجزاء، فما سوى هذا محدث. ويقال إن الحجاج جمع قرّاء البصرة والكوفة، منهم عاصم الجحدرى ومطر الورّاق وشهاب بن شريفة فأمرهم بذلك. وقد كان الحسن وابن سيرين ينكران هذه الأخماس والعواشر والأجزاء. وروى عن الشعبى وإبراهيم كراهية النقط بالحمرة وأخذ الأجر على ذلك. وكانوا يقولون جرّدوا القرآن. وقال الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير كان القرآن مجرداً فى المصاحف، فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء، وقالوا لابأس به فإنه نور له، ثم أحدثوا بعده نقطا كباراً عند منتهى الآى فقالوا لابأس به، يُعرف به رأس الآى، ثم أحدثوا بعد ذلك الخواتيم والفواتح وقالوا لابأس به لأنها علامة تُعرف بها.

واعلمِ أنه لايجدُ فهمَ القرآن الفهمَ الذى يكشف بمشاهدته ويظهر من الملكوت قَدْرَه، عبدٌ فيه إحدى هذه الخصال أدنى بدعة، أو مصرٌ على ذنب، أو عبدٌ فى قلبه كِبْر أو مقارب لهوى قد استكّن فى قلبه، أو محب للدنيا، أو عبدٌ غير متحقق بالإيمان أو ضعيف اليقين، ولا من هو واقف مع مقراه، ولا عبدٌ مهتم يتبع حروفه واختياره، ولا ناظر إلى قول مفسر، ساكن إلى علمه الظاهر، ولا راجع إلى معقوله، ولا قاض بمذاهب أهل العربية واللغة فى باطن الخطاب، وهؤلاء كلهم محجوبون بعقولهم مردودون إلى مايُقَدّر فى علومهم، موقوفون مع ماتقرر فى عقولهم، مزيدهم على مقدار علومهم وغرائز عقولهم. وهؤلاء مشركون بعقولهم وعلومهم عند الموحدين،

فهذا داخل فى الشرك الخفى الذى أخفى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء. قال محمد بن على بن سنانة إذ معقوله وعلمه عن عقل غير كامل، لأن العقل الكامل ماعَقَلَ عن الله عز وجل، وفهم حكمه وكلامه، ويعقل به كلامه. وقد قال الرسول صلوات الله عليه فى صفة كمال العقل ـ العاقل من عقل عن الله سبحانه وتعالى أمره ونهيه.

وفى الخبر أكثر منافقى أمتى قرّاؤها ـ فهذا نفاق الوقوف مع سوى الله تعالى والنظر إلى غيره، لا نفاق الشِرْك والإنكار لقدرة الله عز وجل، فهو لا ينتقل عن التوحيد ولكنه لاينتقل إلى مقام المزيد، فإذا كان العبد ملقيا السمع بين يدّى سميعه، مُصغيا إلى سر كلامه، شهيد القلب لمعانى صفات شهيده، ناظراً إلى قدرته، تاركاً لمعقوله ومعهود علمه، منبرئاً من حوله وقوته، معظماً للمتكلم، واقفاً على حضوره، مفتقراً إلى الفهم بحالٍ مستقيم وقلب سليم وصفاء يقين وقوة علم وتمكين، سمع فصل الخطاب وشهد علم غيب الجواب. وأفضل القراءة الترتيل، لأنه يجمع الأمر والندب، وفيه التدبر والتذكر.

وروى عن علىّ رضى الله عنه ـ لاخير في عبادة لافقه فيها، ولا فى قراءة لاتدبّر فيها. وعن ابن عباس لأنْ اقرأ البقرة وآل عمران، أرتلهما وأتدبرهما، أحب إلى من أن اقرأ القرآن كله هذرمةً. وروى عنه أيضاً لأنْ أقرأ إذا زلزلت والقارعة، أتدبرهما أحبّ إلىّ من أنْ أقرأ البقرة وآل عمران تهَذُّراً. وسئل مجاهد عن رجلين دخلا فى صلاة فكان قيامهما واحد إلاّ أن أحدهما قرأ البقرة والآخر قرأ القرآن كله، فقال هما فى الآخرة سواء، لأن قيامهما كان واحدا.

وأفضل الترتيل والتدبر فى القرآن ماكان فى صلاة. ويقال إن التفكر في الصلاة أفضل منه فى غير الصلاة لأنهما عملان، وهذا هو التفكر فى معانى التدبر، والفهم بخطاب الوعد والوعيد والزجر والأمر، تعظيماً للمتوعد وإجلالاً للآمر. وسئل النبى صلى الله عليه وسلم أى الصلاة أفضل، فقال طول القنوت. وروى فى خبر آخر مَنْ سجد لله عز وجل سجدة رفعه الله عز وجل بها درجة. وأنه قال لأبى فاطمة خادمه وقد سأله مرافقته فى الجنة فقال ـ أعنِّى بكثرة السجود. وروينا عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه أنه قال إنه كثرة السجود بالنهار، وإنه طول القيام بالليل. ويقال إن العبد يحشر عند الموت من قبره على هيئته فى صلاته من السكون والطمأنينة، وتكون راحته في الموقف على قدر راحته وتنعمه بالصلاة. وروينا معنى هذا عن أبى هريرة، وعلى هذا المعنى تأويل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال ـ أرحنا بالصلاة، أى

روّحنا إليها، نعّمنا بها، من الروْح والراحة إليها. ويقال أرحنا بالشئ أى روّحنا، وأرحنا منه أى أسقطه عنا وخفف عنا منه، ولم يقل أرِحْنا منها، كيف وقرة عينه فيها. وقال بعضهم إنى لأفتتح السورة فيوقفنى بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر وماقضيت منها وطرى. وقال سليمان بن أبى سليمان الدارانى أنه وعد ابن ثوبان أخاً له أن يفطر عنده فأبطأ عليه حتى طلع الفجر، فلقيه أخوه من الغد قال وعدتنى أن تفطر عندى فأخلفت، فقال لولا ميعادك ما أخبرتك بالذى حبسنى عنك، إنى لما صلّيت العتمة قلت أوتر قبل أن أجيئك لأنى لا آمن مايحدث من الموت، فلما كنت فى الدعاء من الوتر رُفِعتْ لى روضة خضراء فيها أنواع الزهر من الجنة، فمازلت أنظر إليها حتى أصبحت. وقال عز وجل كُتِبَ فى قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه، قيل القرآن قوّى إيمانهم بعلم القرآن، فالقرآن روح الإيمان، وتقويتهم استعمالهم به. وفى التفسير يايحيى خذ الكتاب بقوة، قيل بجد واجتهاد، ومثله خذوا ما آتيناكم بقوّة، قيل بعمل به، وقيل لبعضهم إذا قرأت القرآن تحدّث نفسك بشئ؟ فقال أوشئٌ أحبّ إلىّ من القرآن أُحدّث نفسى به؟ وهذه صفة قوى مكين.

ويقال إن فى القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيج ورياضا وخانات، فالميمات ميادين القرآن، والراآت بساتين القرآن، والحاآت مقاصيره، والمسبحات عرائس القرآن، والحواميم ديباج القرآن، والمفصّل رياضُه، والخانات ماسوى ذلك، فإذا جال المريد فى الميادين، وقطف من البساتين، ودخل المقاصير، وشهد العرائس، ولبس الديباج، وتنزّه فى الرياض، وسكن غرف الخانات، اقتطعه وأوقفه مايراه، وشغله الشاهد به عما سواه. وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة، وكان له صلى الله عليه وسلم فى كل ردة فَهْم، ومِنْ كل كلمة عِلْم، فينبغى أن يكون قلب التالى بوصف كل كلمة يتلوها مشاهداً لمعناها إلى مايفتح الله عز وجل له من المزيد عليها من مجاورتها، ومع مايفهم بها من غيرها ويشهد غيرها منها، فقد كان بعضهم يقول كل آية لا أتفهمها ولا يكون قلبى فيها لم أعُدّ لها ثوابا. وكان بعض السلف إذا قرأ السورة ولم يكن قلبه فيها أعادها ثانية، فإذا مرّ بتسبيح وتكبير سبّح وكبر، وإنْ مَرّ بدعاء واستغفار دعا واستغفر، وإنْ مَرّ بمخوف ومرجو استعاذ وسأل، فذلك معنى قوله عز وجل يتلونه حق تلاوته. وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلاوته، وعلى هذا المعنى ماروى فى الخبر مَنْ أراد أن يقرأ القرآن غَضّا كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد، أى على معنى تلاوته، لأنه كان يقرأ بقلب شهيد وسمع

عتيد وبصر حديد، فكان يتلو القرآن على معانى الكلام وعلى شهادة وصف المتكلم، الوعيد منه بالتحزين، والوعد بالتشويق، والوعظ بالتخويف، والإنذار بالتشديد، والتفسير بالترقيق، والتبشير بالتوفيق، لأنه كان عالما بصفات المتكلم، واجداً لذوق الكَلِم، فمثل هذا العبد أحسن الناس صوتا بالقرآن.

كما جاء في الخبر أحسن الناس صوتا بالقرآن من إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله، ومن هذا قيل إذا قرأتم القرآن فابكوا، وإنْ لم تبكوا فتباكوا، ومثل هذا أن القرآن نزل بحُزن، فإذا قرأتموه فتحازنوا، أى أن القرآن لِماَ فيه من التهديد والوعيد والوثائق والعهود يوجب البكاء والحزن، فإن لم تحزنوا وجْداً، ولم تبكوا نفْساً يقيناً فتباكوا وتحازنوا لفظاً لأجل التصديق والإقرار به، فندبهم إلى التحازن فى التلاوة والتباكى ليجتمع هَمّ العبد فى المتلو فيتدبر الكلام، عسى أن يكون قلبه بمعناه فيكون التباكى والتحزين سبباً لجمع هَمّه وفراغ قلبه، لأن المتباكى الصادق مجتمع الهَمّ فيما يبكيه، والحزين حاضر القلب مجموع الفكر مشغول عن سوى مُبكيه. من ذلك ماروينا عن ابن عباس إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه، فبكاء القلب حزنُه وخشيته، أى فإن لم تبكوا بكاء العلماء عن الفهم فتحزن قلوبكم على فقد البكاء، وليَخْشَ كيف لم يوجد فيكم وصف أهل العلم. وقد روينا فى غرائب التفسير من معنى قوله تعالى وإنّ من الحجارة لَمَا يتفجر منه الأنهار. قال هى العين الكثيرة البكاء، وإنّ منها لما يشقق فيخرج منه الماء، قال هى العين القليلة البكاء، وإنّ منها لمايهبط من خشية الله، قال هو بكاء القلب من غير دموع عين. وقال ثابت البنانى رأيت فى النوم كأنى أقرأ على رسول الله صلّى الله عليه وسلم القرآن، فلما فرغت قال هذه القراءة فأين البكاء. وكان الحسن يقول والله ما أصبح اليوم عبدٌ يتلو هذا القرآن يؤمن به إلاّ كَثُر حزنه وقلّ فرحه، وكثر بكاؤه وقل ضحكه، وكبر نَصَبُه وشُغله، وقلّت راحته وبطالته.

والناس فى التلاوة على ثلاث مقامات، أعلاهم من شهد أوصاف المتكلم فى كلامه، ويعرف أخلاقه بمعانى خطابه، وهذا مقام العارفين من المقرّبين، ومنهم من يشهد ربه تعالى يناجيه بإلطافه ويخاطبه بإنعامه وإحسانه، فمقام هذا الحياء والتعظيم، وحاله الإصغاء والفهم، وهذا للأبرار من أصحاب اليمين، ومنهم من يرى أنه يناجى ربه عز وجل، فمقامه السؤال والتملق، وحاله الطلب والتعلق، وهذا للمعترفين والمريدين، وهم من خصوص أصحاب اليمين. وينبغى للعبد

أن يشهد فى التلاوة أن مولاه يخاطبه بالكلام، لأنه سبحانه متكلم بكلام نفسه وليس للعبد فى كلامه كلام، وإنما جعل له حركة اللسان بوصفه، وتيسير الذِكْر بلسانه، بحكم ربه عز وجل، حداً للعبد ومكاناً له، كما كانت الشجرة وجهة لموسى عليه السلام وكلّمه الله عز وجل منها.

ويقال إن كل حرف من كلام الله عز وجل فى اللوح المحفوظ أعظم من جبل قاف، وأن الملائكة لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يتلوه ما أطاقوه حتى يأتى إسرافيل، وهو ملك اللوح المحفوظ، فيرفعه فيقله بإذن الله عز وجل ورحمته، إذ كان الله تعالى أطاقه ذلك لما استعمله به. وقال جعفر بن محمد الصادق والله لقد تجلّى الله عز وجل لخلقه فى كلامه ولكن لايبصرون. وقال أيضا وقد سألوه عن شئ لَحِقَه فى الصلاة حتى خَرّ مغشياً عليه، فلما سُرِىَ عنه قيل له فى ذلك، فقال مازلت أردد الآية على قلبى حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمى لمعاينة قُدرته تعالى. وكذلك الخصوص يرددون الآية بقلوبهم على قلوبهم، ويتحققون بها فى مشاهدتهم بمَدَدٍ من شهيدهم وسيدهم، حتى يستغرقهم الفهم فيغرقون فى بحر العلم، فإن قَصُرت مشاهدة التالى عن هذا المقام فيشهد أنه يناجيه بكلامه، ويتملقه بمناجاته، فإن الله عز وجل إنما خاطبه بلسانه وكلّمه بحركته وصوته، ليفهم عنه بعلمه الذى جُعِلَ له، ويعقل عنه بفهمه الذى قُسِمَ له، حكمةً منه ورحمة، إذ لوتكلم الجبّار عز وجل بوصفه الذى يدركه سمعه لما ثبت للكلام عرش ولاثرىً، ولتلاشى مابينهما من عظمة سلطانه وسبحات أنواره، فحجب ذلك فى غيب علمه عن العقول، وستر بصنع قدرته عن القلوب، وأظهر للقلوب علوم عقولها، وأشهد للعقول عُرف معقولها بلطفه وحنانه ورحمته وإحسانه.

وبلغنا فى الأخبار السالفة أن ولياًمن أولياء الله عز وجل من الصدّيقين ابتعثه فى الفترة إلى ملك من الجبابرة يدعوه إلى التوحيد وإلى شريعة الأنبياء، فسأله الملك عن أشياء من معانى التوحيد، فجعل الصدّيق يجيبه عنها بما يقرب من فهمه ويدركه عقله، من ضروب الأمثال بما يستعمله الناس بينهم ويتعارفونه عندهم، إلى أن قال له الملك أفرأيت مايأتى به الأنبياء إذا ادّعيت أنه ليس بكلام الناس ولا رأيهم، أمِنْ كلام الله هو؟ قال الحكيم نعم. قال الملك فكيف يطيق الناس حَمْلَه؟ قال الصدّيق إنا رأينا الناس لَمّا أرادوا أن يُفهموا بعض الدواب والطير مايريدون من تقديمها وتأخيرها وإقبالها وإدبارها، لم يجدوا الدواب والطير تحمل كلامهم، فوضعوا لها من النقر والصفير والزجر ما عرفوا أنها تطيق حمله، فكذلك الناس يعجزون أن

يحملوا كلام الله ككُنهه، بكماله وصفته، فصاروا بما تراجعوا بينهم من الأصوات التى سمعوا بها الحكمة، كصوت الزجر والنقر الذى سمعت به الدواب من الناس، ولم يمنع ذلك معانى الحكمة المخبوأة فى تلك الأصوات من أنْ شَرُف الكلام بشرفها وعَظُم بتعظيمها، فكان الصوت للحكمة جسداً ومسكناً، والحكمة للصوت نفْسا وروحا، فكما أن أجساد البشر تُكْرَم وتعز لمكان الروح التى فيها، كذلك أصوات الكلام تُشَرّف وتُكْرَم للحكمة التى فيها، والكلام على المنزلة رفيع الدرجة قاهر السلطان نافذ الحكم فى الحق والباطل، وهو القاضى العادل والشاهد المرتَضَى، يأمر وينهى، ولا طاقة للباطل أن يقوم قدّام كلام الحكمة، كمالا يستطيع الظل أن يقوم قدّام شعاع الشمس، ولا طاقة للبشر أن ينفذوا غور الحكمة، كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس، ولكنهم ينالون من شعاع الشمس ما تحيا به أبصارهم ويستدلون به على حوائجهم، فالكلام للملك المحجوب، الغائب وجهه، الشاهد أمره، كالشمس الغزيرة الظاهرة، مكنونٌ عنصرها، وكالنجوم الزاهرة التى قد يهتدى بها من لا يقع على سرّها، فالكلام أعظم وأشرف من ذلك هو مفتاح الخزائن النفسية، وباب المنازل العالية، ومراقى الدرجات الشريفة، وشراب الحياة الذى مَنْ شرب منه لم يمت، ودواء الأسقام التى من سُقى منه لم يسقم، إذا لبسه لم يتسلّح به أبدى عورته، وإذا تسلّح به غير أهله لم يخرج إلاّ منهم. وقد نقلت هذا نقلاً من كلام الصدّيق الحكيم الذى خاطب به الملك فاستجاب له بإذن الله عز وجل، فهذا وصف كلام الله عز وجل الذى جعله الله لنا آية وعبرة، ونعمة علينا ورحمة، فانظر إلى الحكيم كيف جعل عقول البشر فى فهم كلام الله العظيم بمنزلة فهم البهائم والطير بالنقر والصفير إلى عقول البشر، وجعل النقر والصفير والإفهام من الناس للأنعام والهوام، مثلاً لما أفهم الله تعالى به الأنام من معانى كلامه الجليل، بما أُلهم به من الكلام. إن ربى لطيف لما يشاء، إنه هو العليم الحكيم، فهذه قدرة لطيفة من قدرته التى لا تتناهى، وحكمة محكمة من حِكَمه التى لا تُضاهَى، إنه حكيم عليم.

ثم ليشهد العبد أنه مقصود بجميع القرآن الكريم من فاتحته إلى خاتمته، مرادٌ مَعْنىٌ به، له ضُرِبَت الأمثال به، وفيه جميع ذِكْره وأوصافه، لأن اللّه سبحانه وتعالى لما تكلّم بهذا الكلام وخاطب به المؤمنين كان هو واجدهم، وكان حاضراً معهم، وقد سوّى اللّه عز وجل بين المؤمنين فى تنزيل القرآن عليهم وبين النبى صلى اللّه عليه وسلم بمعنى من المعانى، فقال واذكروا نعمة اللّه عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يَعِظُكم به، كما قال لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه

ذكركم، وكذلك قال وأنزلنا إليك الذِكْر لتبيّن للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون، وقال كذلك يضرب الله للناس أمثالهم، يعنى صفاتهم، وقال ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات، كما قال ولقد أنزلنا إليك آيات بينات، وقال عز وجل واتّبِعْ ما يُوحى إليك واصبرْ، ثم قال اتّبعوا ما أُنزل إليكم من ربكم، وقال فاستقم كما أُمرت ومن تاب معك، غير أنه سبحانه عَم الجملة بالبصائر والبيان، وخص بالهدى والرحمة أولى التقى والإيمان، فمن ذلك قوله عز وجل هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين، فالموقنون هم المتقون، والمهديون هو المرحومون.

وقد أُمرنا بطلب فهم القرآن كما أُمرنا بتلاوته. وروينا عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال أقرؤا القرآن والتمسوا غرائبه، وقال ابن مسعود من أراد علم الأولين والآخرين فَلْيثوّر القرآن، ومن حديث علىّ رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم والذى بعثنى بالحق نبياً لتفترق أمتى على أصل دينها وجماعتها على اثنين وسبعين فرقة، كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار، فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله عز وجل فإن فيه نبأ ما كان قبلكم، ونبأ ما يأتى بعدكم، وحُكم ما بينكم، وبيّن مَنْ خالفه من الجبابرة قَصَمه الله، ومن ابتغى العلم من غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين ونوره المبين وشفاؤه النافع، عصمةٌ لمن تمسّك به، ونجاةٌ لمن اتّبعه، لا يعوج فيقام، ولا يزيغ فيستقيم، ولا تنقضى عجائبه، ولا يخلقه كثرة الرد، هو الذى سمعته الجن فلما قضى ولّوا الى قومهم منذرين، فقالوا يا قومنا إنّا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد، من قال به صدَق، ومن عمل به أُجر، ومن تمسك به هُدِىَ إلى صراط مستقيم. وروينا معناه فى حديث حذيفة لما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاختلاف والفرقة بعده، قال فقلت يا رسول الله فما تأمرنى إنْ أدركت ذاك، فقال تعلّم كتاب الله عز وجل واعمل بما فيه، فهو المخرج من ذلك. قال فأعدت عليه فقال تعلّم كتاب الله واعمل بما فيه ففيه النجاة ثلاثاً. وعن علىّ رضى الله عنه قال ما أسرّ إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم شيأ كتمه الناس إلاّ أن يؤتى الله عبدا فهما فى كتابه. وعنه رضى الله عنه أنه قال ومن فهم فسّر جُمَل العلم. وعن ابن عباس رضى الله عنهما وغيره فى قوله عز وجل ومَنْ يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا، قال الفهم فى كتاب الله عز وجل. وقال أحسن القائلين ففهمّناها سليمان وكلاً آتيناحُكماً وعلما، فرفَع الفهم مقاما فوق الحُكم والعلم، وأضافه إليه للتخصيص، وجعله مقاما عاما فيهما، فإذا فهم العبد الكلام وعامل به المولى تحقّق بما يقول، وكان من أصحابه ولم يكن حاكيا لقائله، مثل أن يتلو منه إنى أخاف

إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم، ومثل أن يقول عليك توكلنا وإليك أنبنا، ومثل قوله ولنصبرنّ على ما آذيتمونا، فيكون هو الخائف لليوم العظيم، ويكون هو المتوكل المنيب، وهو الصابر على الأذى متوكل على المولى، ولا يكون مخبرا عن قائل قاله، فلا يجد حلاوة ذلك ولا ميراثه، فإذا كان هو كذلك وجد حلاوة التلاوة وتحقق جزء الولاية، وكذلك إذا تلا الآى المذموم أهلها الممقوت فاعلها، مثل قوله تعالى وهم فى غفلة معرضون، وقوله فأعرض عمّن تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا، ومثل قوله عز وجل ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون، فما أقبح من يعيب ذلك وهو من أهله، وما أعظم أن يذم أهل ذلك وهو بوصفه، فهذا من حجج القرآن عليه، فلا يجد مع ذلك حلاوة المناجاة ولا يسمع خطاب المناجى، لأن وصفه المذموم قد حجبه، وهواه المردى عن حقيقة الفهم قد حرمه، ولأن قسوة قلبه عن الفهم صرفه وكذّبه فى حاله عن البيان وأخرسه، فإذا كان هو المتيقظ المقبل فهو التائب الصادق، سمع فصل الخطاب ونظر إلى الداعى وله استجاب، وقد اشترط اللّه عز وجل للإنابة التبصرة وحضور القلب للتذكرة، فقال عز وجل تبصرةً وذكرى لكل عبدٍ منيب، وقال وما يتذكر إلاّ من ينيب، وقال عز وجل إنما يتذكر أولوا الألباب الذين يوفون بعهد اللّه ولا ينقضون الميثاق، فالاستقامة على التوبة من الوفاء بالعهد، وتعدى الحدود من نقض الميثاق وقلة الصدق، والإنابة هى التوبة والإقبال على اللّه عز وجل، والألباب هى العقول الزاكية والقلوب الطاهرة. وينبغى للتالى الخائف الناصح لنفسه وللخلق، السليم القلب، إذا تلا آى الوعد والمدح ومحاسن الوصف ومقامات المقربين، أن لا يشهد نفسه هناك ولا يراها مكانا لذلك، بل يشهد للمؤمنين فيها وينظر إلى الصدّيقين منها سلامةً ونصحاً، فإذا تلا الآى الممقوت أهلها، المتهَدد عليها، المذموم وصفها من مقامات الغافلين وأحوال الخاطئين، شهد نفسه هناك وأنه هو المخاطب المقصود بذلك، خوفا منه وشفقا، فبهذه المشاهدة يرجو للخلق ويخاف على نفسه، ومن هذه الملاحظة يسلم قلبه للعباد ويمقت نفسه. وروينا عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أنه كان يقول اللّهم إنى استغفرك لظلمى وكفرى، قال فقلت يا أمير المؤمنين هذا الظلم فما بال الكفر، فتلا قوله إن الإنسان لظلوم كفّار، فإن قُلِبَ هذان المعنيان على عبد حتى يشهد نفسه فى المدح والوصف ويشهد غيره فى الذم والمقت، انقلب قلبه عن وجهة الصادقين، ونكب بقصده عن صراط الخائفين، فهلك وأهلك، لأن من شَهِد البُعْد فى القُرب لُطِف به بالخوف، ومن شهد القرب فى البعد مُكِر به فى الأمن.

وقال بعض العلماء كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة، حتى تلوته كأنى أسمعه من رسول

الله صلى الله عليه وسلم يتلوه على أصحابه، ثم رُفِعْتُ إلى مقام فوقه فكنت أتلوه كأنى أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جاء الله بمنزلة أخرى فأنا الآن أسمعه من المتكلم عز من قائل، فعندها وجدت له نعيما ولذة لا أصبر عنها. وقال عثمان رضى الله عنه أو حذيفة لو طهرت القلوبُ لم تشبع من قراءة القرآن. وقال ثابت البنانى كابدتُ القرآن عشرين سنة وتنعّمت به عشرين سنة. وقال بعض علمائنا لكل آية ستون ألف فهم وما بقى من فهمها أكثر. وعن علىّ رضى الله عنه لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب. وعن أبى سليمان الدارانى إنى لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال - وذكر خمس ليال - ولولا أنى أقطع الفكر فيها لما جاوزتها إلى غيرها. وروينا عن بعض السلف أنه بقى فى سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ منها. وحدثنا عن بعض العارفين قال لى فى كل جمعة ختمة، وفى كل شهر ختمة ، وفى كل سنة ختمة، ولى ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد، يعنى ختمة التفهم والمشاهدة. وكان هذا يقول أقمتُ نفسى فى العبودية مقام الأجراء فأنا أعمل مياومة ومجامعة ومشاهرة ومسانهة، وإنما حُجِبَ الخَلْق عن فهم كنه الكلام ومعرفة سر المراد لأنه حجبهم عن حقيقة كنه معرفته، وأنه أعطاهم من معرفة الكلام بقدر ما أعطاهم من معرفة المتكلم، إذ بمعانى كلامه تعرف معانى صفاته وأفعاله وأحكامه، ولأن معانى كلامه من معانى أوصافه وأخلاقه فلذلك جاء فيه السهل اللطيف، والشديد العسوف، والمرجو والمخوف، لأن من أوصافه الرحمة واللطف والانتقام والبطش، فلما لم يصلح أن يعرفوه كعلمه بنفسه لم يصلح أن يعلم كنه كلامه إلاّ هو، ويعرف كنه صفاته إلاّ هو، فأعلم الخلق لمعانى كلامه أعرفهم لمعانى الصفات، وأعرف العباد بمعانى الأوصاف والأخلاق وغوامض الأحكام أعرفهم بسرائر الخطاب ووجه الحروف ومعانى باطن الكلام، وأحقهم بذلك أخشاهم له، وأخشاهم له أقربهم منه، وأقربهم منه من خصّه بأثرته وشمله بعنايته، فقد جاء فى الخبر أحسن الناس صوتا بالقرآن من إذا قرأ رأيتَ أنه يخشى الله، ولا يخشاه حتى يعرفه، ولا يعرفه حتى يعامله، ولا يعامله حتى يقرّبه، ولا يقرّبه حتى يُعنى به وينظر إليه، فعندها يعرف سر الخطاب ويطّلع على باطن الكتاب، فإذا سجد العبد سجود القرآن فليدعُ فى سجدته بمعانى الآية من الخير، وليستعذ من معانى شرّها، فإن ذلك فِعْل العلماء بالقرآن، والله يحب ذلك، ولتلك المعانى أسجدهم له، مثل أن يقرأ قوله عز وجل خَرّوا سُجّداً وسبّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون، فيقول اللّهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك أو على أوليائك، ومثل هذا

قوله عز وجل ويخرّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ، فليقل اللّهم اجعلنى من الباكين إليك الخاشعين لك، وعلى هذه المعانى ونحوها . وليكن القرآن هو علمه وعمله وذكره ودعاؤه وهمّه وشُغله، فعنه يسأل، وعليه يُثاب، ومقامه منه، وذكره فيه، وأحواله فيه، مجموعٌ له ذلك كله فيه، فبكلامه عرفه العارفون، وبمخاطبته شهد أوصافه الموقنون، فعلومهم من كلامه، ومواجيدهم عن علومهم، ومشاهدتهم عن معانى أوصافه، وكلامهم عن مشاهدتهم، لأن ضروب الكلام عن اللّه هى معانى الصفات، فمنه كلام راضٍ، ومنه كلام غضبان، ومنه كلام منعم، وكلام منتقم، وكلام جبار متكبر، وحنّان متعطف، فإذا كان العبد من أهل العلم باللّه، والفهم عنه، والسمع من اللّه عز وجل والمشاهدة له، شهد ما غاب عن غيره وأبصر ما عمى عنه سواه، وقد قال سبحانه وتعالى فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون، وقال عز وجل فاعتبروا يا أولى الأبصار معناه فى الفهم أعبُروا إلىّ فقد أبصرتم، فالتاء قد تكون بمعنى تاء التفعل تدخل للتحقيق، والوصول بالوصف والمبالغة فى الفعل، فلمّا أعطاهم الأيدى والأبصار عبروا بقواهم إلى ما أبصروا ، ففروا إلى اللّه عز وجل من الخلْق حين ذكروه بما خلق، فخرجوا على معيار حُسن الابتلاء، ولم يُنقصهم البلاء شيأ، فكانوا كما أخبروا ، كالذى أمر فى قوله عز وجل – ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكّرون، ففروا إلى اللّه – ثم قال – ولا تجعلوا مع اللّه إلها آخر – فكانوا هم الموحدين المخلصين له، وكان هو المنفرد المستخلص لهم، ثم جاوزوا التذكر بالأشياء إليه، فذكروه عنده به، فحينئذ هربوا إليه منه حين هللوه به، فلم يتألهوا إلى ما سواه كما لم يعبدوا إلا إيّاه. وكذلك رأيتها فى مصحف عبد اللّه ففروا إلى اللّه منه، إنى لكم منه نذير مبين . وفى الخبر عن ابن مسعود وبعض الرواة برفعه، وقد روينا مسندا من طريق، وهم خصوص العارفين من المحبين والخالصين اطّلعوا على السر وأوقفوا على الخبر فكانوا مقربين شاهدين أن القرآن ظهراً وبطنا وحدّا ومطّلعا ، فنقول فظهره لأهل العربية، وباطنه لأهل اليقين، وَحَدّه لأهل الظاهر ، ومطّلعه لأهل الأشراف وهم العارفون المحبون والخائفون ، اطّلعوا على لطف المُطّلع بعد أن خافوا هول المَطّلع ، فأودعوا السر عند مقام أمين ، وأوُقفوا على الخبر فى حال مكين ، فكانوا لديه مقرّبين إذ كانوا به شاهدين. وقال النبى صلى اللّه عليه وسلم يرى الشاهد ما لا يرى الغائب، فمن حضر شهد، ومن شهد وجد، ومن وجد وَحّد، ومن وحّد عزّز، ومن غاب عمى، ومن عمى فقد، ومن فقد نسى، ومن نسى فقد نُسى. وقد قال اللّه عز وجل وكذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى، أى تركتها فلم تعبأ بها ولم تنظر إليها، وهكذا اليوم تُترك فلا يُنظر إليك برحمة ولا تُكَلم بلطف ولا تُزلَف بقُرب.

الفصل السابع عشر

فيه كتاب ذكر نوع من المفصّل والموّصل من الكلام، وفيه مدح العالمين وذمّ الغافلين عنه، وتفسير الغريب والمشكل من القرآن باختصار الأصول الدالة على المعنى

فأما ظاهر الكلام فعلى معنيين عجيبين وهو مجمل مختصر وموّصل مكرر، فإجماله واختصاره للبلاغة والإيجاز، قال الله تعالى إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين؛ ومكرره وتفصيله للإفهام والتذكار، قال الله تعالى ولقد وصّلنا لهم القول لعلهم يتذكّرون، وقال عز وجل فى المبهم المجمل والتوحيد المفصّل – الر، فهذه ثلاثة أسماء: الله لطيف رحيم، وقيل بل هى حروف من اسم وهو الرحمن. ثم أظهر السبب فقال : كتاب أُحكمت آياته، يعنى بالتوحيد، ثم فصلّت أى بالوعد والوعيد، ثم قال من لَدُنْ حكيم، أى للإحكام، خبير أى بالإحكام، خبير بالتفصيل للحلال والحرام – ألاّ تعبدوا إلاّ الله ، هذا هو التوحيد الذى أحكمه، إننى لكم منه نذير وبشير، هذا هو الوعد والوعيد الذى أعلمه. فمن المختصر للإيجاز قوله تعالى وآتينا ثمود الناقة مُبْصِرة فظلموا بها، ففى هذا مختصر ومحذوفان، فالمضمر قوله مبصرة، المعنى آية مبصرة، فأضمر، ومحذوفاه قوله فظلموا بها، المعنى ظلموا أنفسهم بالتكذيب بها، فاختصرت كلمتان من كلمتين للإيجاز، ومثله قوله وهى خاوية على عروشها، الخواء الخلاء، والعروش السقوف وهو جمع عرش، فكيف تكون خاوية من العروش والعروش موجودة فيها، فهذا من المختصر المحذوف، ومعناه وهى خاوية من ثمرها أو من أهلها واقعة على عروشها، ومثله قوله تعالى ولكن البِرّ مَنْ آمن بالله واليوم الآخر، حذف الفعل وأقيم الاسم مقامه، فالمعنى فيه ولكن البر مَنْ آمن بالله، وقد يكون من المبدل فيكون المحذوف هو اسم أبدل الفعل مكانه، ولكن البر من آمن بالله، فلما كان البر وصفه أقيم مكانه. وبمثل معنى الأوّل قوله عز وجل وأُشْرِبُوا فى قلوبهم العجل، أى حب العجل، ومن ذلك قوله عز وجل أَقَتَلْتَ نفسا زكية بغير نفس، ولم يذكر قتله، والمعنى بغير نفس قتلها، فحذف الفعل. ومثله أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض، أضمر قوله بغير نفس قتلها أو بغير فساد فى الأرض فاكتفى عنه بذكر غير الأولى. وكذلك قوله مَنْ فى السموات والأرض معناه ومن فى الأرض. وكذلك قوله فما يُكَذِّبُك بعدُ بالدين، هو متصل بقوله سبحانه لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم وفصل بينهما النعت والاستثناء، والمعنى فما يكذّبك بعد هذا

البيان أيها الإنسان بالديانة، فأى شيء يحملك على التكذيب بأن تدين الله تعالى وهو أحكم الحاكمين. ومن المبدل المضمر أيضا إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات، المعنى ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى، فأضمر ذكر العذاب وأبدل الأحياء والموتى بذكر الحياة، فأقام الوصف مقام الاسم. ويصلح أيضا أن يَترك الوصف على لفظه ويُضمِر أهل، فيكون ضعف عذاب أهل الحياة وضعف عذاب أهل الممات، كما أضمر أهل فى ذِكْر القرية وذِكْر العير فقال واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها، والمعنى واسأل أهل القرية واسأل أهل العير. ومن هذا المعنى قوله تعالى ثَقُلت فى السموات والأرض، هو من المبدل المضمر، فمبدله ثقلت ومعناه خفيت، أُبدل بدلالة المعنى عليه لأن الشيء إذا خفى علمه ثَقُل، وكذلك قوله فى السموات معناه على ومضمر أهل، والمعنى خفيت على أهل السموات وأهل الأرض لا تأتيكم إلاّ بغتة، يعنى فجأة. ومنه قوله عز وجل تفتؤ تذكر يوسف، فيه مضمر ومحذوف، فمحذوفه تزال، ومضمره لا التى هى جواب القسم، والمعنى قالوا تالله لا تزال تفتؤ تذكر يوسف فأُضمرتْ لا وأبدلتْ تزال بقوله تفتؤ، وهى من مختصر الكلام وفصيحه وبليغه، وهى لغه لبعض العرب.

وفى القرآن من كل لغة، ومن هذا قوله عز وجل وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون، وقوله سبحانه بدّلوا نعمة الله كفرا، معناه تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون، وكذلك بدّلوا شكر نعمة الله كفرا بها. ومثله وكأيِّن من قرية أهلكناها وكأيِّن من قرية أمليتُ لها، معناه أهل قرية مثل قوله واسأل العير المعنى أهل العير، والعير هى الإبل المجهولة، وهذا الذى يسميه النحويون المجاز. وهكذا قوله إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم، معناه للطريقة التى هى أقوم. ومثل هذا قوله عز وجل وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن، أى يقولوا الكلمة التى هى أحسن. ومثل هذا قوله إدفع بالتى هى أحسن السيئة، أى بالكلمة أو بالفعلة التى هى أحسن، ومثل قوله إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أى الكلمة الحسنى. والوجه الآخر أن الحسنى اسم لا نعت فمعناه الجنة، وهكذا قوله على مُلْك سليمان أى على عهد ملك سليمان، فأضمر قوله عهد. ومثل قوله وآتنا ما وعدتّنا على رُسُلك أى على ألسنة رُسُلك، فأضمر ألسنة.

ومن المُكنّى المضمر قوله تعالى وما أنسانيه إلاّ الشيطان، أضمر الحوت وذكره، واسم موسى للاختصار، والمعنى وما أنسانى ذِكْر الحوت لك إلاّ الشيطان. ومثله قوله إنا أنزلناه فى

ليلة القدر أى أنزلنا القرآن، فكنّى عنه ولم يتقدم له ذكر، وكذلك قوله حتى توارت بالحجاب يعنى توارت الشمس بحجاب الليل، فكنّى عنها ولم يُجْر لها ذكر، ومثله قوله عز وجل وما يُلَقّاها إلاّ الذين صبروا، أى الكلمة الطيبة أو الفعلة التى هى أحسن، وبمعناه قوله تعالى ولا يلقاها إلاّ الصابرون، يعنى كلمة الزهد فى الدنيا، ومقالة الترغيب والرغبة فى الآخرة عائد على قوله تعالى ويلكم ثواب الله خير، أى هذه المقالة.

ومن المبدل المختصر قوله عز وجل وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم، معناه حملته العزة على الإثم أى حمله التعزز والأنَفَة على الإثم ولم يبال، فأخذته بمعنى حملته، وبالإثم بمعنى على الإثم. ومن هذا قوله لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، أى لا تحمله سنة ولا نوم، لأن السنة تحمل العبد أى تذهب به عن التيقظ.

ومن المنقول المنقلب قوله عز وجل يدعو لمن ضَرُّه أقرب من نفعه، اللام فى لمن منقولة، والمعنى يدعو مَنْ لَضَرّه أقرب من نفعه، ومثله لتنوء بالعُصبة معناه لتنوء العصبة بها، أى لَتثقل بحملها لثقلها عليهم، ومثله قوله وطور سينين سلام على آل ياسين، وهو مما قلب اسمه لازدواج الكلم، المعنى طور سيناء، وسلام على الياسين قيل إدريس لأن فى حرف ابن مسعود سلام على إدريس، ونحوه جعلوا القرآن عضّين أى أعضاء، كأنهم عضّوه فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، وبمعناه وجعل منهم القردة والخنازير وعَبْد الطاغوت، المعنى وجعل منهم من عبد الطاغوت، ويصلح أن يكون معطوفا على قوله من لعنه الله وغضب عليه ومن عبد الطاغوت، ومن قرأ الطاغوت بالكسر فإنه يجعل عبد اسما وأضافه إلى الطاغوت، بمعنى وعبدة وعبّاد، وفيه خمس لغات أخرى : عِبَادُ الطاغوت وعُبُدُ الطاغوت وعَبَدةُ الطاغوت وعُبّاد الطاغوت وعَبْدُ الطاغوت، وأما عَبَدَ الطاغوت نصباً فهو بمعنى الفعل من العبادة.

ومن المضمر المختصر أيضا قوله عز وجل ألاَ إنّ عادا كفروا ربهم ، ضميره إحدى كلمتين، كفروا نعمة ربهم، وكفروا توحيد ربهم، فأضمر للاختصار، وانتصاب الاسم لسقوط الخافض، وفيها وجه غريب إلاَ إنه محمول على المعنى لأنهم غطوا ربهم التغطية، أى غطوا آياته وما دعا إليه من الحق، والمعنى كفرهم غطّى عليهم بما غطوا ربهم، هكذا حقيقةً فى التوحيد، إذ الأولية فى كل فعل منه وهم ثوان فيما بعد، فهو بمعنى قوله ولَلَبِسْنَا عليهم ما يلبسون، اللبس التغطية، ومنه قوله والذين اتخذوا من دون الله أولياء ما نعبدهم، مضمره يقولون ما نعبدهم، ومثله فظلتم

تفكهون إنّا لمغرمون أى يقولون إنّا لمغرمون، وعلى هذا المعنى وجه قوله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا، ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، المعنى فيه يقولون ما أصابك على معنى الإخبار عنهم والذّم لهم، فهلكت بذلك القَدَرية لجهلهم بعلم العربية، فظنوا أنه ابتداء شرع وبيان من الله عز وجل، وقد أحكم الله عز وجل ابتداء شرعه وبيانه بأوّل الآية فى قوله قل كل من عند الله، وقد كان ابن عباس يقول إذا اشتبه عليكم شىء فالتمسوه فى كلام العرب، فإن الرجل يتلو الآية فيعيا بوجهها فيكفره. وقرأتُها فى مصحف عبد الله بن مسعود فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا قالوا ما أصابك من حسنة، فهذا كما أنبأتُك. وقد رأيت فى مصحف عبد الله والذين اتخذوا من دونه أولياء قالوا مانعبدكم، فهذا من ذلك.

ومن المضمر قوله تعالى ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يَخْلُفُون، ليس أنه يجعل من البشر ملائكة ولكن معناه لجعلنا بدلاً منكم ملائكة، ويصلح لجعلنا بدلكم بمعنى منكم.

ومن المبدل له قوله عز وجل وهم لها سابقون، اللام بدل من الباء، والمعنى وهم بها سابقون لأنهم لو سبقوها لفاتتهم، وعلى هذا المعنى قال بعضهم إن قوله تعالى فلمّا تجلّى ربه للجبل، أى بالجبل، كان الجبل حجاباً لموسى فكشفه عنه فتجلّى به، كما قال من الشجرة أن يا موسى إننى أنا الله، فكانت الشجرة وجهة لموسى كلّمه الله عز وجل منها، ومثله ولأصلبنكم فى جذوع النخل معناه على جذوع، وكذلك فلا تجعلنى فى القوم الظالمين معناه أى مع القوم، وبمعناه أم لهم سُلّم يستمعون فيه أى عليه ويصلح به، وكذلك قوله مستكبرين به أى عنه، يعنى عن القرآن، فعلى هذا مجاز قوله تعالى فاسأل به خبيرا أى سل عنه، فحروف العوامل يقوم بعضها مقام بعض، ومثله قوله السماء منفطر به أى فيه، يعنى فى اليوم، ومثله لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا معناه ولا الذين ظلموا، فأُبدلت إلاّ بقوله ولا، ويجوز أن تكون إلاّ مستأنفة بمعنى لكن الذين ظلموا متصلة بخبرها من قوله فلا تخشوهم ، فهو بمعنى قوله لا يخاف لدىّ المرسلون إلاّ من ظلم، أى لكن من ظلم ثم بدل حُسْنا بعد سوء، فيكون مبتدأ لذكر خبرها بعد، وبمعناه قوله تعالى ولا تاكلوا أموالهم إلى أموالكم، أى مع أموالكم، وكذلك قوله وأيديكم إلى المرافق، أي مع المرافق لأنها داخله فى الغسل ، والحروف العوامل تنوب بعضها عن بعض. ولو أظهر مثل هذا المضمر ووصل مثل المحذوف لكانت القراءة ضعيفة.

ومن الموصول المكرّر للبيان والتوكيد قوله عز وجل وما يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاء، إنْ يتبعون إلا الظن، قوله إنْ يتبعون مردودة للتوكيد والإفهام، كأنه لمّا طال الكلام أعيد ليقرب من الفهم، والمعنى ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إلا الظن، أى أتباعهم الشركاء فإن منهم غير يقين. ونحوه من المكرر المؤكد قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استُضعِفوا لمن آمن منهم، اختصاره الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا، فلما قدّم الذين استضعفوا وكان المراد بعضهم كرر المراد بإعادة ذكر من آمن منهم للبيان. ومثله إلاّ آل لوط إنّا لمنجوهم أجمعين، إلاّ امرأته، فادخل الاستثناء على الاستثناء وهو يطول فى كلامهم، لأنه أراد بالنجاة بعض الآل، فلما أجْمَلَهم أخرج مستثنى من مستثنى ، وفى هذا دليل أن الأزواج من الآل لأنه استثنى امرأته من آله.

ومن المكرّر للتوكيد قوله تعالى فلما أراد أن يبطش ، مختصره فلما أراد يبطش ، وقد قيل إن هذا من المختصر المضمر، مما أضمر فيه الاسم وحذف منه الفعل وهو غريب، فيكون تقديره فلما أن أراد الإسرائيلى أن يبطش موسى بالذى هو عدوّ لهما فلم يفعل قال يا موسى أتريد أن تقتلنى، فهذا حينئذ من أخصر الكلام وأوجزه. ومن المكرّر والمؤكد قوله عز وجل فلينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم، كانوا هم أشدّ منهم قوّة، مفهومُه وجائزه فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوّة، فوصل بمن ووكّد فكان هم أشد ، وقراءتها فى مصحف ابن مسعود عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ قوّة، ليس فيها كانوا ولا قوله هم. وبمعناه وإنْ قَصُر قوله تعالى لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة، هذا مما طُوِّل للبيان، والمعنى لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن، فلمّا قدّم مَنْ وهى أسماء من يكفر أعيد ذكر البيان مؤخرا .

ومن المكنّى المبهم المشتبه قوله عز وجل ضرب الله مثلا عبداً مملوكا لا يقدر على شىء، الشىء فى هذا الموضع الإنفاق مما رزق الله، وقوله تعالى بعده وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء، فالشىء فى هذا الموضع الأمر بالعدل والاستقامة على الهدى.وكذلك قوله تعالى فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء، الشىء فى هذا الموضع وصف مخصوص من وصف الربوبية العلم الذى عَلِمَه الخضر عليه السلام من لدنه لا يصلح أن يسأل عنه حتى يبتدىء به، فلذلك كنّى عنه. وكذلك العلم على ضربين، ضرب لا يصلح أن يُبتدأ به حتى يُسئل

عنه وهو مما لا يضيق علمه، فلذلك وسع جهله وحسن كتمه، وعلم لا ينبغى أن يُسئل عنه من معنى صفات التوحيد ونعوت الوحدانية، لا يوكل إلى العقول بل يخُص بها المراد المحمول، فعلم الخضر الذى شرّط على موسى عليهما السلام أن لا يَسأل عنه حتى يبادئه به من هذا النوع، والله غالب على أمره. وقوله عز وجل أم خلقوا من غير شىء يعنى الله تعالى، أى كيف يكون خلق من غير خالق ، ففى وجودهم ثبوت خالق، فهم دلالة عليه أنه خلقهم. وروينا ذلك عن ابن عباس وعن زيد بن علىّ رضى الله عنهما قالا فى قوله عز وجل من غير شىء، أى من غير رب، كيف يكون خلق من غير خالق. وقوله عز وجل والله فضّل بعضكم على بعض فى الرزق فالبعض الأوّل المفضل فى الرزق هم الأحرار، والبعض الآخر المفضول هم المماليك. ومثله قوله تعالى وقال قرينه هذا ما لدى عتيد، قرينه هذا هو الملك الموكل بعلمه، أحضر ما عنده مما علمه من فعله . وقوله عز وجل قال قرينه ربنا ما أطغيته، قرينه هذا هو شيطانه المقرون به. ومثله قوله تعالى وإخوانهم يمدّونهم فى الغى ثم لا يقصرون، الهاء والميم المتصلة بإخوان أسماء الشياطين، والهاء والميم المتصلة بيمدون أسماء المشركين، أى الشياطين إخوان المشركين يمدّون المشركين فى الغى ولا يقصرون عنهم فى الإمداد . وبمعنى هذا قوله تعالى إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون، الهاء الأولى المتصلة بيتلون كناية عن إبليس، والهاء المتصلة بالباء من قوله هم به هى اسم الله عز وجل، وقد قيل أيضا إنها عائدة على إبليس أيضا فيكون المعنى هم به قد أشركوا فى التوحيد، أى أشركوه بعبادة الله عز وجل، ومثل هذا قوله عز وجل فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا ، الهاء الأولى كناية عن الحوافر وهنّ الموريات قدحا، يعنى الخيل تقدح بحوافرها فتورى النار، فأثرن به أى بالحوافر، النقع يعنى التراب، والهاء الثانية كناية عن الإغارة، فوسطن أى توسطن به بالإغارة وهنّ المغيرات صبحا ، وسطن جمع المشركين أغاروا عليهم بجمعهم والمشركون غارون. وبهذا المعنى قوله عز وجل فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات، الهاء الأولى عائدة على السحاب أى أنزلنا بالسحاب الماء، وفى قوله به مبدل ومكنّى، فالمكنى هو ما ذكرناه من أسماء السحاب، والمبدل أن به بمعنى منه. ومثل هذا قوله يشرب بها عباد الله أى منها ، وهو صريح قوله فى المفسر وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا يعنى السحاب، وهو قوله سقناه لبلد ميت. وقوله فى الهاء الثانية أخرجنا به من كل الثمرات يعنى بالماء، فجمع بين اسم السحاب والماء بالهاء فأشكل.

ومن البيان الثانى والثالث للخطاب المجمل قوله تعالى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن،

فلم يفهم منه إلا أن القرآن أنزل فى شهر رمضان، ولم يدر أنهاراً أنزل فيه أو ليلا، فقال فى البيان الثانى إنا أنزلناه فى ليلة مباركة، فلم يُفهم منه إلا أنه أنزل منه ليلا فى ليلة مباركة، ولم يدر أى ليلة هى فقال فى البيان الثالث إنا أنزلناه فى ليلة القدر فهذا غاية البيان. وبمعناه قوله تعالى ولما بلغ أشدّه واستوى آتيناه، فهذا البيان الأول زيادة على الأشد وهو الوصف إلا أنه غير مفسّر، ثم قال فى البيان الثانى حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة، ففسر الأشد بالأربعين إذا كانت الواو للمدح والوصف فى أحد الوجهين. ومن الموّحد ومعناه الجمع قوله تعالى والعصر إنّ الإنسان لفى خسر، معناه أن الناس لفى خسر، أى لفى خسران لقوله إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا يستثنى جماعة من واحد وإنما يستثنى جماعة من جماعة أكثر منهم ، وإنما وُحدّ الاسم للجنس. وكذلك قوله تعالى يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدْحاً، معناه يا أيها الناس إنكم كادحون، دلّ عليه قوله عز وجل فأمّا من أوتى كتابه بيمينه، وأمّا من أوتى كتابه وراء ظهره، وإنما وُحّد النعت لتوحيد الاسم. وكذلك قوله عز وجل وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا، معناه حملها الناس كلهم، وهذا أحب الوجهين إلىّ لقوله عز وجل عُقَيْبه ليُعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات. ومثل قوله عز وجل وإنّا إذا أذقنا الإنسان منّا رحمة فرِح بها، معناه وإنّا إذا أذقنا الناس منا رحمة فرحوا بها، فلمّا وحّد الاسم وحّد نعته، دل عليه قوله تعالى وإن تصبهم سيئة بما قدّمت أيديهم، فأظهر الجمع.

ومن الجمع المراد به الواحد قوله عز وجل كذّبت قوم نوح المرسلين، يعنى نوحا وحده لأنه لم يرسل إلى قوم نوح غيره، ودل عليه قوله تعالى إذ قال لهم أخوهم نوح فوّحد الجمع. ومثله فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ، يعنى بذلك النبى صلّى الله عليه وسلم وحده يوم خيبر.

ومن الجمع المكنّى قوله عز وجل لخَلْقُ السموات والأرض أكبر من خلق الناس، يعنى فى هذا الموضع الدّجال، ونزل ذلك فى ذكر الدّجال واستعظامهم لوصفه. وكذلك قوله تعالى الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم، يعنى رجلا واحدا قاله لهم وهو عروة بن مسعود الثقفى، فجمع لفظه لأجل جنسه ، والعرب تجمع الواحد للجنس . وكذلك قيل فى أحد الوجوه إن قوله عز وجل ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، يعنى آدم صلى الله عليه وسلم وحده، وهو أوّل من طاف بالبيت وأتاه جبريل وأشعر له المناسك. وقد قرأت فى بعض حروف السلف من حيث

أفاض آدم فهذا شاهد له.

ومن المقدم والمؤخر لحُسن تأليف الكلم ومزيد البيان والإظهار قوله عز وجل من كفر بالله من بعد إيمانه إلاّ مَنْ أُكْرِهَ وقلبه مطمئن بالإيمان، ولكن من شُرح بالكفر صدراً اختصاره، ومؤخره من كفر بالله بعد إيمانه وشُرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله إلاّ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ولكن وكّد بقوله ولكن من شرح بالكفر صدراً لمّا استثنى المكره وقلبه مطمئن بإيمانه، ولم يجعل المكره آخر الكلام لئلا يليه قوله فعليهم غضب من الله، فيتوهم أنه خبره وَجَعَل آخر الكلام فعليهم غضب من الله وهو في المعنى مقدم خبر الأول من قوله من كفر بالله من بعد إيمانه، فأخّر ليليه قوله تعالى ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، لأنه من وصْفهم فيكون هذا أحسن في تأليف الكلام وسياق المعنى. وكذلك قوله تعالى وقيله يارب إنّ هؤلاء قوم، هذا من المعطوف المضمر ومن المقدم المؤخر، فعاطفه قوله وعنده علم الساعة، وضميره قوله وعلم قيله، والمعنى وعنده علم الساعة وعلم قيلِه يارب، هذا على حرف من كَسَّر اللام، فأما من نصبها فإنه مقدم أيضا ومحمول على أن المعنى أي وعنده علم الساعة ويعلم قيلَه يارب، فأما من رفع اللام فقرأ وقيلُه فتكون مستأنفة على الخبر وجوابها الفاء فاصفح عنهم، أي قوله إن هؤلاء قوم لا يؤمنون فاصفح عنهم. وقد تكون الواو في قوله وقيلُه للجمع مضمومة إلى علم الساعة، والمعنى وعنده علم الساعة وعنده قيله يارب، جمع بينهما بعند، فهذا مجاز هذه المقاري الثلاث في العربية.

ومما حُمِلَ على المعنى قوله عز وجل فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً، ثم قال والشمس والقمر حُسبانا، فلو لم يحمل على المعنى لكانت والشمس والقمر خفضا اتباعا للفظ قوله فالِق وجاعل، ولكن معناه وجعل الشمس والقمر حسبانا، وهي على قراءة من قرأ وجعل الليل سكنا متبعة لجعل ظاهرا وبمعناه قوله تعالى وامسحوا برؤسكم وأرجلكم في قراءة من نصب اللام محمولا على معنى الغسل، من قوله عز وجل فاغسلوا وجوهكم وأرجلكم أيضا. ومن قرأ وأرجلكم خفضا حمله على اتباع الإعراب من قوله عز وجل برؤسكم وأرجلكم، فأتبع الإعراب بالإعراب قبله لأن مذهبه الغسل لا المسح. واختيارنا نصب اللام في المقروء على نصب الغسل واتباع الوجه واليدين، إلاّ أنه روى عن بن عباس وأنس بن مالك نزل القرآن بغسلين ومسحين، وسنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم غسل الأقدام فنحن نفعل كما فعل. وقوله عز وجل ولولا

كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى، من المقدم والمؤخر، فالمعنى فيه ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما وبه ارتفاع الأجل، ولولا ذلك لكان نصبا كاللزام، فأخّر لتحسين اللفظ. وبمعناه قوله عز وجل يسألونك كأنك حفيٌّ عنها، المعنى يسألونك عنها كأنك حفيٌّ بها أى ضنين بعلمها . ومثله قوله تعالى أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها، أى نأت منها بخير فقدّم بخير وأخّر منها فأشكل.

ومن المؤخر بعد توسط الكلام قوله عز وجل لتركبن طبقا عن طبق فى قراءة من وحّد الفعل، هو متصل بقوله عز وجل ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا، لتركبن طبقا عن طبق، أى حالا بعد حال فى البرزخ، فأخّر الأحوال للقرار فى الدار، وكذلك هو فى قراءة من جمع فقال لتركبن أيها الناس، فيكون الإنسان فى معنى الناس كما ذكرناه آنفا، ويكون الجمع عطفا على المعنى، وإنما وحّد للجنس فكأنه قال يا أيها الناس لتركبن طبقا عن طبق، فأخّر هذا الخبر لما توسطا من الكلام المتصل بالقصة ومعناه التقديم. ومثل هذا قوله عز وجل ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلاّ قليلاً، وقوله إلاّ قليلاً هو متصل بقوله لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلاّ قليلاً، وأخّر الكلام لاتّبعتم الشيطان. وقد قيل إن قوله إلاّ قليلا مستثنى من الأول فى قوله وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به إلاّ قليلا منهم، وفى هذا بُعد والأول أحب إلىّ. وعلى هذا المعنى قرأ ابن عباس فى رواية عنه لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلاّ من ظلم جعله متصلاً بقوله تعالى ما يفعل الله بعذابكم إنْ شكرتم وآمنتم إلاّ من ظلم، وصار آخر الكلام لا يحب الله الجهر بالسوء من القول فاصلا. ومثل هذا قوله تعالى والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ألاّ تفعلوه تكن فتنة فى الأرض، إنما هو من صلة قوله وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر ألاّ تفعلوه تكن فتنه الأرض. وكذلك قوله فى أوّل السورة لهم مغفرة ورزق كريم، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، ليس هذا من صلة الكلام إنما هو مقدم ومتصل فى المعنى بقوله قل الانفال لله والرسول كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، أى فصارت أنفال الغنائم إذ أنت راض بإخراجك وهم كارهون، فاعترض بينهما الأمر بالتقوى والإصلاح والوصف بحقيقة الإيمان والصلاح فأشكل فهمه. وعلى هذا قوله عز وجل حتى تؤمنوا بالله وحده إلاّ قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك، إنما هو موصول بقوله تعالى قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك، لأنها نزلت فى قولهم فقد استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك عند قوله لأستغفرلك ربى، فقالوا فهلاّ نستغفر لآبائنا المشركين، فنزلت هذه الآية

ليستثنى القدوة فى إبراهيم فى هذا، ثم نزلت الآية الأخرى مُعَذرة له أوعده إياه إلي أن علم موته على الكفر فقال وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعَدَها إياه الآية. وكذلك قوله عز وجل ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم، وهذا متصل بقوله حُرِمت عليكم الميتة والدم إلى آخر المحرمات، ثم قال فمن اضطر فى مخمصة يعنى مجاعة.

ومثل ما ذكرناه من علم القرآن كثير وإنما نبهنا بيسير على كثير، ودللنا بنُكت على جَمّ غفير، ليستدل بماذكرناه على نحوه ويتطرق به إلى مثله، وهذا كله على ضروب كلام العرب ومعانى استعمالهم. ووجوه استحسانهم أنه فى كلامهم المطوّل للبيان، والمختصر للحفظ، والمقدم والمؤخر للتحسين، وكله فصيح بليغ، لأن وصف البلاغة عندهم رد الكثير المنثور إلى القليل المجمل، وبسط القليل المجمل إلى المبثوث المفسر، فالمقصر من الكلام عندهم مع الحاجة إلى المعانى المتفرقة عجز، والمطول منه مع الاكتفاء بالمعنى الجامع منه عيّ، فلما خاطبهم بكلامهم أفهمهم بعقولهم ومستعملاتهم ليحسن ذلك عندهم فيكون حجة عليهم من حيث يعقلون، لأنه أمرهم بما يعلمون ومايستحسنون حكمةً منه ولطفا، فذلك أيضا على هذه المعانى يفهم الخصوص من مكانهم ومشهدهم على علو مقامهم فى مكان ما أظهر لهم من العلم به، ونصيب ما قسم لهم من العقل عنه، فهم متفاوتون فى الإشهاد والفهوم حسب تفاوتهم فى الأنصبة من العقول والعلوم، إذ القرآن عموم وخصوص، ومحكم ومتشابه، وظاهر وباطن، فعمومه لعموم الخلْق، وخصوصه لخصوصهم. وظاهره لأهل الظاهر، وباطنه لأهل الباطن، والله واسع عليم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فإذا صفا القلب بنور اليقين، وأيد العقل بالتوفيق والتمكين، وتجرد الهَمُّ من التعلق بالخَلْق، وتاله السر بالعكوف على الخالق، وخلت النفس من الهوى، سرت الروح فجالت فى الملكوت الأعلى، وكشف القلب بنور اليقين الثاقب ملكوت العرش عن معانى صفات موصوف، وأحكام خلاّق مالوف، وباطن أسماء معروف، وغرائب علم رحيم رؤف، فشهد عن الكشف أوصاف ما عرف، فقام حينئذ بشهادة ما عرف، فكان ممن [illegible]ال سبحانه يتلُونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به، فحق التلاوة للمؤمنين لأنه إذا أعطاه حقيقة من [illegible]مان، أعطاه مثلها من معناه ومعدنها حقيقة من مشاهدة، فكانت تلاوته عن مشاهدة، وكان [illegible]يده عن معنى تلاوته، وكان ذلك على معيار حقيقة من إيمانه كما قال وإذا تليت عليهم آياته [illegible]دتهم إيمانا، أولئك هم المؤمنون حقا، فيكون العبد بوصفٍ من نُعت بالحضور والإنذار،

وخُص بالمزيد والاستبشار، في قوله عز وجل فلما حضروه قالوا أنصتوا، فلماقضى ولّوا إلى قومهم منذرين، وفي قوله عز وجل فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون، ويكون من نعت من مَدَحَهُ بالعلم وأثنى عليه بالرجاء ووصفه بالخوف في قوله تعالى يحذر الآخرة و يرجو رحمة ربه، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون، وقال عز وجل يدعون ربهم خوفا وطمعا، فكان هذا من أهل الله وخاصته، ومن محبيه وخالصته، كما روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل القرآن أهل الله وخاصته من خلْقه. وقال ابن مسعود من كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله. وهذا كما قال لأنك إذا أحببت متكلماً أحببت كلامه، وإذا كرهته كرهت مقاله. وقال أبو محمد سهل: من علامة الإيمان حب الله عز وجل، ومن علامة حب الله حب القرآن، ومن علامة حب القرآن حب النبى صلى الله عليه وسلم، وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم اتّباعه، وعلامة اتّباعه الزهد فى الدنيا. وحدثونا عن بعض المريدين قال كنت فى جدة إرادتي قد لهجت بتلاوة القرآن ثم رهقتنى فترة فبقيت أياماً لا أقرأ، فهتف بى هاتف من قبل الله عز وجل إن كنت تحبنى فَلِمَ جفوت كتابى، أما ترى ما فيه من لطيف عتابى وقال بعض العارفين لا يكون المريد مريدا حتى يجد فى القرآن كل ما يريد ويعرف منه النقصان والمزيد ويستغنى بالمولى عن العبيد. وأقل ما قيل فى العلوم التى يحويها القرآن من ظواهر المعانى المجموعة فيه أربعة وعشرون ألف علم وثمانمائة علم، إذ لكل آية علوم أربعة، ظاهر وباطن وحدّ ومطلع . وقد يقال إنه يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتين من علوم، إذ لكل كلمة علم ، وكل علم عن وصف ، فكل كلمة تقتضى صفة، وكل صفة موجبة أفعالاً حسنة ، وغيرها على معانيها، فسبحان الفتّاح العليم.

الفصل الثامن عشر

فيه كتاب ذكر الوصف المكروه من نعت الغافلين

فإذا خالف التالى هذا الوصف الذى شرحناه أو كان على ضد ذلك من السهو والغفلة والعَمَى والحيرة، مُحدّثا لنفسه مُصغيا إلى هواه ووسوسة عدوّه، متوهماً للظنون، عاكفاً على الأمانى، حقّت عليه أن يكون بمعانى ما قال الله عز وجل – ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانى، يعنى إلاّ تلاوة القرآن لا غير، وإنْ هم إلا يظنون، فوصفهم بالظن وهو ضد اليقين، كما أخبر عن الظانّين فى قولهم إنْ نظن إلاّ ظنا وما نحن بمستيقنين ، وبمعنى ما قال وكأيِّن من آية

فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون، فالقرآن من أجّل آيات الأرضين والسموات الدالة على فاطرهما ومنزله، وكان بوصف من يهدده بعلمه فيه عند استماعه لكلامه العزيز متهاوناً به مناجياً لغيره أن يقول تعالى – نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هُمْ نجوى، ويمثل من يسمع وقلبه مشغول عن المسموع بما يضره عما ينفعه، حتى إذا خرج عن الكلام سأل من حضر بقلبه ماذا فهم من الخطاب الذى كان هو عنه بغفلته قد غاب، وقد كان حاضراً بجسمه حجة عليه ، فمن ذلك قوله عز وجل ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا، قال الله تعالى أولئك الذين طبع الله على قلوبهم، أى عن فقه الخطاب فلم تسمعه القلوب ولم تعه، واتبعوا أهواءهم يعنى أباطيلهم وظنونهم الكاذبة. ويقال إن العبد إذا تلا القرآن واستقام نظر الله إليه برحمته، فإذا قرأ القرآن وخَلّطَ ناداه الله عزوجل مالك ولكلامى وأنت مُعرض عنى، دع عنك كلامى إنْ لم تتب إلىّ.

وروينا فى الإسرائيليات أوحى الله عز وجل إلى نبيّه موسى وداود عليهما السلام مُرْ عُصاة بنى إسرائيل أن لا يذكرونى فإنى آليت على نفسى أن أذكر من ذكرنى ، وإنى أذكرهم بلعنة. وكان بوصف من أخبر عنه إذ يقول تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عَرَض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا الآية. وهذا وصفهم الظن الكاذب والرجاء المختلف اللذان لم يفترقا إلى خوف وإشفاق، عصواْ خالقهم عاجلا وتمنّوا عليه المغفرة آجلا، جهلاً منهم بحكمته وإعراضاً عن أحكامه. قال الله عز وجل ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه، ثم أخبر عن علمهم بذلك عِلْمَ قول وخبر لا علم يقين ومعاينة ، قال سبحانه ودرسوا ما فيه أى قرؤا هذا وعلموه ولم يعملوا به فلم ينتفعوا بشىء منه، فكان هذا توبيخا لهم وتقريعا، كقوله تعالى قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين. وفيها وجه غريب. ودرسوا ما فيه أى محوه بترك العمل به والفهم له، من قولك درست الريح الآثار إذا محتها ، وخط دارس وربع دارس إذا مُحى وعفى أثره. وهذا المعنى مواطىء لقوله تعالى نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، واتبعوا ما تتلو الشياطين أى ما تتبع وتهوى. ومواطىء لقوله تعالى فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئسما يشترون، فسمى ترك العمل منهم به فى كل حالة طرحاً له وإلقاءً ونفياً له وبيعاً له، وبالدنيا اشتراه. وكل آية فى التهدد والوعيد فللخائفين منها وعظ وتخويف، وللغافلين عنها وصف وتعريف، عَلِمَه من عَلِمَه، كقوله تعالى فى ذكر النار ذلك يخوف الله به عباده يا عبادى فاتقون. وقال فى خبرها أُعدّت

للكافرين. وقال بعض السلف إن العبد ليفتتح سورة فتصلى عليه الملائكة حتى يفرغ منها، وإنّ العبد ليفتّتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها، فقيل وكيف ذلك، قال إذا أحلّ حلالها وحرّم حرامها صلّت عليه، وإلاّ لعنته. وقال بعض العلماء إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم، يقول ألا لعنة الله على الظالمين وهو ظالم، ألاّ لعنة الله على الكاذبين وهو منهم. وقال سفيان فى قوله تعالى سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، قال أصرف عنهم فَهْمَ القرآن. وفى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عظّمت أمتى الدنيا والدرهم نُزِعَ منها هيبة الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حُرِموا بركة الوحى. قال الفضيل حُرِموا فهم القرآن. وفى الأخبار مِنْ ذَمّ قراءة البطّالين أكثر من أن تذكر، فمنها ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أكثر منافقى أمتى قُرّاؤها . وكان الحسن يقول إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل وجعلتم الليل جَمَلا ، فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله، وإنّ من كان قبلكم رأوه رسائل أتتهم من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار. وكان ابن مسعود من قبله يقول أُنزل عليهم القرآن ليعلموا به فاتخذوا دراسته عملا. إنّ أحدهم ليتلو القرآن من فاتحته إلى خاتمته، ما يُسقط منه حرفا وقد أسقط العمل به. وفى حديث بن عمر وحديث جندب لقد عشنا برهة من دهرنا وأحدنا يُؤتَى الإيمان قبل القرآن فتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فنتعلم حلالها وحرامها ، وأمرها وزجرها ، وما ينبغى أن يقف عليه منها كما تعلمون أنتم القرآن، ثم بعد لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته لا يدرى ما أمره ولا زجره، ولا ما ينبغى أن يقف عنده منه فينثره نثر الدّقَل، وهذا كما قال لأن المراد والمقصود بالقرآن الائتمار لأوامره والانتهاء عن زواجره، إذ حفظ حدوده مفترض ومسؤل عنه العبد ومعاقب عليه ، وليس حفظ حروفه فريضة، ولا عقاب على العبد إذا لم يحفظ ما وسعه منه. قال الله عز وجل إنّا سنلقى عليك قولا ثقيلا، أى العمل به ثقيل وإلاّ فقد يسّره للذكر. ومن ذلك الخبر المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرؤا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ولانت له جلودكم، فإذا اختلفتم فلستم تقرؤنه. وفى بعضها فإذا اختلفتم فقوموا عنه. وحدثنى شيخ فاضل قرأت عليه القرآن على شيخ لى فلما ختمتُ رجعت إليه لأقرأ، فانتهرنى وقال جعلت القرآن علىّ عملا. إذهب فاقرأ على الله عز وجل، فانظر ماذا يسمعك منه ويفهمك عنه.

وقد كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يحفظ إلاّ الجزء والجزأين،

والسور المعدودة وسورتين، وكان من يحفظ الحزب منه وهو السُبع أو البقرة والأنعام علّمًا فيهم. وقبض رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن عشرين ألف صحابى لم يقرؤا القرآن غير نظر، فلم يحفظ القرآن كله منهم إلاّ ستة اختُلف منهم فى اثنين. وقال بعضهم ولم يكن جمعه من الخلفاء الأربعة أحد. وختم ابن عباس على أبى بن كعب، وقرأ عبد الرحمن بن عوف على ابن عباس، وقرأ عثمان بن عفان على زيد بن ثابت ، وقرأ أهل الصفّة على أبى هريرة، وكلهم كان متّبعا لأوامره مجتنبا لزواجره. عالما به فقيها فيه. وقال يوسف بن أسباط وقد قيل له إذا ختمت القرآن بأى شىء تدعو، فقال بأى شىء أدعو، أستغفر اللّه عز وجل مائة مرة من تلاوتى. وكان يقول إنى لأهمُّ بقراءة القرآن فإذا ذكرت ما فيه خشيت المقت فأعدل إلى التسبيح والاستغفار.

واعلمْ أن للعبد فى قراءة القرآن بحسب ماله من تعظيمه والفهم له والمشاهدة منه والمعاملة به، لأنه من أكبر شعائر اللّه فى خلقه، وأعظم آياته فى أرضه الدالات عليه، وأسبغ نِعَمِه الكاملة علينا. وللعبد من التعظيم له بقدر تقواه. وله من فهم الخطاب وتعظيم الكلام على نحو ما أعطى من معرفة المتكلم وهيبته وإجلاله، فإذا عَظُم المتكلم فى قلبه، وكَبُر فى فهمه، أنعم تدبر كلامه، وأطال الفكر فى خطابه، وأكثر ترداده وتكريره على قلبه، وأسرع بذكره عند النازلة به والحاجة إليه، فاتّقى وحذر، ولذلك قال سبحانه واذكروا ما فيه لعلكم تتّقون. وقال كذلك يبين اللّه آياته للناس لعلهم يتّقون، ولعلهم يتذكّرون، لأن كل كلام موقوف على قائله، يعظُم بتعظيمه، ويقع فى القلب بعلو مكانه، أو يهون بسهولة شأنه.

قال اللّه عز وجل ليس كمثله شىء ، فى العظمة والسلطان، وليس ككلامه كلام فى الإحكام والبيان. وقرأتُ فى سورة الحنين من التوراة – يا عبدى.. أما تستحيى منى – يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت فى الطريق تمشى فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله وتقرؤه وتتدبره حرفا حرفا حتى لا يفوتك شىء منه. وهذا كتابى أنزلته إليك أنظرْ كم وصلتُ لك فيه من القول، وكم كررتُ عليك فيه، فتأملت طوله وعرضه، ثم أنت مُعرِض عنه، أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك؟.. أى عبدى يقعد إليك بعض إخوانك فتُقبل عليه بكل وجهك، وتُصغى إلى حديثه بكل قلبك، فإنْ تكلم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأت إليه أنْ كُفّ، وها أنا ذا مقبل عليك ومحدّث لك، وأنت مُعْرِضٌ بقلبك عنى، فجعلتنى أهون عندك من بعض إخوانك أو كما قال.

وإنما خفّ القيام على أهل الليل لفهم الخطاب، وثَقُلَ على أهل النوم لانفصام القلوب عن

الفقه وشدة الحجاب ، كما قال تعالى ثَقُلَتْ فى السموات والأرض، أى خَفِىَ علمها يعنى الساعة ، فثقلت عليهم فسمى ما خفى ثقيلا والله أعلم .

الفصل التاسع عشر

كتاب فيه ذكر الجهر بالقرآن وما فى ذلك من النيات وتفصيل حكم الجهر والإخفات

روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فضلُ قراءة السرّ على قراءة العلانية كفضل صدقة السرّ على صدقة العلانية، وفى لفظ آخر الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمُسِرّ به كالمسِرّ بالصدقة. وفى الخبر العام يفضُـل عمل السر على عمل العلانية بسبعين ضعفا. وفى مثله من العموم خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى. وفى الخبر لا يجهر بعضكم على بعض فى القراءة بين المغرب والعشاء. وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن عبد العزيز يجهر بالقرآن فى صلاته، وكان حسن الصوت، فقال لغلامه برد – إذهب إلى هذا المُصلِّى فمره أن يُخفض من صوته ، فقال الغلام إن المسجد ليس لنا وإن للرجل فيه نصيبا، فرفع سعيد صوته فقال يا أيها المُصلِّى إنْ كنت تريد الله عز وجل بصلاتك فاخفض صوتك، وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيأً، قال فسكت عمر وخفف ركعته . فلما سلّم أخذ نعليه وانصرف وهو يومئذ أمير المدينة. وعلى ذلك فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع جماعة من أصحابه يجهرون بالقراءة فى صلاة الليل فيصوّب ذلك لهم ويسمع إليهم . وقد أمر بالجهر فيما روى عنه إذا قام أحدكم من الليل يصلى فليجهر بقراءته فإن الملائكة وعُمّار الدار يستمعون إلى قراءته ويصلون بصلاته . ومرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثلاثة من أصحابه فى الليل مختلفى الأحوال، منهم من كان يُخافت وهو أبو بكر رضى الله عنه، فسأله عن ذلك فقال إن الذى أناجيه هو يسمعنى ، ومنهم من كان يجهر وهو عمر رضى الله عنه فسأله عن ذلك ، فقال أوقظ الوسنان وأزجر الشيطان ، ومنهم من كان يقرأ أياً من هذه السورة ومن هذه السورة وهو بلال ، فسأله عن ذلك فقال أخلط الطيب بالطيب ، فقال كلكم قد أحسن وأصاب، فنقول والله أعلم إن المخافتة بالقراءة أفضل إذا لم تكن للعبد نية فى الجهر، أو كان ذاهباً عن الهمة والمعاملة بذلك ، لأنه أقرب إلى السلامة وأبعد من دخول الآفة . وإن الجهر أفضل لمن كان له نية فى الجهر ومعاملته

مولاه به، لأنه قد قام بسُنَّة قراءة الليل، ولأن المخافت نفعه لنفسه، والجهر نفعه له ولغيره، وخير الناس من ينفع الناس، والنفع بكلام الله عز وجل أفضل المنافع ، ولأنه قد أدخل عملا ثانيا يرجو به قُربة ثانية على عمله الأول فكان في ذلك أفضل .

وليجعل العبد مفتاح درسه أن يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ربِّ أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون . وليقرأ قل أعوذ برب الناس وسورة الحمد قبلها . وليقل عند فراغه من كل سورة صدق الله وبلّغ رسول الله . اللّهم انفعنا به وبارك لنا فيه . الحمد لله رب العالمين. أستغفر الله الحيّ القيوم .– ومن حفظ جوارحه وقلبه عن المنهى فقد عمل بالقرآن إلى خاتمته، لأنه مقسط على جملة العبد وجوارحه جملة .

وفي الجهر بالقراءة سبع نيّات، منها الترتيل الذي أُمر به ، ومنها تحسين الصوت بالقرآن الذي نُدب إليه في قوله صلى الله عليه وسلم زينوا القرآن بأصواتكم ، وفي قوله ليس منا من لم يتغن بالقرآن ، أي يُحسن به صوته ، وهو أحد الوجهين وأحبهما إلى أهل العربية . والوجه الآخر أي من لم يستغن به من الغُنية والاكتفاء ، وقد يقال مِن هذا الوجه يتغانى به . ومنها أن يُسْمِع أذنيه ويُوقظ قلبه ليتدبر الكلام ويتفهم المعاني، ولا يكون ذلك كله إلاّ في الجهر. ومنها أن يطرد الشيطان والنوم عنه برفع صوته . ومنها أن يرجو بجهره يقظة نائم فيذكر الله عز وجل فيكون هو سبب إحيائه . ومنها أن يراه بطّال غافل فينشط للقيام ويشتاق إلى الخدمة فيكون معاوناً له على البرّ والتقوى . ومنها أن يكثر بجهره تلاوته، ويدوم قيامه على حسب عادته للجهر ففي ذلك كثرة عمله . فإذا كان العبد معتقداً لهذه النيات، طالباً لها ، ومتقرباً إلى الله سبحانه وتعالى ، عالماً بنفسه مصححاً لقصده ، ناظراً إلى مولاه الذي استعمله فيما يرضاه ، فجهرُه أفضل لأن فيه أعمالا، وإنما يفضل العمل بكثرة النيات فيه ، وارتفع العلماء وفضُلت أعمالهم بحسن معرفتهم بنيات العمل واعتقادهم لها ، فقد يكون في العمل الواحد عشر نيات يعلم ذلك العلماء فيعملون بها ، فيعطون عشرة أجور . وأفضل الناس في العمل أكثرهم نية فيه، وأحسنهم قصداً وأدباً . وفي بعض التفاسير في قوله عز وجل وأما بنعمة ربك فحدث قال قراءة القرآن . وفي الخبر مَنْ استمع إلى آية من كتاب الله عز وجل كانت له نوراً يوم القيامة ، وفي خبر آخر كُتب له عشر حسنات .

والتالى شريك المستمع فى الأجر لأنه أكسبه ذلك . وقال بعضهم للقارىء أجر وللمستمع تسعة أجور ، وكلاهما صحيح لأن كل واحد منهما على قدر إنصاته ونيته ، فإذا كان التالى مكسبا لغيره هذه الأجور فإن له بكل أجر أكسبه إياه أجرا يكتسبه ، لقوله صلى الله عليه وسلم الدّال على الخير كفاعله ، سيما إذا كان عالماً بالقرآن ، فقيهاً فيه ، فيكون مقراه ووقوفه حجة وعلماً لسامعه . وفى الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينتظر عائشة رضى الله عنها فابطأت عليه فقال ما حبسك ، فقالت يا رسول الله كنت استمع قراءة رجل ما سمعت صوتا أحسن منه ، فقام صلى الله عليه وسلم حتى استمع إليه طويلا ثم رجع ، فقال هذا سالم مولى أبى حذيفة، الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثله. واستمع أيضا ذات ليلة إلى قراءة عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهم فوقفوا طويلا ، ثم قال من أراد أن يقرأ القرآن غضًا كما أُنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عَبْد. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن مسعود إقرأ فقال يا رسول الله اقرأ وعليك أُنزل؟ فقال إنى أحب أن أسمعه من غيرى، فكان يقرأ وعينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تفيضان، وذلك عند قوله فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا . واستمع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قراءة أبى موسى فقال لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير داود، فبلغ ذلك أبا موسى، فقال يا رسول الله لو علمتُ أنك تسمع إلىّ لحبّرت لك تحبيرا . وكان ابن مسعود يأمر علقمة بن قيس أن يقرأ بين يديّه، فيقول له رتّل فداك أبى وأمى، وكان حسن الصوت بالقرآن. وفى الخبر كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن. وقد كان عمر يقول لأبى مسعود رضى الله عنهما ذكّرنا ربّنا فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط، فيقال يا أمير المؤمنين الصلاة الصلاة، فيقول أولسنا فى صلاة ، فكأنه يتأوّل قوله عز وجل ولذِكْر الله أكبر.

وقال بعض عبّاد البصريين لمّا وضع بعض البغداديين كتابا فى معانى الرياء ودقائق آفات النفوس، قال لقد كنت أمشى بالليل أسمع أصوات المتهجدين كأنها أصوات الميازيب، فكان فى ذلك أُنس وحث على الصلاة والتلاوة، حتى جاء البغداديون بدقائق الرياء وخفايا الآفات فسكت المتهجدون، فلم يزل ذلك ينقص حتى ذهب وانقطع وتُرك إلى اليوم.

فإنّ لم يكن للتالى نية في شئ مما ذكرناه، وكان ساهيا غافلاً عن ذلك، وكان واقفا مع شئ

من الآفات، أو لمح فى قلبه شخصاً، أوساكن ذِكْر هوى، فقد اعتّل، فعليه أن يحتمى الجهر، فإن جهر على ثقل قلبه فسُد عمله لاستكنان الداء فيه، وكان إلى النقصان أقرب، ومن الإخلاص أبعد، فعليه حينئذ بالإخلاص فهو دواؤه يعالج به حاله، فإنه أصلح لقلبه، وأسلم لعمله، وأحمد فى عاقبته. وقد يكون العبد واجداً لحلاوة الهوى فى الصلاة والتلاوة، وهو يظن أن ذلك حلاوة الإخلاص، وهذا من دقيق شأن الشهوة الخفية ولطيف الانتقاص، وقد يلتبس ذلك علي الضعفاء ولا يفطن له إلا العلماء. وإنما يجد حلاوة الإخلاص الزاهدون فى الدنيا وفى مدح الناس لهم به، ويتلذذ بنصح المعاملة وصدق الخدمة المحبون للّه عز وجل، الخائفون منه، واعتبار فقد ذلك بأحد شيئين، سقوط النفس باستواء المدح والذم، وهذا حال في مقام الزهد أو الخلو من القلب بشهادة اليقين، وهذا في مقام المعرفة. وفى هذين المقامين يستوى السر والعلانية، وقد تكون العلانية أفضل لأئمة التقوى والعدل.

وحُدِّثتُ عن رجل من أهل الخير قال، كنت أقرأ فى السحر، فى غرفة لى شارعة، سورة طه، فلمّا ختمتها غفوت بعدها غفوة فرأيت شخصا نزل من السماء بيده صحيفة بيضاء فنشرها بين يدّى، فإذا فيها سورة طه، وإذا تحت كل كلمة عشر حسنات مثبتة إلا كلمة واحدة فإنى رأيت مكانها محوا، ولم أر تحتها شيأ فغمّنى ذلك، فقلت قد واللّه قرأت هذه الكلمة ولم أر لها ثوابا ولا أراها أُثبتت، فقال الشخص صدقت قد قرأتها وكتبناها لك إلا أناّسمعنا مناديا ينادى امحوها وأسقطوا ثوابها فمحوناها، فبكيت فى منامى وقلت لِمَ فعلتم ذلك، قالوا مرّ رجل فرفعت صوتك بها لأجله فمحوناها. وقد روينا أن النبى صلّى اللّه عليه وسلم سمع رجلا يجهر بقراءته فناداه يا فلان أسمِعْ اللّه ولا تُسمعنى.

واعلم أن السمعة مقرونة بالرياء، ومحكوم لها بحكمه من فساد العمل ونقصان العامل، وهى مأخوذة من السمع. كأن العبد يُسمع بعمله غير اللّه عز وجل، ويحب أن يُسمع به مخلوقا ليمدح به، لغلبة هواه وضعف نفسه، فيكون قد أشرك فى عمله غير اللّه عز وجل، فيبطل عمله لجهله بالتوحيد، إذ لو علم يقينا أن لانافع إلاّ اللّه عز وجل، ولا ضار ولا مُعطى ولا مانع إلاّ إياه خلص له توحيده من الشرك، فخلص له عمله من الرياء. وكذلك الرياء مأخوذ من رأى العين، فالسمعة هى بمعناه.

وفى الخبر لا يقبل اللّه عز وجل من مُسْمِعٍ ولامُراء. وفي خبر آخر من سمع سمع اللّه به، ومن راءى راءى اللّه به وصغّره وحقّره، فأمّامن كانت له نية صالحة فى أن يُسمع أخاه كلام اللّه

ليتعظ به ويتدبره، أو ينتفع باستماعه ويتذكر به، فليس داخلاً في السمعة لوجود حُسن النية وصحة القصد، ولفقد اقتران الآفة لإرادة طمع عاجل من مدح أوغرض دنيا، كما قال أبو موسى لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو علمت أنك تسمع لحبّرته لك تحبيرا، فلم ينكر عليه، لأنه ذو نيّة فى الخير وحُسن قصدٍ به. وقال للآخر الذى رفع صوته بالآية أسمعْ الله عز وجل ولاتسمِّعنى، فأنكر عليه لماّ شَهد السمعة فيه. وقد روينا أنه صلّى الله عليه وسلم مرّ برجل يُظهر التأوّه والوجل، فقال من كان معه، يارسول الله، أتراه مُرائيا، فقال لا،بل أوّاه منيب.

واعلم أن الأكل والنوم على السلامة والصدق أفضل فى الحال، وأرفع فى المقام، وأحمد فى المآل، من القيام والصيام على يسيرٍ من التصنع والتزين للخلْق. ومعرفة هذا والقيام به هو موضع علم العلماء بالله عز وجل. وحُدّثنا عن الحسن البصرى قال تُفْقَد الحلاوة فى ثلاث، فإن وجدتها فأبشر وامض لقصدك، وإن لم تجدها فاعلم أن بابك مغلق: عند تلاوة القرآن، وعند الذكْر، وفى السجود. وزاد غيره وعند الصدقة وبالأسحار.

وقراءة القرآن فى المصحف أفضل من قراءته عن ظهر قلب. يقال الختمة بسبع ختم، لأن النظر فى المصحف عبادة. وكان كثير من الصحابة والتابعين يقرؤن فى المصحف ويستحبون أن لا يخرجوا يوماً إلاّ نظروافيه . وخرق عثمان مصحفين من كثرة درسه فيهما.

الفصل العشرون

فى ذكر إحياء الليالى المرجوّ فيها الفضل، المستحب إحياؤها، وذكر مواصلة الأوراد فى الأيام الفاضلة

ويستحب إحياء خمس عشرة ليلة فى السنة، خمسٌ منها في شهر رمضان، وهى وتر ليالى العشر الأخير منه، وليلة سبع عشرة من رمضان هى صبيحة يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، فيه كانت وقعة بدر، وكان ابن الزبير يذهب إلى أنها ليلة القدر، وأما التسعة الأخر فأوّل ليلة من شهر المحرم، وليلة عاشوراء، وأوّل ليلة من شهر رجب، وليلة النصف منه، وليلة سبع وعشرين منه وفيها أُسْرِىَ برسول الله صلى الله عليه وسلم، وليلة المعراج، وليلة عرفة، وليلة العيدين، وليلة النصف من شعبان وقد كانوا يصلون فى هذه الليلة مائة ركعة بألف مرة قل هو الله أحد، عشراً فى كل ركعة، ويسمّون هذه الصلاة صلاة الخير، ويتعرفون بَرَكَتها ويجتمعون فيها، وربما صلّوها جماعة. وروينا عن الحسن قال حدثنى ثلاثون من أصحاب النبى صلّى الله عليه وسلم

أن من صلّى هذه الصلاة في هذه الليلة نظر الله عز وجل إليه سبعين نظرة، وقضي له بكل نظرة سبعين حاجة، أدناها المغفرة. وقد قيل إن هذه الليلة هي التي قال الله عز وجل فيها فيها يُفْرَق كل أمر حكيم، وأنه يُنسخ فيها أمر السَّنَة وتدبير الأحكام إلى مثلها من قابل والله أعلم، والصحيح من ذلك عندي أنه في ليلة القدر، وبذلك سمّيت، لأن التنزيل يشهد له، إذ في أول الآية إنا نزّلناه في ليلة مباركة، ثم وصفها فقال فيها يُفْرق كل أمر حكيم، فالقرآن إنما أُنزل في ليلة القدر، فكانت هذه الآية بهذا الوصف في هذه الليلة مواطئة لقوله عز وجل إنا أنزلناه في ليلة القدر.

ذكر مواصلة الأوراد في الأيام الفاضلة

وهي تسعة عشر يوما تستحب فيها مواصلة الأوراد والدّأب في العبادة، يوم عاشوراء، ويوم عرفة، ويوم سبعة وعشرين من رجب، ويوم سبعة عشر من شهر رمضان، ويوم النصف من شعبان، ويوم الجمعة، ويوم العيد، والأيام المعلومات وهي عشر ذي الحجة، والأيام المعدودات وهي أيام التشريق. وفي الخبر صوم يوم عرفة يكفر سنتين، سنة ماضية وسنة مستقبلة، وصوم يوم عاشوراء كفّارة سَنَة. وقد روينا عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سَلِمَ يوم الجمعة سلمت الأيام، وإذا سلم شهر رمضان سلمت السَّنة. وقال بعض علمائنا مَن أخذ مهناه في هذه الأيام الخمسة في الدنيا، لم ينل مهناه في الآخرة. وقال هذه الأيام يُرجى فيها الفضل من الله عز وجل والمزيد، فإذا اشتغلت فيها بهواك وعاجل الدنيا فمتى ترجو الفضل والمزيد؟ يعني بالأيام الخمسة: العيدين، ويوم الجمعة، ويوم عرفة، ويوم عاشوراء. ومن فواضل الأيام بعد هذه يوم الاثنين ويوم الخميس، يومان ترفع فيهما الأعمال إلى الله عز وجل.

ومن الفاضل الشهور الأربعة الحرم، وهي ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، خصّهن الله عز وجل بالنهي عن الظلم فيهن، لعظم حرمتهن، فكذلك الأعمال لها فيهن فضل على غيرها، وأفضلها ذو الحجة لوقوع الحج فيه، ولِماخُصّ به من الأيام المعلومات والأيام المعدودات؛ ثم ذو القعدة لجمعه الوصفين معا، وهو من الأشهر الحرم ومن أشهر الحج؛ فأما المحرم ورجب فليسا من أشهر الحج، وأما شوّال فليس من الأشهر الحرم ولكنه من أشهر الحج.

وأفضل الأيام في الشهر العشران: العشر الأخر، والعشر الأول من ذي الحجة، وبعدهما

عشر المحرم من أوله، فالأعمال فى هذه الأيام لها فضل ومزيد على سائر الشهور. وروينا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: مَن صام ثلاثة أيام من شهر حرام بعّده الله من النار سبعمائة عام– يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت. وفى خبر آخر صوم يوم من شهر حرام يعدل صوم ثلاثين يوماً من غيره، وصوم يوم من شهر رمضان يعدل صوم ثلاثين يوماً من شهر حرام. ثم إن أفضل الأوقات فى جملة الأيام أوقات الصلوات الخمس. وروينا أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان إذا دخلت العشر الأواخر من شهر رمضان طوى الفراش وشدّ المئزر. وفى حديث آخر إذا دخلت العشر الأواخر دأب وأدأب أهله، يعنى أدام وأداموا التعب والنّصَب فى العبادة. وفى الخبر عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ما من أيامٍ العملُ فيهن أفضل وأحب إلى اللّه عز وجل من أيام عشر ذى الحجة. إنّ صوم يوم منه يعدل صيام سنة، وقيام ليلة منه يعدل قيام ليلةالقدر. قيل ولا الجهاد فى سبيل اللّه، قال ولا الجهاد فى سبيل اللّه، إلاّ رجلٌ خرج بنفسه وماله فلم يرجع منهما بشئ. وفى لفظ آخر إلاّ من عُقِرَ جواده وأهريق دمه.

وإذا أحب اللّه عز وجل عبداً استعمله فى الأوقات الفاضلة بأفضل الأعمال ليثيبه أفضل الثواب، وإذا مقت عبداً استعمله بأسوأ الأعمال في أفاضل الأوقات، ليضاعف له السيآت، بانتقاص حرمات الشعائر، وانتهاك المحرمات فى الحرمات. ويقال من علامات التوفيق ثلاث: دخول أعمال البرّ عليك من غير قصد لها، وصرف المعاصي عنك مع الطلب لها، وفتح باب اللجأ والافتقار الى اللّه عز وجل فى الشدة والرخاء. ومن علامات الخذلان ثلاث: تعسّر الخيرات عليك مع الطلب لها، وتيسر المعاصى لك مع الرهب منها، وغلْق باب اللجأ والافتقار إلى اللّه عز وجل في كل حال. فنسأل اللّه تعالى بفضله حسن التوفيق والاختيار، ونعوذ به من سوء القضاء والأقدار.

الفصل الحادى والعشرون

فيه كتاب الجمعة. وذكر هيآتها وآدابها. وما يُستحب من العمل فيها للمريد فى يومها وليلتها

صلاة الجمعة واجبة بأوصاف وساقطة بأوصاف، فوجوبها يكون بالإقامة والاستطاعة وحضور وقت الظهر، وتكملة عدة أربعين رجلاً أحراراً، وسقوطها بالسفر، ودخول وقت العصر،

ونقصان العدد، ووقوع العذر. وهى من أعمال الأمراء تُصلّى خلف كل من أقام بها منهم، إلاّ أنى أحب إعادتها ظهرا إذا صلّيت خلف مبتدع، فإن اجتمع فى بلد كبير جامعان صليت خلف الأفضل من إماميهما، فإن استويا في الفضل صلّيت فى القديم من الجامعين، فإن تساويا صلّيت في الأقرب منهما، إلاّ أنْ تكون له نية في الأبعد لاستماع علم أو نشره أو تعلّمه فصلاتها فى الجامع الأعظم وحيث يكون المسلمون أكثر أفضل، ومن صلي في أيهما أحبّ حُسِبَت صلاته. قال ابن جريج قلت لعطاء إذا كان في المصر جامعان أوثلاثة فى أيها أصلى، قال صلّ حيث جُمِعَ المُسلمون فإنها جمعة. وهو يوم عظّم الله تعالى به الإسلام وزيّنه وشرّف به المسلمين وفضّلهم.

قال الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعْوا إلي ذكر الله وذرُوا البيع الآية، فالبيع والشراء محرّم بعد الأذان للجمعة عند طائفة من العلماء لعموم النهى عنه، ومنهم من قال يُرَدّ البيع لأنه فاسد، إلاّ أنى أحسب أن ذلك يَحرُم عند الأذان الثانى وهو مع خروج الإمام إذا قعد على المنبر، لأن هذا كان هو الأذان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد أبى بكر وعمر رضي الله عنهما. والأذان الأول أحدثه عثمان رضي الله عنه لما كَثُر الناس. وقال الله عز وجل فإذا قُضِيَتْ الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله الآية، فأمر عباده المؤمنين فى يوم الجمعة بالذِكْر له ونهاهم عن البيع، وأمرهم فيه بطلب الفضل منه، ووعدهم الخير والفلاح وهما اسمان جامعان لغنيمة الدنيا والآخرة.

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل فرض عليكم الجمعة فى يومى هذا فى مقامى هذا. وروى عنه صلى الله عليه وسلم مَنْ تركَ الجمعة ثلاثاً من غير عذر طَبَع الله على قلبه، وفى لفظ حديثٍ آخر فقد نبذ الإسلام وراء ظهره. واختلف رجل إلى ابن عباس فسأله عن رجل مات لم يكن يشهد جمعة ولا جماعة، فقال فى النار، فلم يزل يتردّد إليه شهراً يسأله عنه كل ذلك، يقول فى النار.

وتُقصد الجمعة من فرسخين أو ثلاثة. وأستحبُ لمن بكّر إليها من أهل القرى فأدركها وأدركه الليل فأواه إلى أهله إذا رجع أن يشهدها، إلاّ أنها ساقطة عن خمسة: الصبى والمملوك والمرأة والمسافر والمريض، فمن شهدها من هؤلاء فصلاّها أجزأت عنه وكان مؤديا لفرضه.

وفى الخبر أن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه فَصرِفوا عنه، وهدانا الله عز

وجل برحمته له، إدّخره لهذه الأمة، وجعله عيداً لهم، فهم أول الناس به سبقا، وأهل الكتابين لهم تُبّع. وفى حديث أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أتاني جبريل عليه السلام وفى كفه مرآة بيضاء، فقال هذه الجمعة يفرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولأمتك من بعدك، قلت فما لنا فيها، قال لكم فيها خير ساعة، مَنْ دعا فيها بخير هو له، أو يتعوّذ من شرّ هو عليه مكتوب إلا أعاذه الله تعالى من أعظم منه. وهو سيد الأيام عندنا، ونحن ندعوه فى الآخرة يوم المزيد. قلت ولِمَ ؟ قال إن ربك عز وجل اتخذ في الجنة واديا أفيح من مسك أبيض، فإذا كان يوم الجمعة نزل من علّيين على كرسيّه وذكر الحديث. قال فيه ويتجلى لهم حتى ينظروا إلى وجهه، ذكرناه بتمامه فى مسند الألف.

وروى عنه صلى الله عليه وسلم خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلِق آدم، وفيه أُدخِلَ الجنة، وفيه أُهبِطَ إلى الأرض، وفيه تقوم الساعة، وهو عند الله يوم المزيد، كذلك تسميه الملائكة فى السماء، وهو يوم النظر إلى الله عز وجل فى الجنه فى أخبار يطول ذكرها. وفى الحديث ما من دابة إلاّ وهى قائمة على ساق يوم الجمعة، مصيخةً أى مصغية تتوقع، مشفقة من قيام الساعة، إلاّ الشياطين وَشَقّى بنى آدم. ويقال إن الطير والهوام يلقى بعضها بعضا فى يوم الجمعة فتقول سلامٌ سلام، يومٌ صالح. وفى الخبر أن الله عز وجل فى كل يوم جمعة يعتق ستمائة ألف عتيق من النار. وفى حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم إذا سلِمَ يومُ الجمعة سلم الأيام. وقال كعب فى الخبر أن الله عز وجل فضّل من كل شئ مِنْ خَلْقه شيأ، ففضّل من البلدان مكة، ومن الشهور رمضان، ومن الأيام الجمعة. وفى الخبر أن جهنم تُسَعَّر فى كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس فى كبد السماء فلا تصلّوا فى هذه الساعة، إلاّ يوم الجمعة فإنه صلاةٌ كله، وإنّ جهنم لا تُسَعَّر فيه.

فأفضل ما يعمله العبد فى يوم الجمعة البكور إلى الجامع في الساعة الأولى، فإن لم يفعل ففى الساعة الثانية، فإن لم يفعل ففى الساعة الثالثة، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال من راح إلى الجمعة فى الساعة الأولى فكأنما قَرّبَ بَدَنَة، ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قَرّبَ بقرة، ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشا أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما أهدي دجاجة، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما أهدى بيضة، فإذا خرج الإمام طويت الصحف ورفعت الأقلام. واجتمعت الملائكة عند المنبر يسمعون الذكر، فمن جاء بعد ذلك فكأنما

جاء لحق الصلاة وليس من الفضل فى شئ، فالساعة الأولى تكون بعد صلاة الصبح، والساعة الثانية تكون عند ارتفاع الشمس، والثالثة تكون عند انبساطها وهى الضحى الأعلى إذا رَمَضَت الأقدام بحّر الشمس، والساعة الرابعة تكون قبل الزوال، والساعة الخامسة إذا زالت الشمس أو مع استوائها، وليس الساعة الرابعة والخامسة مستحبتين للبكور، ولافضل لمصلى الجمعة بعد الساعة الخامسة، لأن الإمام يخرج فى آخرها فلا يبقى إلا فريضة الجمعة.

ويقال إن الناس يكونون فى قربهم من الله عز وجل عند الزيارة للنظر إليه تعالى على قدر بكورهم إلى الجمعة. ودخل ابن مسعود يوم الجمعة بكرة فرأى ثلاثة نفر وقد سبقوه بالبكور، فوجم لذلك وجعل يقول رابع أربعة، يعنى نفسه، وما رابع أربعة من الله ببعيد، وهذا من اليقين فى هذه المشاهدة للخبر. وقد جاء فى الأثر أن الملائكة يفتقدون العبد إذا تأخر عن وقته يوم الجمعة، فيسأل بعضهم بعضا عنه ما فعل فلان وما الذى أخّره عن وقته، فيقولون اللّهم إنْ كان أخّره فقره فاغْنه، وإن كان أخّره مرض فاشفه، وإن كان أخّره شغل عنه فَفَرّغْه لعبادتك، وإن كان أخّره لهْو فاقبل بقلبه على طاعتك.

ولا تقعد إلي القصاص يوم الجمعة فقد كُرِه ذلك، ولا فى حلقةٍ قبل الصلاة. وروينا فى خبر مقطوع عن النبى صلى الله عليه وسلم: ثلاثٌ لو يعلم الناس ما فيهن لركّضوا الإبل فى طلبهن ـ الأذان والصف الأوّل والغدوّ إلى الجمعة. قال أحمد بن حنبل وقد ذكر هذا الحديث أفضلهن الغدوّ إلى الجمعة. وقد يروى فى خبر آخر إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المسجد، بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب ، يكتبون الأول فالأول على مراتبهم.

وروينا فى خبر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن التحلّق يوم الجمعة قبل الصلاة إلاّ أن يكون عالما بالله تعالى يذكّر بأيام الله عز وجل ويُفَقّه فى دين الله عز وجل، يتكلم فى الجامع بالغداة فيجلس إليه فيكون جامعا بين البكور إلي الجمعة والاستماع إلى العلم. ولا يدع الغُسل لها يوم الجمعة إلا منْ ضرورة، فإنه عند بعض العلماء فرض، والاغتسال فى البيت أفضل. وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم غُسل الجمعة واجب على كل محتلم. والمشهور من حديث نافع عن ابن عمر من أتى الجمعة فليغتسل. وكان أهل المدينة يتسابّون بينهم فيقولون لأنت شرٌ ممن لا يغتسل يوم الجمعة. وقد قال عمر لعثمان رضى الله عنهما لمّادخل وهو يخطب أهذه الساعة، فقال مازدت بعد أن سمعت الأذان أن توضّأت وخرجت، فقال عمر

والوضوء أيضا . وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالغسل، ولكن فى ترك الغسل رخصة لوضوء عثمان مع علمه، ويسند ذلك إلى الخبر المسند من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت، ومن اغتسل فالغسل أفضل. وروينا عن الصحابة أُمرنا بالغسل يومَ الجمعة فى الصيف، فلما جاء الشتاء كان من شاء اغتسل ومن لم يشأ ترك الغسل. وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم مَن شهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل، فلذلك قال مالك بن أنس إن النساء إذا حضرن الجمعة اغتسلن لها، ومن اغتسل من جنابةٍ أجزأه لغسل الجمعة إذا نوى، ولابد من النية لغُسل الجنابة لأجل الجمعة فهو أفضل، ويكون الغسل للجمعة داخلاً فيه، فإذا أفاض عليه الماء ثانية بعد غُسله للجنابة لأجل الجمعة فهو أفضل. وروى أن بعض الصحابة دخل على ابنه يوم الجمعة وهو يغتسل، فقال للجمعة غُسلك هذا، قال لا بل من الجنابة، قال فأعِدْ غُسلا ثانيا فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول واجبٌ على كل مسلم أن يغتسل يوم الجمعة. ومن اغتسل بعد طلوع الفجر للجمعة أجزأه، ولكن أفضل الغسل لها عند الرواح إلى الجامع . وأحبُ أن لا يحدث وضوأ بعد الغسل حتى يفرغ من صلاة الجمعة، فمن العلماء من كره ذلك، ولكنْ إنْ بكّر إلى الجامع فتوضأ هناك من حَدَث لَحقَه لامتداد الوقت فإنه على غسل الجمعة. ويُستحب أن يَستاك، وأن يلبس من صالح ثيابه ويجتنب الشهرة من الثياب، ومن أفضل مالَبِسَ البياض، أو بُردان يمانيان. ولبس السواد يوم الجمعة ليس من السنّة، ولا من الفضل أن ينظر إلى لابسه. وليقلّم أظفاره ويأخذ من شاربه فقد روى فضل ذلك من فِعْلِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أمْرِه. وقد روينا عن ابن مسعود وغيره من قلّم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله عزّ وجل منها داء وأدخل شفاء. وَلْيتطيب بأطيب طيبه مما ظهر ريحه وخفى لونه، فذلك طيب الرجال، وطيب النساء مما ظهر لونه وخفى ريحه. روينا ذلك فى الأثر.

وتستحب العمامة يوم الجمعة، وقد روينا فيها حديثا شاذاً عن واثلة بن الأسقع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنّ الله عز وجل وملائكته يصلّون على أصحاب العمائم يوم الجمعة، فإنْ أكربه الحر فلا بأس أن ينزعها قبل الصلاة وبعدها، ولكن يخرج من منزله إلى الجامع وهو لابسها، ولا يصلّى إلا مُعْتَمًا لتحصل له فضيلة العِمّة، فإن نزعها فليلبسها حينئذ عند صعود الإمام المنبر، ثم ليصل وهى عليه، فإن شاء نزعها بعد ذلك.

وليخرج إلى الله عز وجل خاشعا متواضعا ذا سكينة ووقار وإخبات وافتقار، وليكثر من

الدعاء والاستغفار، وينوى فى خروجه زيارة مولاه فى بيته والتقرب إليه بأداء فريضته، والعكوف فى المسجد إلى حيث انقلابه، ثم لينو كفّ جوارحه عن اللهو واللغو، ويتق الشغل حين يخدم مولاه، وليترك راحته فى ذلك اليوم فى مهناه من عاجل حظ دنياه، وليواصل الأوراد فيه فيجعل أوله إلى انقضاء صلاة الجمعة للخدمة بالصلاة، وأوسطه إلى صلاة العصر لاستماع العلم ومجالس الذكر، وآخره إلى غروب الشمس للتسبيح والاستغفار، فكذلك كان المتقدمون يُقسّمون يوم الجمعة هذه الأقسام الثلاثة، وإنْ صامه فَحَسَنٌ يضم إليه يوم الخميس أو يضيف إليه يوم السبت، وقد كُرِهَ إفرادُه بصوم، ومن لم يصمه وكان له أهل فالمستحب أن يجامع فيه، فقد روى فضل ذلك، وكان بعض السلف يفعله . وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غسّل واغتسل وغدا وبكّر ودنا من الإمام ولم يَلْغ، كان له بكل خطوة صيام سنة وقيامها. وفى خبر آخر ودنا من الإمام واستمع كان له ذلك كفّارة لما بين الجمعتين وزيادة ثلاثة أيام. وفى لفظ آخر غُفِرَ له إلى الجمعة الأخرى، وقد اشترط فى بعضها ولم يتخط رقاب الناس، فمعنى قوله من غَسّل بالتشديد أى غسل أهله كناية عن الجماع، وبعض الرواة يخففه فيقول غَسَل واغتسل فيكون معناه غسل رأسه واغتسل لجسده. وليتق أن يتخطى رقاب الناس فإن ذلك مكروه جداً، وقد جاء فيه وعيد شديد أنّ من فعل ذلك جُعِلَ جسراً يوم القيامة على جهنم تتخطاه الناس. وقال ابن جريج حديثا مُرسلا أن النبى صلى الله عليه وسلم بينما هو يخطب يوم الجمعة إذ رأى رجلا يتخطى رقاب الناس حتى تقدم وجلس، فلما قضى النبى صلى الله عليه وسلم صلاته عارض الرجل حتى لقيه، فقال يافلان ما منعك أن تجمع اليوم معنا، فقال يانبى الله قد جمعت، فقال أولم أرك تتخطى رقاب الناس. وفى حديث مسند أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له ما منعك أن تصلى معنا الجمعة، فقال، أو لم ترنى، قال قد رأيتك تأنيت وآذيت ،أى تأخرت عن البكور وآذيت بالحضور.

ولا يقعد إلى القصص فى يوم الجمعة فقد كُرِهَ ذلك، ولا فى حلقة قبل الصلاة فقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن عبد الله بن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن التحلق يوم الجمعة قبل الصلاة إلا أن يكون عالما بالله عز وجل يذكّر بأيام الله ويفقّه فى الدين، يتكلم فى الجامع بالغداة، فيجلس إليه، فيكون جامعا بين البكور إلى الجمعة وبين الاستماع إلى العلم.

وقد روينا عن بعض علماء السلف قال إن لله تعالى فضلاً من الرزق سوى أرزاق العباد لا يعطى من ذلك الفضل إلاّ مَنْ سأله عشية الخميس ويوم الجمعة. وفى الخبر المشهور أن فى الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل اللّه عز وجل فيها شيأ إلاّ أعطاه، وفى لفظ آخر لا يصادفها عبد يصلى . واختلف فى وقت هذه الساعة فقيل إنها عند طلوع الشمس، وقيل إذا قام الناس إلى الصلاة، وقيل عند الزوال ، ويقال مع الأذان، وقيل هى إذا صعد الإمام المنبر وأخذ فى الذكر، وقيل بعد العصر من آخر أوقاتها، وقيل عند غروب الشمس إذا تدلّى حاجبها الأسفل. وكانت فاطمة بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تراعى ذلك الوقت وتأمر خادمها أن ينظر إلى الشمس فيؤذنها بسقوطها فتأخذ فى الدعاء والاستغفار فى ذلك الوقت إلى أن تغرب الشمس ، وتخبر أن تلك الساعة هى المنتظرة، وتؤثره عن أبيها صلى اللّه عليه وسلم. فهذا جُمْل ما قيل فى هذه الساعة بروايات جاءت فى ذلك متفرقة حذفنا ذكرها للاختصار، فليتوخ هذه الأوقات وليتعهد الدعاء فيها والصلاة فيما صلح منها . وقد قال بعض العلماء إن هذه الساعة مبهمة فى جميع اليوم لا يعلمها إلا اللّه عز وجل، كأنها بمنزلة ليلة القدر مبهمة فى جميع شهر رمضان، وكأنها مثل الصلاة الوسطى فى جملة الصلوات الخمس، وقد قيل إنها تنتقل فى ساعات يوم الجمعة كتنقل ليلة القدر عند بعضهم فى ليالى الشهر، ذلك ليكون العبد طالبا إلى اللّه عز وجل وراغباً متضرعا مفتقرا فى جميع ذلك اليوم، فمن واصل الأوراد فيه وعَمّر بالذكر كل ساعة صادفها بإذن اللّه عز وجل، فإن لم يواصل الساعة فى يوم واحد فليواصلها فى جمع شتى، وقتاً على وقت على ترتيب أوقات يوم، فإنها تقع فى جميع الأوقات لامحالة. وليكثر الدعاء والتضرع فى وقتين خاصة، عند صعود الإمام المنبر إلي أن تقام الصلاة ويدخل فيها، وعند آخر ساعة وقت تدلّي الشمس للغروب، فهذان الوقتان من أفضل أوقات الجمعة. ويَقْوَى فى نفسى أن فى أحدهما الساعة المرجوّة. وقد اجتمع كعب الأحبار مع أبى هريرة، واجتمع رأى كعب أنها فى آخر ساعة من يوم الجمعة، فقال أبو هريرة كيف تكون آخر ساعة وقد سمعت النبى صلى اللّه عليه وسلم يقول لا يوافقها عبد يصلى ولات حين صلاة، فقال كعب ألم يقل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من قعد ينتظر الصلاة فهو فى صلاة، قال بلى، قال فذاك صلاة فسكت أبوهريرة فكأنه وافقه.

وليكثر من الصلاة على النبى صلى اللّه عليه وسلم فى يوم الجمعة وليلتها، وأقل ذلك أن يصلى عليه صلى اللّه عليه وسلم ثلثمائة مرة. وقد جاء فى الخبر من صلى علىّ فى يوم الجمعة

ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين سنة، قيل يارسول الله كيف الصلاة عليك، قال تقول اللهم صلّ على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمىّ، وتعقدها واحدة، فكيفما صلّى عليه بعد أن يأتى بلفظ ذِكْر الصلاة عليه فهى صلاة. والصلاة المشهورة هى التى رويت فى التشهد وإن جعل من صلاته عليه أن يقول اللّهم صل على محمد وعلى آل محمد، صلاةً تكون لك رضاء ولِحقّه أداءً، واعطه الوسيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته، واجزّه عنا ما هو أهله، واجزّه أفضل ما جزيت نبيا عَن أُمّته، وصلّ على جميع إخوانه من النبيين والصالحين يا أرحم الراحمين. تقول هذا سبع مرات ففى هذا فضل عظيم. ويقال من قاله سبع جُمَع فى كل جمعة سبع مرات وجبت له شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنْ زاد هذه الصلاة فهى مأثورة: اللّهم اجعل فضائل صلواتك وشرائف زكواتك وبركاتك ورأفتك ورحمتك وتحيتك، على محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين ورسول رب العلمين، قائد الخير وفاتح البِرّ ونبى الرحمة وسيد الأمة. اللّهم ابعثه مقاما محمودا تزلف به قربه، وتقر به عينه، يغبطه به الأولون والآخرون . اللّهم اعطه الفضل والفضيلة، والشرف والوسيلة، والدرجة الرفيعة والمنزلة الشامخة المنيفة. اللّهم أعط محمداً سؤله، وبلّغه مأموله، واجعله أول شافع وأول مُشفَّع. اللّهم عظّم برهانه، وثقّل ميزانه ، وأبلج حجته، وارفع فى أعلى المقربين درجته. اللّهم احشرنا فى زمرته، واجعلنا من أهل شفاعته، وأحينا على سُنّته، وتوفّنا على مِلّته، وأوردنا حوضه، واسقنا بكأسه، غير خزايا ولا نادمين ، ولا شاكين ولا مبدّلين، ولا فتّانين ولا مفتونين ، آمين يارب العالمين.

وليكثر من الاستغفار يوم الجمعة وليلتها، وأى لفظ ذكر فيه سؤال المغفرة فهو مستغفر، وإن قال اللّهم اغفرلى وتُبْ علىّ إنك أنت التواب الرحيم فهو أفضل، وإنْ قال ربٍّ اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت خير الراحمين، فحسن. واستحبُ له أنْ يقرأ ختمة يوم الجمعة، فإن ضاق عليه ذلك فليشفِع إليه ليلتها ليكون ابتداؤه من ليلة الجمعة. وإن جعل ختمه للقرآن فى ركعتى الفجر من يوم الجمعة، أو فى ركعتى المغرب ليلة الجمعة فحسن، ليستوعب بذلك كله اليوم والليلة. وإنْ جعل ختمه بين الأذان للجمعة والإقامة للصلاة ففيه فضل عظيم. ويستحب أن يصلى قبل الجمعة اثنتى عشرة ركعة وبعدها ست ركعات، وإذا دخل الجامع فليصل أربع ركعات يقرأ فيهن قل هو الله أحد مائتى مرة، في كل ركعة خمسين مرة، ففيه أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مَنْ فعله لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يُرى له، واذا دخل الجامع فلا يقعدن حتى يصلى ركعتين قبل أن يجلس، وكذلك إن دخل والإمام يخطب صلاهّما خفيفتين وإن سمعه،

لأمر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك، لأنه قد جاء في حديث غريب أن النبى صلى الله عليه وسلم سكت له حتى صلاّهما، فقال الكوفيون إنْ سكت له الإمام صلاهّما، ولعل سكوت رسول الله صلى الله عليه وسلم مخصوص له لوجوب قوله.

وروى ابن جريح عن عطاء عن ابن عباس وأبى هريرة قالا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمع أعطى نورا من حيث يقرأها إلي مكة، وغفر له إلى الجمعة الأخرى وفضل ثلثة أيام، وصلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح، وعوفي من الداء والدبيلة وذات الجنب والبرص والجذام وفتنة الدجّال.

واستحبُ أن يصلى يوم الجمعة أربع ركعات بأربع سور، سورة الأنعام وسورة الكهف وسورة طه ويس، فإن لم يحسن ذلك قرأ سورة يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وسورة الملك. ولا يدع قراءة هذه الأربع سور فى كل ليلة جمعة، ففى ذلك أثر وفضل كبير، فإن لم يحسن جميع القرآن قرأ ما يحسن منه، فذلك له ختمة، فقيل ختمة من حيث علمه. وقد كان العابدون يستحبون أن يقرؤا يوم الجمعة ألف مرة قل هو الله أحد، فإن قرأهافي عشر ركعات أو عشرين فهو أفضل من ختمة، وقد كانوا يصلون على النبى صلى الله عليه وسلم ألف مرة، ومن التسبيح والتهليل بالكلمات الأربع ألف مرة، وهذه ثلاثة أوراد حسنة فى يوم الجمعة، أعنى قراءة قل هو الله أحد والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم والتسبيح والتهليل، ألفاً ألفا، فلا يدَعَنّ ذلك، مَنْ رُزقها أو أحدها فإنه من أفضل الأعمال فى هذا اليوم. وإنْ صلّى يوم الجمعة قبل الزوال صلاة التسبيح وهى ثلثمائة تسبيحة فى أربع ركعات فقد أكثر وأطاب . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال صلّها فى كل جمعة مرة. وذكر أبو الجوزاء عن ابن عباس أنه لم يكن يدع هذه الصلاة كل يوم بعد الزوال، وأخبر عن فضلها ما يَجلّ وصفه، وإنْ قرأ المسبحات الست فى يوم الجمعة أوليلتها فحسن. وليس يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ السور بأعيانها إلاّ يوم الجمعة وليلتها، فإنّا روينا أنه كان يقرأ فى صلاة المغرب ليلة الجمعة قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد، وكان يقرأ فى صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة بسورة الجمعة وسورة المنافقين. وقدروى أنه كان يقرأ بهاتين السورتين فى صلاة الجمعة. وكان يقرأ في صلاة الغداة يوم الجمعة بسورة سجدة لقمان وسورة هل أتى على الإنسان. واستماعه إلى علم اليقين والمعرفة وحضور مجالس الذكر أفضل من صلاته، وصلاته أفضل من حضوره

مجالس القصاص. وروينا فى حديث أبى ذر حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة، وفي خبر آخر لأن يتعلم أحدكم بابا من العلم أو يعلمّه خير له من صلاة ألف ركعة. وفى خبر قيل يارسول الله ومن قراءة القرآن؟ فقال وهل ينفع القرآن إلا بعلم؟

والصلاة إذا عدم مجلس العلم بالله والتفقه فى دين الله عز وجل أزكى من حضور مجلس القِصَص ومن الاستماع إلى القُصّاص، فإن القِصَص كان عندهم بدعة، وكانوا يُخرجون القُصّاص من الجامع. روى أن ابن عمر جاء ذات يوم إلى مجلسه فى المسجد فإذا قَصّاص يقُص، فقال له قم من مجلسى ، فقال لا أقوم وقد جلست فيه، أو قال قد سبقتك إليه، قال فأرسل ابن عمر إلى صاحب الشرطة فأقامه، فلو كان ذلك من السُنّة لما حل لابن عمر أن يقيمه من مجلسه سيما وقد سبقه إلى الموضع. كيف وهو الذى روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقيم أحدكم أخاه من مجلسه ثم يجلس فيه، ولكن تفسّحوا وتوسّعوا. قال فكان ابن عمر إذا قام له الرجل من مجلسه لم يجلس فيه حتى يعود إليه، وروينا ثم يجلس فيه. وقد روينا أن قاصاً كان يجلس بفناء حجرة عائشة يقص، فأرسلت إلى ابن عمر أن هذا قد آذانى بقصصه وشغلنى عن سبحتى، قال فضربه ابن عمر حتى كسر عصا على ظهره ثم طرده.

وليحذر أن يمر بين يدىّ المصلّى وإن كان مروره لا يقطع الصلاة، ففى الخبر لأنْ يقف أربعين سنة خير له من أن يمر بين يدّى المصلى، وقد جاء فيه وعيد شديد، لأنْ يكون الرجل رماداً تذروه الرياح خير له من أن يمر بين يدّى المصلى. وقد سوّى فى ذلك بين المار والمصلى فى الوعيد، ففى حديث زيد بن خالد الجهنى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو يعلم المار بين يدّى المصلى والمصلى ما عليهما فى ذلك، لكان أن يقف أربعين خير له من أن يمر بين يدّيه. ولَيَدْنُ المصلى من اسطوانة أو جدار، فإذا فعل ذلك فلا يَدَعَنّ أحداً أن يمر بين يديه، وليدفعه ما استطاع. وفى حديث عبد الرحمن بن سعيد الخدرى عن أبيه قال فإنْ أبَى فليقاتله فإنما هو شيطان. وكان أبو سعيد يدفع من يمر بين يديه حتى يصرعه، فربما تعلّق به الرجل فاستعدى عليه مروان فيخبره أن النبى صلى الله عليه وسلم أمره بذلك، فإن لم يتفق له اسطوانة فليجعل شيأً بين يديه يكون طوله عَظْم الذراع، وقد قيل إن كان حبلا ممدودا فحاجز بينه وبين المارة. وقد قيل أربع من الجَفَاء: أن يبول الرجل قائما، أو يصلى فى الصف الثانى ويترك الأول فارغا، أو يمسح جبهته فى صلاته، أو يصلى بسبيل من يمر بين يديه. وقد كان الحسن يقول

تخطّوا رقاب الذين يقعدون على أبواب الجامع يوم الجمعة فإنه لا حرمة لهم. وليقرُب من الإمام وينصت ويسمع ويستقبله بوجهه، كذلك السُنّة، إلاّ أنْ يخاف أن يسمع أو يرى منكراً مِن لِبْس نقش سواد أو حرير أو ديباج، أو حمل سلاح ثقيل ولا يستطيع تغييره، فليبعد حينئذ فهو أسلم. ولا يلغو ولا يتكلم فى خطبة الإمام وإنْ بَعُد، ولا يجلس فى حلقة من يتكلم والإمام يخطب، ولا يقول لآخر اسكت ولكن يومئ إليه إيماء أو يحصبه بحصاة، فإن لغا والإمام يخطب بطلت جمعته. ولا يتكلم فى العلم فى خطبة الإمام. ومن لم يقرب من الإمام ولم يستمع فلينصت وإن بَعُد . كذلك المستحب. وقد روينا عن عثمان وعلىّ رضوان الله عليهما مَن استمع وأنصت فله أجران، ومن لم يستمع وأنصت فله أجر، ومن سمع ولغا فعليه وزران، ومن لم يستمع ولغا فعليه وزر واحد. وفى حديث أبى ذر لما سأل أبيّاً والنبى صلى الله عليه وسلم يخطب، فقال متى أُنزلت هذه السورة فأومأ إليه أن اسكت، فلما نزل النبى صلى الله عليه وسلم فقال له أُبَى اذهب فلا جمعة لك، فشكاه أبو ذر إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فقال صدق أبيّ. وكذلك جاء فى الخبر من قال لصاحبه والإمام يخطب أنصت أو مَهٍ فقد لغا، ومن لغا والإمام يخطب فلا جمعة له. وليقطع الصلاة إذا قام المؤذنون للأذان بين يدّى الإمام، فقد روى أبو إسحق عن الحرث عن علىّ رضوان الله عليهم تُكره الصلاة فى أربع ساعات: بعد الفجر، وبعد العصر، ونصف النهار، والصلاة والإمام يخطب. وقد جاء فى الاثر خروج الإمام يقطع الصلاة، وكلامه يقطع الكلام، وسجود العامة عند قيام المؤذنين للأذان قبل الخطبة ليس بسنّة، فإن وافق ذلك سجوده فى صلاته أو سجود قرآن فلا بأس أن يمتد فى الدعاء إلى فراغهم لأنه وقت مفضل، ولا أعرف فى ذلك أثراً غير أنه مباح. ومن العلماء من كره الصلاة فى المقصورة لأجل أنها قُصرت على السلطان وأوليائه، وذلك بدعة عند أهل الورع ابتُدعت فى المسجد لأنها غير مطلقة لجملة الناس، فلذلك نقل فى الخبر كان الحسن وبكر المزنى لايصليان فى المقصورة. وروى رأيت أنس بن مالك يصلى فى المقصورة، وعمران بن حصين أيضا، ومنهم من لم يكره ذلك. ورأيت فيه فضلاً لأجل السُنّة فى الدنو من الإمام واستماع الذكر، فإنْ أُطلقت للعامة زالت الكراهة عنها، وإنْ خُصّ بها أولياء السلطان تركت عليهم، فإنْ يصلى فيها فإن بعض العلماء كره الصلاة فى فناء المنبر من قبَل أنّ المنبر يقطع الصفوف، وكان عندهم أن تقدمة الصفوف إلى فناء المنبر بدعة. وكان الثورى يقول الصف الأول هو الخارج من بين يدّى المنبر. ومن خشى الفتنة والآفة فى قربه من الإمام بأن يسمع ما يجب عليه إنكاره، أو يرى مايلزم الأمر فيه أو النهى عنه من لبس حرير أو

لبس ديباج أو الصلاة فى السلاح الثقيل للشغل، كان بُعده من الصفوف المقدمة أصلح لقلبه وأجمع لهَمّه لقله ملاقاة الناس ولترك النظر إليهم، فالأصلح للقلب والأجمع للهمّ هو الأفضل حينئذ. وقد كان جماعة من العلماء والعبّاد يصلّون في أواخر الصفوف إيثاراً للسلامة. وقيل لبشر ابن الحارث نراك تُبكّر يوم الجمعة وتصلى فى أواخر الصفوف، فقال ياهذا إنما نريد قرب القلوب لاقرُب الأجساد . ونظر سفيان الثورى إلى شعيّب بن حرب عند المنبر يستمع إلى خطبة أبى جعفر، فلما جاءه بعد الصلاة قال شَغَل قلبى قُربك من هذا . هل أمنت أن تسمع كلاما يجب عليك إنكاره فلا تقوم به. ثم ذكر ما أحدثوامن لبس السواد. قلت يا أبا عبد الله أليس فى الخبر أدْنُ واستمع؟ فقال ويحك ذاك للخلفاء الراشدين المهديين، فأما هؤلاء فكلما بَعُدْتَ عنهم ولم تنظر إليهم كان أقرب لك إلى الله عز وجل . وقد روينا عن أبى الدرداء فضيلةً فى الصف المؤخر، قال سعيد بن عامر صلّيتُ إلي جنبه فجعل يتأخر فى الصفوف حتى كنا فى آخر صف، فلما صلّينا قلت له أليس يقال خير الصوف أوّلها؟ قال نعم إلا أن هذه أمة مرحومة منظور إليها من بين الأمم، وإن الله عز وجل إذا نظر إلى عبد منهم في الصلاة غفر لمن وراءه من الناس، فإنما تأخرتُ رجاء أن يغفر لى بواحد منهم ينظر الله إليه. وقد رفعه بعض الرواة أنّ أبا الدرداء سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول ذلك.

والصدقة مستحبة مفضلة يوم الجمعة خاصة فإنها تُضاعَف، إلاّ علَى مَنْ سأل والإمام يخطب وكان يتكلم في كلام الإمام فهذا مكروه. قال صالح بن أحمد سأل مسكين يوم الجمعة والإمام يخطب، وكان بجنب أبّى فأعطاه رجل قطعة ولم يعرفه ليناوله إياها، فلم يأخذها منه أبيّ. وقال ابن مسعود إذا سأل الرجل فى المسجد فقد استحق أن لا يعطى، وإذا سأل على القرآن فلا تعطوه. ومن العلماء من كره الصدقة على سؤال الجامع الذين يتخطوْن رقاب الناس، إلاّ أن يسأل قائما من غير أن يتخطى المسلمين، أو قاعداً فى مكان. وروينا عن كعب الأحبار مَن شهد الجمعة ثم انصرف يتصدّق بشيئين مختلفين من الصدقة، ثم رجع فركع ركعتين يتم ركوعهما وخشوعهما وسجودهما، ثم يقول اللّهم إنى أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم، وباسمك الذى لا إله إلا هو الحى القيّوم لا تأخذه سِنَة ولا نوم، لم يسأل الله عز وجل شيأً إلاّ أعطاه. وقد روينا عن بعض السلف على غير هذا الوصف قال من أطعم مسكينا فى يوم الجمعة ثم غدا وابتكر ولم يؤذ أحدا ، ثم قال حين يُسلّم الإمام، اللّهم إنى أسألك بسم الله الرحمن الرحيم الحى القيوم أن تغفر لى وترحمنى، وأن تعافينى من النار، ثم دعا بما بدا له

استُجيب له. وإنْ سمع قراءة الإمام لم يقرأ في صلاته إلاّ سورة الحمد لاغير، وإن لم يسمع قراءته قرأ سورةً مع الحمد إنْ أحب، فأما مَنْ سمع قراءة الإمام وقرأ معه سورة الجمعة أو غيرها من السور فقد خالف الأمّة وعصى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أعلمه مذهب أحد من المسلمين، فإذا سلّم من صلاة الجمعة قرأ وهو ثانٍ رجلَه قبل أن يتكلم الحمد سبع مرات، وقل هو الله أحد سبعا، والمعوّذتين سبعا سبعا، ففي ذلك أثر عن بعض السلف، أنّ من فعله عُصِمَ من الجمعة إلى الجمعة وكان ذلك حرزاً له من الشيطان، واستحبُ له أن يقول بعد صلاة الجمعة أللّهم ياغني يا حَميد، يامبدئ يامعيد، يارحيم ياودود، إغنني بحلالك عن حرامك، وبفضلك عمّن سواك. يقال من داوم على هذا الدعاء أغناه الله عز وجل عن خلقه، ورزَقَه من حيث لا يحتسب. وقد روى عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي بعد الجمعة ركعتين. وروى أبو هريرة أنه كان يصلي بعدها أربعا. وروى عليّ وعبد الله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي بعدها ستاً، فإذا صلّى العبد ست ركعات فقد استوعب جميع الروايات.

وأكرَهُ شراء الماء في المسجد للشرب أو لتسبيله لئلايكون مبتاعاً في المسجد، فقد كُرِهَ الشراء والبيع في المسجد، فإن بايعه أو دفع إليه القطعة خارجاً من المسجد وشرب أو سبّل في المسجد فلا بأس . وقد جاء عن بعض السلف أنه كَرِهَ الصلاة في رحاب الجامع، وعن بعض الصحابة أنه كان يضرب الناس ويقيمهم من الرحاب ويقول لا تجوز الصلاة في الرحاب، فهذا عندي على ضربين، وهو أن الصلاة في رحاب الجامع الزوائد فيه المتصلة بالصفوف المحيط بها حائط الجامع الأعظم كالصلاة في وسطه غير مكروهة. والصلاة في رحابه المتفرقة في أفنيته التي هي من وراء جُدُر الجامع كله مكروهة، وكذلك الصلاة في الطرقات المنفردة عن الجامع غير المتصلة بالصفوف لحجز طريق أو بعد مكان فلا يجوز. وهذا الذي كرهه من كان ينهى عن الصلاة فيه.

فإذا صلّى الجمعة انتشر في أرض الله عز وجل يطلب من فضل الله عز وجل. ومن الفضل طلب العلم واستماعه. ويقال هو مزيد يوم الجمعة للعالم والمتعلم. قال الله عز وجل وعلّمك مالم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيما . وقال الله تعالى ولقد آتينا داود منا فضلاً، يعني العلم، بدليل نظيرها من الآية الأخرى في قوله تعالى ولقد آتينا داود وسليمان علما، وقالا الحمد لله الذي فضّلنا . وروينا عن أنس بن مالك في قوله عز وجل فإذا قُضيت الصلاة فانتشروا في

الأرض وابتغوا من فضل الله، قال أمّا أنه ليس بطلب دنيا ولكنه عيادة مريض، وشهود جنازة، وتعلم علم، وزيارة أخ فى الله عز وجل، فإن الذكر بالعلم وتعليم الناس إياه. والتذكير بالله عز وجل والدعوة إليه فى يوم الجمعة له فضل على سائر الأيام، لأنه يوم المزيد، فللقلوب فيه إقبال وتحديد، وكذلك السعى إليه والاستماع له وحضور مجالس الذكر يوم الجمعة لا مجالس القُصّاص، أفضل من سائر الأيام. والمستمع شريك القائل فى الأجر. وقد قيل إنه أقرب للرحمة. وقد كره العلماء الجلوس إلى القُصّاص سيما يوم الجمعة خاصة، لأنهم يثبطون عن الغُدوّ إلى الجامع في الساعة الأولى والثانية لأن الكتاب ورد بالفضل فيهما، فمن اتفق له عالم بالله عز وجل يذكره به ويدله عليه، من علماء الآخرة الزاهدين فى الدنيا، يوم الجمعة غدوة فى الجامع أو بعد صلاة الجمعة ، جلس إليه واستمع منه. وإنْ حضر مُفْتٍ يتكلم بعلم الدين وكان العبد محتاجا إلى ذلك وجالسه فهو الأفضل ، فإنّ مجالس العلماء فى الجامع من زَيْن يوم الجمعة ومن تمام فضله. قال الحسن الدنيا ظلمة إلاّ مجالس العلماء. فإن لم يتفق له ذلك حيا مابين الصلاتين وهو الورد الخامس من النهار.

وتُستحب صلاة العصر فى الجامع إلا لسبب لا بد منه مانع، وإنْ قعد إلى غروب الشمس فهو أثوب للساعة المنتظرة من آخر النهار إذا أمن الفتنة والتصنّع والكلام فيما لا يعنيه. ويقال من صلّى العصر فى الجامع كان له ثواب حجة، ومَنْ صلّى المغرب كان له ثواب عُمرة، فإن خشى دخول الآفة عليه، أولم يأمن التصنّع والخوض فيما لا يعنيه انصرف إلى منزله، ذاكراً لله عز وجل، مفكراً في آلائه وحُسن نعمائه، فراعى غروب الشمس بالأذكار والتسبيح والاستغفار في منزله أو مسجد حّيه، فذلك حينئذ أفضل له. وقال بعض السلف أوفر الناس نصيباً يوم الجمعة من راعاها وانتظرها من الأمس، وأخس الناس منها نصيبا من يصبح يوم الجمعة فيقول إيش اليوم . وقد كان بعضهم يبيت ليلة الجمعة في الجامع لأجل صلاة الجمعة، ومنهم من كان يبيت ليلة السبت فى الجامع لمزيد الجمعة . وكثير من السلف من كان يصلى الغداة يوم الجمعة فى الجامع ويقعد ينتظر صلاة الجمعة لأجل البكور ليستوعب فضل الساعة الأولى ولأجل ختم القرآن. وعامة المؤمنين كانون ينحرفون من صلاة الغداة فى مساجدهم فيتوجهون إلى جوامعهم. ويقال أوّل بدعة حدثت فى الإسلام ترك البكور إلى الجوامع. قال وكنت ترى يوم الجمعة سَحَراً، وبعد صلاة الفجر، الطرقات مملوأة من الناس يمشون فى السُرُج، ويزدحمون ـا إلى الجامع كما ترون اليوم فى الأعياد، حتى دَرَسَ ذلك وقلّ وُجهل وتُرك. أَوَلاَ يستحى ن أن أهل الذمة يبكرون إلى كنائسهم وبِيَعهِم قبل خروجه إلي جامعه؟ أَوَلاَ يعتبر بأهل

الأطعمة المباعة فى رحاب الجامع، أنهم يغدون إلى الدنيا والناس قبل غدوّه هو إلى الله تعالى وإلى الآخرة؟ فينبغى أن يسابقهم إلى مولاه ويسارعهم إلى ما عنده من زلفاه.

ويجب أن يكون للمؤمن يوم الجمعة مزيد فى الأوراد والأعمال، وليتفرغ فيه لربه عز وجل ويجعله يوم آخرة، إنْ لم يكن له يوم السبت فيوم الجمعة فى الأوراد المتصلة والمزيد من الأذكار على المعلوم منها، فلا يكون الجمعة كالسبت فى تجارة الدنيا والشُغل بأسبابها. وأكره له التأهب ليوم الجمعة فى باب الدنيا من يوم الخميس من إعداد المأكول والترفه من النعمة والأكل والشرب، فقد روينا حديثاً من طريق أهل البيت فيه نظر، أن النبى صلّى الله عليه وسلم قال يأتى على أمتى زمان يتأهبون لجمعتهم فى أمر دنياهم عشية الخميس، كما يتأهب اليهود لسبتها عشية الجمعة. وإنما كان المؤمنون يتأهبون فيه للآخرة بالأوراد الحسنة ويزدادون من الأوراد المتصلة، وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله يقول من أخذ مهنأه من الدنيا فى هذه الأيام لم ينل مهنأه فى الآخرة منها يوم الجمعة. وقال أيضاً يوم الجمعة من الآخرة ليس هو من الدنيا. وقال بعضهم لولا يوم الجمعة ما أحببت البقاء فى الدنيا، فهو عند الخصوص يوم العلوم والأنوار، ويوم الخدمة والأذكار، لأنه عند الله عز وجل يوم المزيد بالنظر إليه فى المزار. وروينا حديثاً غريباً عن مجاهد عن ابن عباس، قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم دعوا أشغالكم يوم الجمعة فإنه يوم صلاة تهجد، وروينا عن جعفر الصادق قال يوم الجمعة لله عز وجل ليس فيه سفر، قال الله تعالى وابتغوا من فضل الله.

وما ذكرناه من الصلاة والسور المقروأة والصلاة على النبى صلّى الله عليه وسلم وجميع الذكر فى يوم الجمعة فإنه يستحب فى ليلتها وهى من أفضل الليالى، فلاَ يَدَعَنّ عن ذلك من وَجَدَ إليه سبيلاًفإنّ للصادق المريد فى كل وقت مفضل من الله عز وجل مزيداً، فإذا أحب الله تعالى عبداً استعمله فى الأوقات الفاضلة بفواضل الأعمال، وإذا مقت عبداً استعمله فى الأوقات المفضلة بسيئ الأعمال ليكون أوجع فى عقابه وأشد لمقته، لحرمانه بركة الوقت وانتهاكه حُرمة الوقت. ومما يختص به يوم الجمعة من الذكر والتمجيد بالأسماء فصول أربعة.

أولها الأربعون اسماً التى دعا بها إدريس صلّى الله عليه وسلم، خصّه الله تعالى بها، وذكر الحسن البصرى أن موسى صلّى الله عليه وسلم قد كان دعا بهن، وأنها كانت من دعاء محمد صلّى الله عليه وسلم. والفصل الثانى كان إبراهيم بن أدهم الزاهد يدعو بها كل يوم جمعة عشر مرات إذا أصبح وإذا أمسى، فكان ذلك من عمله فى يومه. والفصل الثالث روينا عن علىّ رضى

الله عنه، رواه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم أن الله عز وجل يمجّد نفسه فى كل يوم وليلة. والفصل الرابع تسبيحات أبى المُعْمر وهو سليمان التيمى الذى كان رأى الشهيد بعد قتله فى المنام، فقيل له ما أفضل ما رأيت هناك من الأعمال، فقال رأيت تسبيحات أبى المعتمر من الله عز وجل بمكان. فأما هذان الفصلان من تمجيد الرب سبحانه وتعالى نفسه وتسبيحات أبى المعتمر فقد ذكرناهما فى أول الكتاب فيما اخترنا من الأدعية المختارة وبعد صلاة الغداة وقبل غروب الشمس فى كل يوم، فاستثقلنا إعادتها ههنا، وأما الفصلان الآخران فنحن ذاكروهما.

ذكر دعاء إدريس النبى صلى الله عليه وسلم

حدثنا الحسن بن يحيى الشاهد، حدثنا القاسم بن داود القراطيسى، حدثنا عبد الله بن محمد القرشى، حدثنا محمد بن سعيد المؤذن، حدثنا سلام الطويل عن الحسن البصرى قال، لمّا بعث اللّه عز وجل إدريس إلى قومه علّمه هذه الأسماء، فأوحى الله إليه قلهن سراً فى نفسك ولا تُبْدهُن للقوم فيدعونى بهن، قال وبهن دعا فرفعه الله عز وجل مكاناً عليا، ثم علّمهن اللّه عز وجل موسى عليه السلام، ثم علمّهن الله عز وجل محمداً صلّى الله عليه وسلم وبهن دعا فى غزوة الأحزاب . قال الحسن وكنت مستخفياً من الحَجّاج فدعوت الله بهن فحبسه عنى، ولقد دخل علىّ ست مرات فأدعو الله بهن فأخذ الله عز وجل بأبصارهم عنى، فادعُ الله عز وجل بهن لالتماس المغفرة لجميع الذنوب ثم سل حاجتك من أمر آخرتك ودنياك فإنك تُعطاه إن شاء الل تعالى، فإنهن أربعون اسماً عدد أيام التوبة: سبحانك لا إله إلا أنت، يا رب كل شئ ووارثه ورازقه وراحمه، يا إله الآلهة الرفيع جلاله، يا الله المحمود فى كل فعاله، يا رحمن كل شئ وراحمه، يا حىّ حين لا حىّ فى ديمومة مُلكه وبقائه، يا قيوّم فلا يفوت شئ من عمله ولا يؤده، يا واحد، الباقى فى أول كل شئ وآخره، يا دائم فلا فناء ولا زوال لملكه، يا صمد من غير شبيه ولا شئ كمثله، يا بارئ فلا شئ كفؤه ولا مكان لوصفه، يا كبير أنت الذى لا تهتدى القلوب لوصف عظمته، يا بارئ النفوس بلا مثال خلا من غيره، يا زاكى، الطاهر من كل آفة تقدسه، يا كافى، الموسع لما خلق من عطايا فضله، يا نقياً من كل جوْر لم يرضه ولم يخالطه فعاله، يا حنّان أنت الذى وسِعْت كل شئ رحمة وعلماً، يا منّان ذا الإحسان قد عَم كل الخلائق منّة، يا ديّان العباد، كلٌ يقوم خاضعاً لرهبته، يا خالق مَن فى السموات والأرض، وكلٌ إليه مَعَادُه، يا رحيم كل صريخ ومكروب وغياثه ومعاده، ياتام فلا تصف الألسن كل جلال مُلكه وعزه، يا مبدع البدائع لم يبغ فى إنشائها عونا من خلقه، يا علاّم الغيوب فلا يفوته شئ من خلقه ولا يؤُده، يا حليم ذا الأناة فلا يعادله شئ من خلقه، يا معيد ما أفناه إذا برز الخلائق لدعوته من مخافته، يا حميد

الفعال ذا المَنّ على جميع خلقه بلطفه، يا عزيز المنيع الغالب على أمره فلا شئ يعادله، يا قاهر ذا البطش الشديد أنت الذى لا يطاق انتقامه، يا قريب المتعالى فوق كل شئ علو ارتفاعه، يا مذل كل جبار عنيد بقهر عزيز سلطانه، يا نور كل شئ وهُداه أنت الذى فَلَق الظلمات بنوره، يا عالى الشامخ فوق كل شئ علو ارتفاعه، يا قدوس الطاهر من كل سوء فلا شئ يعادله من خلقه، يا مبدئ البرايا ومعيدها بعد فنائها بقدرته، يا جليل المتكبر عن كل شئ فالعدل أمره والصدق وعده، يا محمود فلا تبلغ الأوهام كنه ثنائه ومجده، يا كريم العفو ذا العدل أنت الذى ملأ كل شئ عدله، يا عظيم ذا الثناء الفاخر وذا العز والمجد والكبرياء فلا يذل عزه، يا عجيب فلا تنطق الألسن بكنه آلائه وثنائه، يا غيّاثى عند كل كربة ويا مجيبى عند كل دعوة، أسألك اللّهم يا رب الصلاة على نبيك محمد صلّى الله عليه وسلم، وأماناً من عقوبات الدنيا والآخرة، وأن تحبس عنى أبصار الظالمين المريدين بى السوء، وأن تصرف قلوبهم عن شرّ ما يضمرون بى إلى خير مالا يملكه غيرُك، اللّهم هذا الدعاء ومنك الإجابة، وهذا الجهد وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله، وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وسلم.

ذكر دعاء إبراهيم بن أدهم

حدثنا أحمد بن الموصلى الوكيل بن الموكل، حدثنا جعفر بن نصير الخواص الخراسانى، حدثنى إبراهيم بن بشار خادم إبراهيم بن أدهم قال: كان إبراهيم بن أدهم يقول هذا الدعاء فى يوم الجمعة إذا أصبح، ويقوله إذا أمسى مثل ذلك، مرحباً بيوم المزيد، والصبح الجديد، والكاتب الشهيد، يومنا هذا يوم عيد، اكتب لنا ما نقول: بسم الله الحميد المجيد، الرفيع الودود، الفعّال فى خلقه ما يريد، أصبحت بالله مؤمنا، وبلقائه مصدقاً، وبحجته معترفاً، ومن ذنبى مستغفراً، ولربوبية اللّه خاضعاً، ولسوى الله عز وجل فى الإلهية جاحداً، والى الله فقيراً، وعلى الله متوكلاً، وإلى الله منيباً، أشهد الله، وأشهد ملائكته وأنبياءه ورسله وحملة عرشه، ومَن خَلَق ومن هو خالقه، بأنه هو الله لا إله إلا هو، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، صلّى الله عليه وسلم، وأن الجنة حق، والنار حق، والحوض حق، والشفاعة حق، ومنكر ونكير حق، ولقاءك حق، ووعدك حق، والساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور، وعلى ذلك أحيا وعليه أموت، وعليه أُبعث إن شاء الله. اللّهم أنت ربى لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك اللّهم من شرّ كل ذى شرّ. اللّهم إنى ظلمتُ نفسى فاغفر لى ذنوبى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدنى لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدى لأحسنها إلا أنت، واصرف اللّهم يا رب عنى سيئها، فإنه لا يصرف سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك والخير كله

بيديك، أنا لك وإليك، أستغفرك وأتوب إليك، آمنت اللّهم بما أرسلتَ من رسول، وآمنت اللّهم بما أنزلت من كتاب، وصلّى الله على سيدنا محمد النبى، وعلى آله وسلم كثيراً، خاتم كلامى ومفتاحه، وعلى أنبيائه ورسله أجمعين، آمين يا رب العالمين. اللّهم أوردنا حوضه، واسقنا بكأسه مشروباً روياً، سائغاً هنياً، لانظمأ بعده أبداً، واحشرنا فى زمرته غير خزايا ولا نادمين، ولا ناكثين ولا مرتابين، ولا مفتونين ولا مغضوباً علينا ولا ضالين. اللّهم اعصمنى من فِتَن الدنيا، ووفقنى لما تحب وترضى من العمل، وأصلح لى شأنى كله، وثبتنى بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، ولا تضلنى وإن كنت ظالماً. سبحانك سبحانك يا علىّ يا عظيم، يا بار يا يارحيم، يا عزيز يا جبار، سبحان من سبّحت له السموات بأكنافها، وسبحان من سبّحت له الجبال بأصواتها، وسبحان من سبّحت له البحار بأمواجها، وسبحان من سبّحت له الحيتان بلغاتها، وسبحان من سبّحت له النجوم فى السماء بأبراجها، وسبحان من سبّحت له الشجر بأصولها ونضارتها، وسبحان من سبّحت له السموات السبع والأرضون السبع، ومن فيهن ومن عليهن، سبحانك سبحانك يا حىّ يا حليم، سبحانك لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، تحيى وتميت وأنت حىّ لا تموت، بيدك الخير وأنت على كل شئ قدير.

فإذا دعا بهذه الأدعية الأربع يوم الجمعة فقد كمّل الله عز وجل عمله، وتمّم عليه فضله، فإذا عمل بخير ما ذكرناه من الأعمال والأذكار، واجتنب سئ ما ذكرناه من الأقوال والأفعال، فهو من أهل الجمعة، وممن له المزيد بها نصيباً موفوراً، وكان عمله الخالص وذكره الصادق عند الله عز وجل مشكوراً، وهذا آخر كتاب الجمعة وهيآتها وآدابها.

الفصل الثانى والعشرون

فيه كتاب الصيام وترتيبه، ووصف الصائمين، وذكر ما يستحب للعبد من الصيام، وطرقات الصائمين فى الصوم، ووصف صوم الخصوص

قال الله عز وجل واستعينوا بالصبر والصلاة .جاء في التفسير:الصبر يعنى الصوم ، وكان رسول اللهّ صلى اللّه عليه وسلم يسمى رمضان شهر الصبر، لأن الصبر حبس النّفس عن الهوى وإيقافها وحبسها على أمر المولى . وقد روينا عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه قال الصبر نصف الإيمان، والصوم نصف الصبر. وقال اللّه تعالى واستعينوا بالصبر، قيل معناه على مجاهدة النفس، وقيل على مصابرة العدو. وقال بعض العلماء استعينوا بالصبر على الزهادة فى الدنيا بالصوم، لأن الصائم كالزاهد العابد، فالصوم مفتاح الزهد فى الدنيا وباب العبادة للمولى، لأنه منع النفس عن ملاذها وشهواتها من الطعام والشراب، كما منعها الزاهد العابد

بدخوله فى الزهد وشغله بالعبادة، ولذلك جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فى المعنى، فقال إن الله عز وجل يباهى ملائكته بالشاب العابد فيقول: أيها الشاب التارك شهوته من أجلى، المبتذل شبابه لى، أنت عندى كبعض ملائكتى . وقال فى الصائم مثل ذلك، يقول عز وجل يا ملائكتى انظروا إلى عبدى، ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلى ـ ففى الصوم عون على مجاهدة النفس وقطع حظوظها ومنع عادتها، وفيه إضعاف لها ونقصان لهواها . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل كل عمل ابن آدم له إلاّ الصوم فإنه لى، وأنا أجزى به، فأضافه عز وجل إليه تفضيلا له وتخصيصا، كما قال تعالى وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً، وكما قال إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرّمها . فلما كانت المساجد أحب بيوت الدنيا إليه، وكانت مكة أشرف البلاد عنده، أضافها إلى ذكره وله كل شئ . كذلك لما كان الصيام أفضل الأعمال عنده وأحبها إليه، لأن فيه خُلُقا من أخلاق الصمدية، ولأنه من أعمال السرّ بحيث لا يطّلع عليه إلا هو أضافه لنفسه. وقيل ما فى عمل ابن آدم شئ إلاّ ويقع فيه قصاص ويذهب برَدِ المظالم إلاّ الصوم فإنه لا يدخله قصاص. ويقول الله عز وجل يوم القيامه هذا لى فلا يقتص منه أحد شيا . يقال مَا من عمل إلاّ وله جزاء معلوم إلاّ الصوم فإنه لا تعلم نفس ما جزاؤه، ويكون أجره بغير حساب يُفرغ له إفراغا ويجازَف مجازفة، وهو أحد الوجوه فى قوله عز وجل فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين جزاءً بما كانوا يعملون، قيل كان عملهم الصيام. وكذلك فى تأويل قوله عز وجل السائحون، قيل هم الصائمون كأنهم ساحوا إلى ربهم عز وجل بجوعهم وعطشهم، وتركوا قرّة أعين أبناء الدنيا من أكلهم وشربهم فآواهم مولاهم فيما أخفى لهم من قرّة أعين جزاءً لعملهم. وقال تعالى إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب، قيل الصائمون.

والصبر اسم من أسماء الصوم، فلما أخفى ذكره بالصوم فى نفسه أخفى الله عز وجل جزاءه إياه عن غير نفسه. وفى الحديث مَن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، فالصوم ذكر الله عز وجل وهو سر. ولست أستحب للعبد أن يزيد على إفطار أربعة أيام نَسَقاً فإن ذلك يقسّى القلب ويغيّر الحال ويولّد العادات ويفتّق الشهوات، ولأنه لم يؤمر ولم يندب إلى أن يوالى بين إفطار أكثر من أربعة أيام متوالية، وهى النحر وأيام التشريق.

ويستحب له أن يصوم يوماً ويفطر يوما ، أو يصوم يومين ويفطر يومين، وذلك صوم نصف الدهر، وإن أحب فليصمْ يومين ويفطر يوما وذلك صوم ثلثى الدهر، فإن أحب فليصم يوما

ويفطر يومين وهذا صيام ثلث الدهر. وهذه طريق الصائمين وفيها روايات حذفنا ذكر فضائلها للاختصار. فإن صام ثلاثا من أول الشهر وثلاثا من وسطه وثلاثا من آخره فحسن، فإن صام الأثانين والأخمسة والجُمع فذلك خير كبير، وأقل من ذلك أن يصوم الأيام البيض وأول يوم من الشهر وآخر يوم منه، وأفضل الصيام ما كان فى الأشهر الحرم، وأفضل ذلك ما وقع فى العشرين منها وهو المحرم وذو الحجة ، وبعد ذلك ما كان فى شعبان فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُكثر الصيام فيه حتى يصله بشهر رمضان، ولا يدع أن يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وليواظب على صوم الاثنين والخميس.

وفى الخبر أفضل الصيام بعد شهر رمضان وشهر الله المحرم. وصوم النصف الأول من شهر شعبان مستحب ، وقد كانوا يفطرون النصف الأخير منه. وقد روينا خبر إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى يدخل رمضان. وليفطر قبل رمضان أياما ، فإن وَصَلَ شعبان برمضان فجائز، ولا يجوز أن يستقبل رمضان بيومين أو ثلاثة إلاّ أنْ يوافق ذلك يوم اثنين أو خميس قد كان يصومه.

وقد كان بعض الصحابة يكره أن يصام رجب كله لئلا يضاهى به شهر رمضان، وكانوا يستحبون أن يفطروا منه أياما .

وقد كره قوم صيام الدهر كله، ووردت أخبار في كراهته، وقد تؤوّل ذلك بأنهم كانوا يصومون السنة كلها مع يوم العيد وأيام التشريق فوردت الكراهة لذلك. وإن كان يريد صلاح قلبه وانكسار نفسه وإستقامة حاله فى صوم الدهر فليصمه، فهو حينئذ كالواجب عليه إذا كان تقواه وصلاحه فيه، فقد روينا عن سعيد عن قتادة عن أبى تميمة الهجيمى عن أبى موسى الأشعرى قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صام الدهر ضيقت عليه جهنم وعقد تسعين، معناه لم يكن له فيها موضع. وقد دلّت الأصول على فضل صوم الدهر، وقد صامه طبقات من السلف الصالح من الصحابة والتابعين بإحسان، إلاّ أن يكون الرجل يرغب عن السنّة ولا يرى الرُخصة فى الإفطار فيُكرَه له صوم الدهر للمعاندة، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالسعة فى الدين، وأخبر الله عز وجل بأنه يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه، وفى لفظ آخر يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته. وقد دلت الأخبار على فضل صوم نصف الدهر بأن يصوم يوما ويفطر يوما ، وذلك ليكون العبد بين حالين، حال صبر وحال شكر. ومن ذلك ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم عُرضت علىّ مفاتيح خزائن الدنيا وكنوز الأرض

فرددتها فقلت أجوع يوما وأشبع يوما، أحمدك إذا شبعت وأتضرع إليك إذا جعت، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم أفضل الصيام صيام أخى داود عليه السلام، كان يصوم يوما ويفطر يوما. ومن ذلك منازلته عليه السلام لعبد الله بن عمرو فى الصوم وهو يقول إنى أريد أفضل من ذلك، حتى قال له النبى صلى الله عليه وسلم صُمْ يوماً وأفطر يوما، قال أريد أفضل من ذلك، قال لا أفَضلَ من ذلك.

وروى في الخبر صوم يوم من شهر حرام أفضل من صوم ثلاثين يوماً من غيره، وصوم يوم من رمضان أفضل من صوم ثلاثين يوما من شهر حرام، وفى حديثٍ من صام ثلاثة أيام من شهر حرام، الخميس والجمعة والسبت، كتب الله تعالى له عبادة سبعمائة عام، وقد روينا أن النبى صلى اللهّ عليه وسلم ما صام شهراً كاملا قط إلاّ رمضان، بل كان يفطر منه ، وقد وصل مرة شعبان برمضان، وفصل صوم رمضان مراراً من شعبان.

وما ذكرنا من أنواع الصوم فهو صيام جماعة من السلف الصالح، وفى كل منه ورد فيه فضائل يكثر ذكرها، وكذلك فى جميع مانذكره من أعمال القلوب والجوارح في الأيام والليالى ، وكذلك فيما نذكره من أخلاق الإيمان وأوصاف الموقنين، وقد جاءت فى أكثر ذلك فضائل ومثوبات إلاّ أنّا لم نقصد تعديد ذلك، وليس مذهبنا الاشتغال بذكر فضائل الأعمال ، إنما طريقنا تهذيب قلوب العمّال، فبطهارة القلوب وحقيقة الإيمان تزكو الأعمال وتقرّب العاملون من ذى الجلال ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلى العظيم.

ذكر صوم الخصوص من الموقنين

إعلْم وفّقك الله تعالى أن الصوم عند الصائمين هو صوم القالب، فأما صوم الخصوص من الموقنين فإن الصوم عندهم هو صوم القلب عن الهمم الدنّية والأفكار الدنيوية، ثم صوم السمع والبصر واللسان عن تعدّى الحدود، وصوم اليد والرجل عن البطش والسعى فى أسباب النهى، فمن صام بهذا الوصف فقد أدرك وقته فى جُملة يومه، وصار له فى كل ساعة من نهاره وقت، وقد عمر يومه كله بالذكر. ولمثل هذا قيل نوم الصائم عبادة ونَفَسُه تسبيح. وقد قرن الله عز وجل الاستماع إلي الباطل والقول بالإثم إلى أكل الحرام، ولولا أن فى المسموعات والمقولات حراماً على المستمع والإصغاء إليه، وحراما على القائل النطق به، ما قرنهما إلى أكل الحرام وهو من الكبائر، فقال تعالى سمّاعون للكذب أكاّلون للسُحت، وقال سبحانه وتعالى لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السُحت – فالعبد الحافظ لحدود الله عز وجل إنْ أفطر بالأكل

والجماع فهو صائم عند الله فى الفضل للاتباع ، ومن صام من الأكل والجماع وتعدّى الحدود وأضاع فهو مفطر عند الله عز وجل صائم عند نفسه ، لأن ما أضاع أحب إلى الله عز وجل وأكثر مما حفظ . ومثّل من صام من الأكل وأفطر بمخالفة الأمر بسائر الجوارح مثل من مسح كل عضو من أعضائه فى وضوئه ثلاثا ثلاثا ثم صلّى ، فقد وافق الفضل فى العدد إلاّ أنه تارك للفرض من الغُسل ، فصلاته مردودة عليه لجهله وهو مغتر بفعله. ومثّل من أفطر بالأكل وصام بجوارحه عن النهى مثّل من غسل كل عضو من أعضائه فى وضوئه مرة مرة فهو تارك للفضل فى العدد إلاّ أنه مُكمّل للفرض مُحسن فى العمل ، فصلاته متقبلة لإحكامه للأصل ولعمله بالعلم . ومثّل من صام من الأكل والجماع وحفظ جوارحه عن الآثام كمثل من غسل كل عضو ثلاثا ثلاثا فقد تمم الفرض وأحسن بتكملة الفضل، فهذا كما قال تعالى تماما على الذى أحسن ، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الوضوء كذلك – هذا وضوئى، ووضوء الأنبياء من قبلى، ووضوء أبى ابراهيم عليه السلام. وقد قال الله تعالى ملة أبيكم إبراهيم ، أى عليكم بها فائتمّوا واقتدوا به فيها . وقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر . وجاء فى الخبر أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجهدهما الجوع والعطش فى آخر النهار حتى كادتا أن تتلفا ، فبعثتا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذناه فى الإفطار ، فأرسل إليهما قدحاً وقال قل لهما قيآ فيه ما أكلتما ، قال فقاءت إحداهما نصفه دما غبيطا ولحما عريضا ، وقاءت الأخرى مثل ذلك حتى ملأتاه ، فعجب الناس من ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتان صامتا عما أحلّ الله عز وجل لهما ، وأفطرتا على ما حرّم الله عز وجل عليهما . قعدت إحداهما إلى الأخرى فجعلا يغتابان الناس ، فهذا ما أكلا من لحومهم .

وكان أبو الدرداء يقول يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم ، يعيبون صوم الحمقى وسهرهم ، ولَذرةٌ من ذى يقين وتقوى أفضل وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المغترّين . وكل محظور عليك أن تتفوه به فمحظور عليك أن تستمع إليه . وكل حرام عليك أن تفعله فمكروه أن تنظر إليه أو يخطر ببالك . وقد سوّى الله عز وجل بين المستمّع والقائل فى قوله تعالى إنكم إذاً مثلهم.

ومثل الصائم مثل التوبة لأن الصبر من أوصافها، وإنما كانت التوبة مكفّرة لما سلف من السيآت لأجل أنه صبر عما سلف من سىء العادات، ثم اعتقد ترك العوْد إلى مثل ما سلف بصيانة جوارحه التى كانت طرائق المكروهات، كذلك كان الصيام جُنّة من النار، وفضيلة من

درجات الأبرار إذا صبر عليه الصائم، فحفظ جوارحه فيه من المآثم، فإذا أمرحها فى الآثام كان كالتائب المتردد الناقض للميثاق، لم تكن توبته نصوحا، ولا كان صوم هذا صائما وصحيحا. ألاّ ترى إلي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم الصوم جنة من النار ما لم يخرقها بكذب أو غيبة – وأمره في قوله عليه السلام – إذا كان صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل، وإنْ امرؤ شاتمه فليقل إنى صائم. وفى لفظ آخر لا يجعل يوم صومه ويوم فطره سواء، أى يتحفظ فى صومه لحرمته. وفى خبر آخر الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته، فَحفظ الأمانة من صيانة الجوارح، لقول النبى صلى الله عليه وسلم لما تلا هذه الآية إن الله يأمركم أنْ تؤدوا الأمانات إلى أهلها – وضع يده على سمعه وبصره فقال السمع أمانة، والبصر أمانة، فذلك مجاز قوله فليقل إنى صائم، أى يذكر الأمانة التى حمل فيؤديها إلى أهلها. ومن حفظ الأمانة أن يكتمها، فإن أفشاها من غير حاجة فهى خيانة، لأن مودعها قد لا يحب أن يظهرها. وحقيقة حفظ السر نسيانه، وضياع السر ان يكثّر خُزّانه، فحقيقة الصائم أن يكون ناسياً لصومه لا ينتظر الوقت شغلا عنه بالمؤقت .

الفصل الثالث والعشرون
فيه كتاب محاسبة النفس ومراعاة الوقت

قال الله عز وجل ونضع الموازين القسطَ ليوم القيامة إلى قوله آتينا بها وكفى بنا حاسبين، وقرئت آتينا بها ممدودة أى جازينا بها ، فالتخويف بهذا الحرف أشد وأبلغ . وقال تعالى يومئذ يصدر الناس أشتاتا لِيُرَوْا أعمالهم الآية . وأوصى أبو بكر عمر رضى الله عنهما عند موته فقال إنّ الحق ثقيل وهو مع ثقله مرىء ، وإنّ الباطل خفيف وهو مع خفته وبيء ، وإنّ لله عز وجل حقاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وحقاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وإنك لو عدلت على الناس كلهم وجُرْتَ على واحد منهم لمال جَوْرك بِعَدْلِك ، فإنْ حفظت وصيتى لم يكن شىء أحب إليك من الموت وهو مدركك ، وإنْ ضيعت وصيتى لم يكن شىء أبغض إليك من الموت ولن تُعْجِزه . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحَاسَبوا ، وزنوها قبل أنْ توزنوا ، وتزينوا للعَرْض الاكبر على الله تعالى يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية ، وإنما خفّ الحساب فى الآخرة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وثقلت موازين قوم فى الآخرة وزنوا أنفسهم فى الدنيا ، وحقّ لميزان لا يوضع فيه إلاّ الحق أن يكون ثقيلا ، فمحاسبة النفس تكون بالورع ، والموازنة تكون بمشاهدة اليقين ، والتزين للعرض الأكبر يكون بمخافة المَلِك الأكبر ، وهو حقيقة

الزهد .

وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا ذر فقال اتق الله أينما كنت واتْبع السيئةَ الحسنةَ تمحها، وخالقْ الناس بخُلق حسن . ووجدتُ هذه الوصية فى كتاب الله عز وجل لعباده بقوله عز وجل ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم ، أنْ اتقوا الله. والكلمة الثانية فى قوله تعالى ويدرؤن بالحسنة السيئة ، أى يدفعون بعمل الحسنة ويتبعونها السيئة المتقدمة تُكفِّرها ، والكلمة الثالثة فى قوله تعالى وقولوا للناس حُسْنا . وقد أخبر الله عز وجل عن وصية عباده الصالحين بثلاث، فقال إن الإنسان لفى خسرانٍ ونقص ، بفوت أوقاته وفقد أرباحه ، ثم استثنى فقال إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وقال فى الوصف الثالث وتواصوا بالمرحمة.

واتباع الحق بمخالفة الهوى فيه الصلاح ، إذ فى موافقة الهوى الفساد . والصبر قوام الأمر ، وبمقداره يكون الربح . والرحمة للخلق باب الرحمة من الخالق ومفتاح حُسن الخلُق ، ومعها حسن الظن وسلامة القلب ، وعندها ينتفى الحسد والغل ويوجد التواضع والذل ، وهذا وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين اختارهم لصحبة نبيه عليه السلام وأنزل عليهم السكينة وأيدهم بروح منه ، فقال رحماء بينهم ، وقال تعالى فى حقيقة الرحمة واخفض لهما جناح الذُل من الرحمة. وقال فى مثله عن وصف أحبابه لإخوانهم أذلة على المؤمنين، فهذه الثلاثة مفاتيح ، رقة القلب ومغالق القسوة ، وفى الرقة الإقبال على الله عز وجل وعلى الدار الآخرة ، والتيقظ لأمره والتفكر فى وعده ووعيده ، وفى القسوة الإعراض وطول الغفلة ، فمحاسبة النفس تكون بالورع ، وموازنتها تكون بمشاهدتها عين اليقين ، والتزين للعَرْض الأكبر يكون بمخافة المَلِك الأكبر ، وهو حقيقة الزهد .

وروينا عن علىّ رضى الله عنه : أما بعد فإن المرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت مالم يكن ليدركه ، فما نالك من دنياك فلا تُكثرنّ به فرحا ، وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفاً ، وليكن سرورك بما قدّمت ، وأسفك على ما خَلّفت ، وشُغلك لآخرتك، وهمُك فيما بعد الموت . وقال أيضا : الهوى شريك العمى ، ومن التوفيق الوقوف عند الحيرة، ونِعْم طاردا الهمّ اليقين وعاقبة الكذب الذم ، وفى الصدق السلامة . رُبّ بعيد أقرب من قريب، وغريب لم يكن له حبيب ، والصديق من صدق غيبه ، ولا يعدمك من حبيب سوء الظن . نعم الخلق التكرم ، والحياء سبب كل جميل ، وأوثق العُر التقوى ، وأوثق سبب أخذت به نفسك سببٌ بينك وبين الله عز وجل .

إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ، والرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك ، فإن لم تأته أتاك ، وإن كنت جازعا على ما أتلفت من يديك فلا تَجْزَعَنّ عَلَى ما لم يصل إليك ، واستدلل على ما لم يكن بما كان ، فإن الأمور أشباه .

وقال عبد الله بن عباس لكل شيء آفة ، وآفة العلم النسيان، وآفة العبادة الكسل ، وآفة الظُرف الصلف ، وآفة التجارة الكذب ، وآفة السخاء التبذير ، وآفة الجمال الخُيَلاء ، وآفة الدين الرياء ، وآفة الإسلام الهوى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم آفة أمتى الدينار والدرهم . وروينا عن وبرة السلمى عن مجاهد قال أوصانى ابن عباس بخمس لَهُنّ أحسن من الدرهم الموقوف ومن الذهب الموصوف . قال لا تتكلمن فيما لا يعنيك، فإنه أقرب لك من السلامة، ولا آمن عليك الخطأ ، ولا تتكلمن فيما يعنيك حتى ترى له موضعا ، فرُبَّ متكلم فيما يعنيه قد وضعه فى غير موضعه فلقى عنتا ، ولا تمارين حليما ولا سفيها ، أما الحليم فيقليك، وأما السفيه فيؤذيك ، واخلف أخاك إذا غاب عنك بمثل ما تحب أن يخلفك به إذا غبت عنه ، واعفه مما تحب أن يعفيك منه ، واعمل بعمل رجل يعلم أنه مكافأ بالإحسان مأخوذ بالإساءة .

وفى وصية العباس لابنه عبد الله قال يا بنى إنى أرى هذا الرجل يُقدّمك على الأشياخ، ويكرمك ، فاحفظ عنى هذه الخصال ، لا تفشينّ له سراً ، ولا تعصينّ له أمراً، ولا تغتابنّ عنده أحداً ، ولا يطّلعنّ منك على خيانة ، ولا يجرّبن عليك كذبة . وقال يوسف بن أسباط كان يقال ثلاث من كنّ فيه فقد استُكمل إيمانه – من إذا رضى لم يخرج رضاه إلى باطل ، وإذا غضب لم يخرج غضبه عن حق ، وإذا قدر لم يأخذ ما ليس له. وقال سرى بن المغلس ثلاث يستبين بهن اليقين ، القيام بالحق فى مواطن الهَلَكة ، والتسليم لأمر الله عز وجل عند نزول البلاء ، والرضا بالقضاء عند زوال النعمة، نعوذ بالله منه. وقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه ، لا يخاف فى الله لومة لائم ، ولا يرائى بشيء من عمله، وإذا عُرِضَ عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا . وفى الخبر المشهور ثلاث منجيات وثلاث مهلكات، فأمّا المنجيات فخشية الله فى السرّ والعلانية ، وكلمة العدل فى الرضا والغضب، والقصد فى الغنى والفقر. وأمّا المهلكات فشحٌ مطاع، وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه. وروينافى الخبر التكرّم التقوى، والشرف التواضع ، والغنى اليقين. وفى الحديث الآخر الإيمان عريان ولباسه التقوى ، وزينته الحياء ، وثمرته العلم . وفى حديث عمار أسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كفى بالموت واعظاً ، وكفى بالخشية علما ، وكفى باليقين غنى،

وكفى بالعبادة شُغلا.

وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الخطباء، وخطيب الخطباء، وحكيم الحكماء، فى خطبة الوداع كلمات جامعات موجزات فى الوعظ والتذكرة والتزهد والتبصرة، وينتظم جميع معانى ما قيل فى معناه، رواه أبان بن عياش عن أنس بن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب على ناقته فقال – يا أيها الناس، كأنّ الموت فيها على غيرنا كتب، وكأنّ الحق فيها على غيرنا وجب، وكأنّ من نشيّع من الأموات سُفْر عما قليل إلينا راجعون، نبوّئُهم أجداثهم ونأكل تراثهم، كأنّا مخلدون بعدهم، قد نسينا كل واعظة وأمِنّا كل جائحة. طوبى لمن شغله عيبُ نفسه عن عيوب الناس، وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية، ورحم أهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة. طوبى لمن أذلّ نفسه ، وحَسُنت خليقته، وصلُحت سريرته، وعزَلَ عن الناس شرّه . طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله ، وسعته السنّة ولم يعدُها إلى بدعة .– وقد رُوى عنه صلى الله عليه وسلم حديث جامع لهذه المعانى المبثوثة ، مختصر فى اللفظ والمعنى ، يقال أنه نصف العلم ، وهو قول مِنْ حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. وفى حديث آخر هو نصف الورع ، قوله صلى الله عليه وسلم دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الإثم حوّاز القلوب ، أى دع ما تشكّن فيه من قول أو فعل، فإن فيه غنيمة أو سلامة، إلى شىء أنت على يقين من الفضيلة فيه أو السلامة معه ، وما حزّ فى قلبك ولم ينشرح له فدعه فإن ذلك إثم وإن قل ودق .

وقد روينا عنه صلى الله عليه وسلم فى الوصف المبسوط من أوصاف المؤمنين كوصف الله تعالى أولياءه فى الكلام المشروح، أنه بينا هو جالس صلى الله عليه وسلم بين أصحابه إذ سجد فأطال ثم رفع رأسه مادًا يديه فقال – اللّهم أكرمنا ولا تُهنا ، وزدنا ولا تُنقصنا، وأعزّنا ولا تُذلنا . قلنا وما ذاك يا رسول الله، قال أُنزلت علىّ آيات مَنْ أقامها دخل الجنة ، ثم تلا علينا قد أفلح المؤمنون إلى آخر العشر. وروينا عنه فى حديث مُجْمَل أن رجلا سأله فقال يا رسول الله متى أعلم أنى من أهل الجنة ، وفى لفظ آخر أنى مؤمن حقا ، فقال إذا كنت بهذه الأوصاف ، ثم تلا عليه قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم إلى آخر النعوت . وروينا عنه صلى الله عليه وسلم فى الوصف الجامع المختصر كوصف الحكيم الاكبر مَنْ صلح له من عباده بالإخلاص فى التوحيد والعمل ، فقال صلى الله عليه وسلم لو لم تنزل علىّ إلاّ هذه الآية كانت تكفى، ثم قرأ آخر سورة الكهف ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا إلى آخرها، فكان هذا فصل

الخطاب وبلاغاً لأولى الألباب ، فالعمل الصالح الإخلاص فى العبادة، ونفى الشرك بالخلْق هو اليقين بتوحيد الخالق . وقد قال الله وهو أحسن القائلين فى وصف أوليائه الخائفين إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون، إلى قوله وهم لها سابقون ، فوصفهم بسبع مقامات جامعات بالغات ، تنتظم بمقامات أهل المحاسبة ، وتستحوذ على معانى أحوال أهل المراقبة، افتتحها بالخشية والإشفاق، وختمها بالوَجَل والإنفاق ، وجعل موجبها اليقين وهو الذى رَجَحَت به موازين المتقين ، صيّره آخر وصفهم ونهاية نعتهم ، وهو قوله تعالى إنهم إلى ربهم راجعون ، أى لأجل يقينهم بمرجعهم إليه خافوه وأشفقوا وآمنوا به وأخلصوا وأتوه نفوسهم وأموالهم، فهذا كقوله فى الكلام المختصر واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشّر المؤمنين، فللخائفين الأمن من الخوف عند اللقاء ، وحسن المنقلب، والبشرى بالقرب لديه والزلفى، فصورة المحاسبة أن يقف العبد وقفة عند ظهور الهمّة وابتداء الحركة ، ثم يميز الخاطر وهو حركة القلب والاضطراب وهو تصرف الجسم، فإن كان ما خطر به الخاطر من الهمّة التى تقتضى نية أو عقدا أو عزما أو فعلا أو سعيا ، إنْ كان لله عز وجل وبه، وفيه معنى لله عز وجل، أى خالصا لأجله، ومعنى به أى بمشاهدة قربه لا بمقارنة نفسه وهواه، ومعنى فيه أى فى سبيله وطلب رضاه عنه، وما ندب عنده أمضاه وسارع فى تنفيذه، وإنْ كان لعاجل دنيا أو عارض هوى أو لهو وغفلة سَرَى بطبع البشرية ووصفُ الجبلّية نفاه، وسارع فى نفيه ولم يمكّن الخاطر من قلبه بالإصغاء إليه والمحادثة له، فيولّد فيه هَمّاً ردّيا يصعُب عليه بعد حين طرْحه ، وينتج منه فكراً دنيّاً يعسُر بعد وقت نفيُه، ويؤثر ذلك فى قلبه أثراً يستبين له بعد حينٍ فعلُه . ومعنى قولنا إنْ كان لله تعالى، أى خالصا لأجله، ومعنى قولنا به أى بمشاهدة قُربه لا بمقارنة نفسه ووصفه وهواه، ومعنى قولنا فيه أى فىْ سبيله وطلب ما عنده، لا لأجل عاجل حظه. فإن اشتبه عليه الخاطر فلم ينكشف له ما ورد به أمحمود هو لله عز وجل، فيه رضاه وعلى العبد فيه سبق وتنفيذ، أم مكروه وليس لله فيه محبة ، وللعبد في نفيه مزيد وقربه ، فيكون إشكال ذلك لأحد معان ثلاث – ضعف يقين عن نقص معرفة بالمبتلى ، أو قلة علم عن جهل بغامض الحكم الباطل ، أو لغلبة هوى كامن فى النفس متولد من طبائع الحس . وقد قال بعض العلماء ليس العالم الذى يعرف الخير من الشر ، هذا العاقل يعرفه ، ولكن العالم من يعرف خير الشرّين ، يعنى يفعله إذا اضطر إليه ويعرف شر الخيرّين، يعنى فاجتنبه لما يؤل إليه.

واعلم أن حكم الله فيما اشتبه من الأمور والإمساك والوقوف ، وأنْ لا يقدم العبد على ذلك بعقد ولا عزم إن كان من أعمال القلوب ، ولا يمضى ذلك بفعل ولا سعى إنْ كان من عمل

الجوارح ، بل يقف ويوقف الأمر حتى يتبين له. وهو صورة الورع لأن الورع هو الجبن والتأخر عن الإقدام على المشكلات ، وعن الهجوم فى الشبهات ، لا بقول ولا بفعل ولا بعقد حتى تنكشف ، وانكشافها بغامض العلم لغموضها ، وتدقيق معرفة المعانى لدقتها وخفائها ، كما جاء فى الخبر أعلم الناس أعرفهم بالحق إذا اختلف الناس. وعن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل يحب البصير الناقد عند ورود الشبهات ، والعقل الكامل عند هجوم الشهوات . وجاء عن ابن مسعود فى وصف كثرة الشبهات أنتم اليوم فى زمانٍ خيركم فيه المسارع ، وسيأتى عليكم زمان يكون خيركم فيه المُثَّبت. كما وقف طائفة من الصحابة عن القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أُشكل عليهم الحال ، منهم سعد وابن عمر وأسامة ومحمد بن مسلمة وغيرهم، فمن لم يتوقف عند الشبهات وأقدم عليها كان متّبعاً لهواه معجباً برأيه، وهذا من معنى الخبر الذى جاء فى ذم من كان هذا وصفه، فإذا رأيت شُحّا مطاعا وهوىً متبعاً وإعجابَ كلِ ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك، فلم يذم بوجود الشُحّ لأنه صفة النفس، وإنما ذم من أطاع النفس فى شحها بإمساك محبوبها على إيثار محبة الله عز وجل من الإنفاق ومثله، وهوى متبع فلم يُعَب بوجود الهوى لأنه روح النفس مستكنٌ فيها ، وإنما عِيب باتباعه، وكذلك قوله وإعجاب كل ذى رأى برأيه لم يُنقصه بوجود رأيه مما رآه من الأمر، لأنه نتيجة عقله وثمرة فهمه، وإنما نقصُه بنظره إليه وإدلاله به دون سبق نظره إلى من أراه وبنورٍ هداه، وبإيثار رأيه على رأى من هو أعلم منه، أو بأن يُزرى على رأى غيره افتخاراً برأيه. وقد قال الله عز وجل فلا تزكّوا أنفسكم. وقد وصف أهل الرأى من أوليائه فى قوله وعز وجل إنّ فى ذلك لآيات للمتوسمين. وقال تعالى على بصيرة أنا ومن اتبعنى. وجاء فى الأثر ما رآه المؤمنون حَسَنًا فهو عند الله حسن، وما رآه المؤمنون قبيحا فهو عند الله قبيح. وجاء أنتم شهداء الله فى أرضه.

وعن بعض السلف أفضل العبادة الرأى الحسن، فأمّا ما أُشكل لتجاذب الأمثال ولم يتبين لك إلى أى مَثَل ترده، فالورع أن تقف ولا تمضى حتى ينكشف. وأمّا ما اشتبه لقصور العلم بالاستدلال فالعلم فيه أن تعرف الأصلين من الحرام والحلال ثم ترده إلى أشبههما به، وهذا ظاهر مثل ما أحلّت طائفة النظر إلى الغلام الجميل لأنه ذكر فتحتاج إلى أن ترده إلى أحد الأصلين لأنه مشتبه. قال الله عز وجل انظروا إلى ثمره إذا أثمر، وقال قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم، فكان هذا الأصل أشبه لوجود الجنس. ومثله الاستماع إلى القصائد، أى إنشاء شعر المباح، فكان الاستماع إلى القرآن حلالا ، والاستماع إلى الغناء حراما، وكانت القصائد أشبه، فكرهناه لغير أهله. وكذلك القول فى تلحين القرآن إذا جاوز الحدّ فى مد المقصور

وقصر الممدود مكروه لشبهه بالأغانى. ومثل لبس القطنْ ولبس الحرير فكرهنا لبس الملحم والعمل به لأنه بالحرير أشبه لما فيه منه. فأمّا الإقدام على الأمور الغامضة مما لم ينكشف للأسماع فلم يظهر للأبصار، فإن القلوب تسأل عن عقود سوء الظن بها والقطع بظاهر الأمر عليها، وهو معنى قول اللّه عز وجل عن قَفْوِ ما لم يبين علمه، إذ لم يجعل من علم العبد وتهدده عليه بمساءلة الجوارح عنه فى قوله تعالى ولا تقفُ ما ليس لك به علم، أى لا تتبع ولا تجسس أثر ما لم تعلم، فتشهد عليه بسمع أو رؤية أو عقد قلب، إذ حقيقة العلم السمع والمشاهدة، فلذلك قال إنّ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا. وكذلك قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث.- فمن اشتبه عليه الأمر فقطع به متّبع للهوى، ومن تفرّس فى فعل أو أمر غاب عنه حقيقة فأخبر به وأظهره على صاحبه فقد أساء. كيف وقد جاء فى الخبر من حدّث بما رأته عيناه أو سمعت أذناه كتبه اللّه عز وجل من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا. هذا لكشف ستر اللّه على عباده ومحبته للساترين منهم. ولذلك كان من دعاء أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه ألّهم أرِنا الحق حقاً فنتبعه، والباطل باطلاً فنجتنبه، ولا تجعل ذلك علينا متشابها فنتبع الهوى.

وكذلك روينا عن عيسى عليه السلام إنما الأمور ثلاثة، أمر استبان لك رشده فاتّبعه، وأمر استبان غيه فاجتنبه، وأمر أُشكل عليك فَكِلْه إلى عالمه. وقد كان من دعاء علىّ رضى اللّه عنه ألّلهم إنى أعوذ بك أن أقول فى العلم بغير علم - فنعمة اللّه سبحانه وتعالى فى كشف الباطل باطلاً وبيان الضلال ضلالاً مثل نعمه فى إظهار الحق وبيان الصدق، لأنه باب من اليقين، ولذلك تجمّل اللّه به على نبيّه صلىّ اللّه عليه وسلم، وجعله من تفصيل آياته فى قوله سبحانه وتعالى وكذلك نفصّل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين - فنصب سبيل على إضمار اسمه، ورفعه على كشف دلالاته وتبيان طرقه. وقد وعد اللّه ذلك للمتقين وقدّمه على تكفير السيآت والمغفرة، وأخبر أن الناس من الفضل العظيم فى قوله عزّ وجل يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا اللّه يجعل لكم فرقانا ويكفّر عنكم سيآتكم، أى نوراً فى قلوبكم تفرقون به بين الشُبهات، ومثله ومن يتق اللّه يجعل له مخرجا، أى من كل أمر أُشكل على الناس، ورَزَقَه من حيث لا يحتسب علماً بغير تعليم، بل إلهام وتوفيق من لدُنْ الخبير العليم. وقد وعد ذلك المؤمنين عند اختلاف العلماء للبغى بينهم وهو الكبر والحسد، وحَرّم ذلك المنافقين الذين لا يصدّقون بالآيات، فقال عز وجل فى ذلك وما اختلف فيه إلاّ الذين أتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم، فهدى اللّه الذين آمنوا فيه من الحق بإذنه - فصُنع الهداية للحق أن يكشف الحق إذ أهدى التقىّ له ما يبدىء الباطل للابتلاء،

وما يعيد على العبد من الأحكام. وقد يكون الباطل اسما للعدوّ ويكون وصفا للنفس. ألَم تسمع قوله عز وجل جاءالحق وما يبدىء الباطل وما يعيد، أى لمّا جاء الحق أبدى الباطل وأعاده فأظهر حقيقة الأمر بدأً وعوْداً. وقد قيل إن الباطل يعنى به إبليس ههنا فتدبروا، وقال إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله، وكما أن الله عز وجل فى البيان نعمة لأنه لا تقع إلاّ بقدرة كما قال فلمّا تبيّن له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير، فكذلك على العبد فيه شكر. وقد يكون سببا للإنعام بالبيان، وعلى الله المزيد على الشكر، كما قال كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون. وقال فى تحقيق الشكر بالمزيد للشاكرين على التصريف، كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون، فإذا وقف العبد فى الشبهات عن الإمضاء، وأوقف الخاطر على الابتداء حتى يكشفه الله عز وجل بمزيد علم أو قوّة يقين، أو كشف حجاب الهوى، فقد وفق للصواب، وهو من معنى قوله عز وجل وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب، وداخل فى قوله ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا. هذا إذا لم يرد بالطلب ولم يجعل لعالم آخر فيه مكان كَشْفه للعبد بوصفه، فإذا أراده بالطلب لأوليائه وجعل للعلماء مكاناً للدلالة عليه اضطره أن يسأل عالما بالله وبباطن أحكامه، عارفا بلطيف حجابه وخَفِى كشفه، فيكشف له على لسانه إذا لم يكن العبد ممن يُكاشَف بقلبه لتحقيق قوله فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، ولتصديق قوله الرحمن فاسأل به خبيراً، والله تعالى هو المسيّر الأوّل والمبيّن الآخر، إلاّ أن السير والسؤال على العبد، والهدى والبيان على الهادى المبين، كما قال سيرُوا فى الأرض فانظروا، وقال تعالى فإن كنت فى شك مما نزّلنا إليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب الآية، ثم قال إنّ علينا بيانه، إنّ علينا للهدى، وعلى الله قصد السبيل. كذلك سُنّتُه التى قدخلَت من قبل ولا تبديل لها ولا تحويل. ألم تسمع قول الله تعالى وعلّم آدم الأسماء كلها، فهذا هو المجتبى للتعليم، الآخذ نصيبه من الله عز وجل بتفهيم المصطفى لمكان التخصيص، ثم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلمّا أنبأهم بأسمائهم ترك آدم ورد إليه وذكر نفسه بالعلم منه بعد أن دلّ بالواسطة عليه، فقال ألم أقل لكم إنى أعلم، ولم يقل إن آدم يعلم، فأخذ آدم نصيبه من رازقه بقلبه لمكان رتبته، وأخذت الملائكة أنصبتها من الله عز وجل من نصيب آدم بواسطته، والله هو الرزاق ذو القوّة المتين، كما هو الخلاّق، هل من خالق غير الله يرزقكم، والعبيد يأخذون أنصبتهم بأقسامهم من حيث هى طرق وسبب لهم. وهذا حينئذ أول المحاسبة عن مشاهدة حسيب. والتحقيق بالمحاسبة هو أول المراقبة عن رؤية رقيب. والمقام من المراقبة هو حال من أحوال الموقنين. وعلم اليقين هو آخر علم الإيمان. وآخر نصيب العبد من علم اليقين، أعنى نهايته أول عين اليقين، وهو شهادة المعرفة، والمعرفة على هذا الوصف أول المشاهدة، وهذا مقام المقرّبين، أعنى بمشاهدة وصف قريب يحيط ببُعد النفس فيستولى عليها

فيغيب بعدها في قُربه، وينتبه عقله تحت ظنه، وتنطوى حكمته في قدرته، كمحو نور القمر في ضياء الشمس، والله غالب على أمره.

وعلم معانى الأسماء والصفات وتعريف الأخلاق وباطن أحكام الذات يكون في مقامات القُرب بمرآة نور الوجه، فيرفع نور حُكم المكان، ويشهد كأن رفع كون المرآة، ويشهد الوجه بنورها، وتغيب المرآة عن كونها فيكون العبدقائما بقهر قيوميته، فيصير العبد شبه ميتة مُشاهدا بحيْطة قربه لا بكونه، كما يشهد الوجه بنور المرآة لا بجسمها، ولا يكون هذا إلاّ بعد معاينة وصف، وبعد حُسن المراقبة في جميع المعاملة، وحُسن الأدب في محاضرة الرب بتنفيذ خواطر الخير وسرعة نفى خواطر السر حتى لا يبقى شيء منها . وهذا حال المشاهدة والقرب، وذلك يخرج العبد إلى صفاء القلب بعلم اليقين، وصفاء القلب يرفعه مقامات في مشاهدة العين حتى لا يخطر بقلبه إلاّ خاطر حق، فإنْ عصاه عَصَى الحق، وفي ترك هذا والغض عنه كَدَر القلب، وفي كدره ظلمته، وذلك مقامات في القسوة، وهي أول البُعد .

وبلغني أن ما مِنْ فعلة وإنْ صَغُرت إلاّ ويُنْشَر لها ثلاثة دواوين، الديوان الأول لِمَ، والثاني كيف، والثالث لِمَنْ، فمعنى لِمَ أى لِمَ فعلت، وهذا موضع الإبتلاء عن وصف الربوبية بحكم العبودية، أى أكَانَ عليك أن تعمل لمَولاك أم كان ذلك منك بهواك، فإن سلِمَ من هذا الديوان بأن كان عليه أن يعمل كما أُمر به، سُئِلَ عن الديوان الثاني فقيل له كيف فعلت هذا، وهو مكان المطالبة بالعلم، وهو البلاء الثاني، أى قد عملته بأن كان عليك عمله، فكيف عملته، أبعلم أم بجهل، فإن الله تعالى لا يقبل عملا إلاّ على طريقته، وطريقه العلم، فإنْ سَلِمَ من هذا نَشَر عليه الديوان الثالث، فقيل لِمَنْ، وهذا طريق التعبد بالإخلاص لوجه الربوبية، وهو البلاء الثالث. وهم بغية الله عز وجل من خلقه الذين قال في حقهم إلاّ عبادك منهم المخلصين، وهذا مقتضى كلمة الإخلاص من نفى ما سواه، وهى لا إله إلاّ الله وليس بعده إلاّ الإشفاق إلى وقت التلاق، أى قد عملته بعلم فلمن عملته، لوجه الله عز وجل خالصا فأجُرك عليه، أم لشخص مثلك فخذ أجرك منه، أم عملته لتناول عاجل دنياك فقد وفّينا إليك عملك فيها، أم عملته لنفسك بسهْوك وغفلتك فقد سقط أجرك وحَبِط عملك، لذهابك عن القصد وعدم النية في الفعل، فجميع ما أردت به سواه فقد تعرّضت للمقت واستوجبت العقاب بترك ما عليك وجهل ما لمولاك، إذ كنت عبداً لي تتولى غيرى وإذا أنت تأكل رزقى وتعمل لسواى، وإذا كان الدين قد جعلته لنفسى فقصدت به من دونى. ويلك: أمَا سمعتنى أقول ألاَ لله الدين الخالص. ويلك ! ما قبلت أمرى إذ قلت وما أُمِروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء. ويقول له ويلك! أمَا سمعتنى أقول إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه، فهذه أمثال القرآن يشهد منها العلماء

أمثالهم، وهي إذا كان الخطاب عند تدبيره يفهم بها العارفون أذكارهم، فيكون توبيخ الله عز وجل للغافلين بعزائم كلامه وغليظ خطابه أشد عليهم وأوجع لهم من أليم عقابه، وذلك أن الله تعالى استخلص الدين لنفسه ولم يشرك فيه أحدا من خلقه، فقال ألاَ لله الدين الخالص، يعنى الطريق الموحد غير المشترك الصافى غير الكدر، لأن الإخلاص التصفية من أكدار الهوى والشهوة، وضده الشرك وهو الخلط بغيره من النفس والناس، كما أنعم علينا بالرزق الخالص من بين الفرث والدم فتمت به النعمة، فقال نسقيكم مما فى بطونها من بين فرث ودم لبنا خالصا، فلو وُجِدَ فيه خلط من أحدهما لم تتم به النعمة علينا، فكذلك ينبغى أن يكون عملنا له خالصا من الهوى والشَّهوة لنستحق به الأجر والحظوة منه، مع القيام بواجب الحق علينا، فكما أنَّا لو رأينا فى اللبن الذى أنعم به علينا فرثاً أو دماً عافته أنفسنا فلم نأكله، فكذلك الحكيم الخبير إذا رأى فى عملنا خلطا من رياء أو شهوة رده علينا فلم يقبله، وكما عمل لنا مما عملت يده بقدرته أنعاما ذلَّلها لنا، منها ركوبنا ومأكلنا، فينبغى أن نشكره فنعمل له بعد الأكل عملا صالحا كما أمرنا بعد إذ أنعم الله علينا، فقال كلوا من الطيبات واعملوا صالحا - فمن جهل ما جعل الله لنفسه وترك ما أمر به من الإخلاص بالدين لوجهه استوجب المقت لجهله، واستحق العقاب لمخالفته، وفى تدبر ما قلناه الهرب من الخلق والبكاء على النفس، إلى لقاء الحق لمن أشهد ووقف وأريد بالحضور فلم يصرف.

الفصل الرابع والعشرون

فى ذكر ماهية الورد للمريد، ووصف حال العارف بالمزيد

إعلم أن الوِرْد اسم لوقت من ليل أونهار يرد على العبد مكرراً فيقطعه فى قُربة إلى الله ويورد فيه محبوبا يرد عليه فى الآخرة، والقُربة اسم لأحد معنيين، أمْرٌ فرض عليه أو فضْلٌ ندب إليه، فإذا فعل ذلك فى وقت من ليل أونهار وداوم عليه فهو ورد قدّمه يرد عليه غدا إذا قَدِم.

وأيسر الأوراد صلاة أربع ركعات أو قراءة سورة من المثانى أو سَعْىٌ فى معاونةٍ على بر أو تقوى، قال أنس بن سيرين كان لمحمد بن سيرين فى كل ليلة سبعة أوراد فكان إذا فاته منها شئ قضاه بالنهار فسمى العمل الموظف المؤقت وردا، وقال المعتمر بن سليمان ذهبت أُلقّن أبى عند الموت فأومأ إلى بيده دعنى فإنى فى وردى الرابع فسمى الحزب من أحزاب القرآن لوقت ما ورد، فمن العمّال من كان يجعل الأوراد من أجزاء القرآن، ومنهم من كان يجعله من أعداد الركوع، وفوق هؤلاء من العلماء كانوا يجعلون الأوراد من أوقات الليل والنهار، فإن قطع الوقت بآية أو ركعة أو فكرة أو شهادة فذاك ورده.

وأما العارفون فإنهم لم يُوَقتّوا الأوراد ولم يُقَسّموا الأوقات بل جعلوا الورد واحدا لمولاهم، وجعلوا حاجاتهم من الدنيا ضرورتهم، وصيروا الوقت متساويا لسيدهم، وتصريفهم لمصالحهم يدخل عليهم، فوضعوا رقابهم فى رق العبودية، وصفّوا أقدامهم فى مصاف الخدمة، فكانوافى كل وقت بحكم ما يستعملون وبوصف ما به يطالبون. ذلك وردهم وتلك علامتهم عن حُسن اختيار الله عز وجل لهم، وجميل توليه إياهم، لايَكِلُهُم إلى نفوسهم ولا يوليهم بعضهم، وهو يتولى الصالحين. مشاهدتهم ذكرهم، وقرب الحبيب حبهم، ليس يشهدون فضيلة فى غير محبوبهم، ولا يرجون قربه بغير معروفهم به، يتقربون إليه، وإليه به، يسبحون له، وعليه يتوكلون، له ومنه يخافون عنه، وإياه يحبون منه، لو أسقطوا الأعمال كلها غير ما تعلق بالتوحيد ثبوته ما نقص من توحيدهم ذرة، ولو تركوا أوراد المريدين كلهم ما أثر فى قلوبهم بقسوة ولا فترة لأنهم لا يزيدون بالأعمال فينقصون بها، ولا يتفقدون قلوبهم وأحوالهم بالأوراد فيعرفون النقصان والمزيد منها، ولا تجتمع قلوبهم بسبب ولا تقوى نفوسهم بطلب فتتشتت لفقد سبب، ويضعف يقينهم لطلب. هذه المعانى هى أحوال المريدين، وجملة تغييرهم في شيئين، ضيقهم بالخالق فهربوا منه، واتساعهم بالخَلْق فاستراحوا إليه، ولودام قربهم منه لدامت راحتهم به، ولو وقفت شهادتهم عليه لما نظروا إلى سواه. وأمّا العارفون فقد فرغ لهم من قلوبهم واجتمعت المتفرقات بمجامعها لهم، وأقامهم القائم لهم بشهادتهم له، فلهم بكل شئ مزيد، ومن كل شئ توحيد. كل خاطر بهم يردهم إليه، وكل منظور إليه يدلّهم عليه، وكل نظرة وحركة طريق لهم إليه، فتوحيدهم فى مزيد، ويقينهم في تجديد، بغير تغيير ولا تصريد، ولا إيقاف ولا تحديد. ولربما طلب أحدهم التسبب بالأسباب فيجمعه بها رب الأرباب لأنه مراد بالاجتماع، وإنما استروح بالشتات لاستجمام ما هو فى قلبه آت، ثقةً منه بحبيبه وتمكناً عند محبوبه، إذ قد علم أنه طالب فطرح نفسه ليحمله، فحمله بما تولاه ولم يكله إلى نفسه وهواه. فهذه مقامات لأهلها لا يعرفها سواهم، ولا تصلح إلاّ لهم، ولا تليق إلا بهم، ولا يقاس عليها ولا يدعى مكانها، ولا تنتظر فتترك لها الأوراد، ولا تتوقع فيقصر لأجلها فى الاجتهاد. والمرادون بها محمولون بها، مواجهون بعلمها، مسلوك بهم طريقها، مزودون زادها، وهى محبوسة عليهم مقصورة لهم، فهم لها سابقون، فأولياء الله عابدوه وقد عكفوا بقلوبهم لمن عبدوه، ونظروا إلى معبودهم الذى عكفوا عليه ففهموا عنه فصل الخطاب بما آتاهم من شهادة، حكمُه حكُم الكتاب إذ يقول وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً بعد قوله للغافلين، فصيرّهم معرضاً نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين، مع قوله أنْ امشوا واصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشئ يراد، إلى قوله فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا، فعلموا أن الأخلاص الذى أُمروا به هو العبادة، ولا عبادة إلا بمجانية الهوى، وبعدها الإنابة إلى

المولى. أما سمعت قوله عز وجل والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى، وأيقنوا أن الصلاة عماد الدين، ولا صلاة إلاّ للمتقين، ولا تقوى إلا بإنابة كما قال تعالى منيبين إليه واتقوه، ثم قال وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين. فهذه عبادة العارفين على سُنَّة النبيّين، فإنابتهم مشاهدتهم لمذكورهم، كقوله في وصف ضدهم كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى، فهم عن كشف من ذكره إذ كانوا بضد وصفهم. وحقيقة ذكرهم نسيانهم لسوى مذكورهم، بمعنى قوله واذكر ربك إذا نسيت، فأخرجهم الذكر له إلى الفرار إليه، كما فهموا عنه إذ يقول لعلكم تذكرون، ففروا إلى الله، فلما هربوا إليه آواهم بقربه، ووهب لهم هداية إلى حبه، ونشر لهم من رحمته، وطواهم في قبضته، فلم يرهم إلا هُم، ولم يعرفهم سواهم، وقد قال تعالى وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته، وقال تعالى إني ذاهب إلى ربي سيهدين.

ذكر الأوراد وما يرجى بها من الازدياد

ولكن بمواصلة الأوراد المرسومة والأعمال المؤقتة المعلومة يستبين للمريد النقصان من المزيد، ويعرف قوة العزم والشِرّة من وهن العادة والفترة. وفي الأوراد أيضاً فضيلة وهو أن العامل إذا شُغل عنها بمرض أو سفر كَتَبَ له المَلَكُ مثل ثواب ما كان يعمل في الصحة.

وقد يكون نوم العارف أفضل من صلاة الجاهل، لأن هذا النائم سالم، وهو ذلك الزاهد العالم، إذا استيقظ وَجَد، وهذا الصائم القائم لا يُؤْمَن عليه الآفات وتطرقه الأعداء في العبادات، وهو ذلك الجاهل المغتر إذا وجد، فقد روينا في خبر نوم العالم عبادة ونَفَسُه تسبيح. وفي الحديث عالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، وروينا في خبر مقطوع لو وقعت هذه على هذه، يعني السماء على الأرض، ما ترك العالم علمه لشئ، ولو فتحت الدنيا على عابد تَرَكَ عبادة ربه، ولأنّ العالم قد يُكاشف في نومه بالآيات والعبَر، ويُكْشَف له الملكوت الأعلى والأسفل، ويُخاطب بالعلوم، ويُشاهِد القدرة من معنى ما تشهده الأنبياء في يقظتهم، فيكون نوم العارف يقظة لأن قلبه حياة، ويكون يقظة الغافل نوماً لأن قلبه موات، فيعدل نوم العالم يقظة الجاهل، وتقرب يقظة الجاهل الغافل من نوم العالم. كيف وقدجاء في خبر أبي موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى أحُدٌ فقال هذا جبل أحُدُ، ولا يعلم خلْقٌ ما وزنه، وإن من أمتى من تكون التسبيحة منه والتهليلة أوزن عند الله عز وجل منه. وفي حديث ابن مسعود إذ قال لعمر ما أنكرت أن يكون عمل عبد في يوم واحد أثقل مما في السموات والأرض، ثم وصف ذلك بأنه هو العاقل عن الله عز وجل، الموقن العالم به. وقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن صلاة رسول الله صلى اللّ عليه وسلم في رمضان، فقالت ما كان يخص رمضان بشئ دون غيره، ولا كان

يزيد فى رمضان على سائر السنة شيئاً . وقال أنس بن مالك ما كنتَ تريد أن ترى رسول الله صلى اللّ عليه وسلم نائماً من الليل إلاّ رأيته، ولا تريد أنْ تراه قائما إلاّ رأيته. وكان رسول الله صلى اللّ عليه وسلم ينام، ثم يقوم قدر ما نام، ثم ينام قدر ما قام، ثم يقوم قدر مانام، ثم ينام، ثم يخرج إلى الصلاة. وقالت عائشة رضى اللّه عنها ما صام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم شهراً كاملا قط إلاّ رمضان، ولا قام ليلة إلى الصبح حتى ينام منها . وقالت وكان يصوم من الشهر ويفطر، ويقوم من الليل وينام. وفى الخبر الآخر كان يصوم حتى تقول لا يفطر، ويفطر حتى تقول لا يصوم. وكان يصبح صائما ثم يفطر، ويصبح مفطراً ثم يصوم. وفى الخبر الآخر كان يدخل من الضحى فيقول هل عندكم من شئ، فإن قدم إليه شئ أكل وإلاّ قال إنى صائم، وخرج يوما فقال إنى صائم ثم دخل، فقلنا يارسول الله أُهدى لنا حَيْس، فقال أما إني كنت أردت الصوم ولكن قربيه. وكان ورده صلى اللّه عليه وسلم حُكْمَ ما ورد عليه، فعن هذا المعدن يكون تصريف العارفين، ومن هذا المعنى تكون مشاهدة الموقنين، ليسوا مع اللّه بإيراد توقيت ولا بقطع على تحديد، كما قيل لبعضهم بأى شئ عرفت اللّه عز وجل، فقال بفسخ العزائم وحَل العُقَد. ولكن الأوراد طريق العمّال، والوَظَف أحوال العبّاد، منها دخلوا، وفيها يرفعون إلى أن يشهدوا الواحد، فتكون الأوراد كلها وردا واحدا، أو يكونون بشهادتهم قائمين . وقال بعض العلماء من السلف الإيمان ثلاثمائة خلُق وثلاثة عشر، على أعداد الأنبياء المرسلين، كل مؤمن على خلُق منها، هو طريقه إلى اللّه عز وجل، ووجهته من اللّه عز وجل ونصيبه، وفى كل طريقة من المؤمنين طبقة، وبعضهم أعلى مقاما من بعض. وقال عالم آخر الطريق إلى اللّه عز وجل بعدد المؤمنين. وقال بعض العارفين الطرق إلى اللّه بعدد الخليقة، يعنى أن للشهيد بكل خلُق طريقا فقد صارت المكونات للمكون طرقات.

وروينا فى الخبر الإيمان ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون طريقة، من لقى اللّه عز وجل بالشهادة على طريقة منها دخل الجنة. ومن هذا قوله عز وجل قل كلٌ يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا، فدلّ أنهم كلهم مهتدون، وبعضهم أهدى من بعض، بمعنى أنه أقرب إلى اللّه عز وجل وأفضل، وقد ندب إلى القُرب فى الأمر بطلبه، وأخبر عن المقربين بالمنافسة فى طلب القرب، فقال يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّه وابتغوا إليه الوسيلة، يعنى القُرب. وقال تعالى فيما أخبر أولئك الذين يدْعُون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، فأقرب الخلق من اللّه عز وجل أعلاهم عند اللّه عز وجل، وأعلاهم عنده أعرفهم به وأفضلهم لديه. ورو ينافى التفسير قل كلٌ يعمل على شاكلته، قال على وحدانيته، يعنى بذلك على توحيده الذى يوّحد اللّه عز وجل به

ويعرفه منه. والشاكلة الطريقة والخُلُق، قد شاكله وقد شكل فيه، ومن ذلك قول عليّ رضي الله عنه لكل مؤمن سيد من عمله، فهذا السيد من العمل هو الذى يرجو به المؤمن النجاة ويفضل به عند مولاه.

وقال بعض العلماء كان عبّاد الكوفة أربعة، أحدهم صاحب ليل ولم يكن صاحب نهار، والآخر صاحب نهار ولم يكن صاحب ليل، وبعضهم صاحب سر ولم يكن صاحب علانية، والآخر صاحب علانية ولم يكن صاحب سر. وقد كان بعضهم يفضل عبادة النهار على عبادة الليل لما فيها من مجاهدة النفس وكفّ الجوارح، لأن النهار مكان حركة الغافلين وموضع ظهور الجاهلين، فإذا سكن العبد عند حركة الغافلين وموضع ظهور الجاهلين كان هو التقى المجاهد والفاضل العابد . وقد قيل إن العبادة ليست الصوم والصلاة فحسب، بل أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم وتقوى الله عز وجل عند اكتساب الدرهم، وهذا من أعمال النهار، وقد قال الله عزّ وجلّ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار، أى ما كسبت جوارحكم، فعلّق الاجتراح بالنهار، ثم يبعثكم فيه، فإذا لم يعلم من عبد اجتراحاً بالنهار ولم يبعثه فيه فى مخالفة، فمَنْ أفضل منه؟ وكان الحسن يقول أشد الأعمال قيام الليل بالمداومة على ذلك، ومداومة الأوردة من أخلاق المؤمنين وطرائق العابدين، وهى مزيد الإيمان وعلامة الإيقان. وسئلت عائشة رضى الله عنها عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان عمله ديِمة، وكان إذا عمل عملاً أتقنه. وهذا كان سبب ما نقل عنه صلى الله عليه وسلم من صلاته بعد العصر ركعتين أنه كان ترك مرة ركعتى النافلة بعد الظهر، شغله الوفد عن ذلك فصلاّهما بعد العصر، ثم لم يزل يصليهما بعد العصر كلما دخل منزله، روت ذلك عنه عائشة وأم سلمة، ولم يكن يصليهما فى المسجد لئلا يستن الناس به، وفى الخبر المشهور أكْلفوا من الأعمال ما تُطيقون فإن الله عز وجل لا يَمَلّ حتى تملّوا، وفى الحديث الآخر أحب الأعمال إلى الله عز وجل ما ديم عليه وإنْ قل. وقدر روينا فى خبر من عوّده الله عز وجل عبادة فتركها ملالةً مَقّته الله تعالى. وفى خبر عائشة رضى الله عنها وقد أسنده بعض الرواة من طريق: كل يوم لا ازداد فيه علماً فلا بورك لى فى صباح ذلك اليوم. وقد جاء فى الخبر كلامٌ تارة يُروى عن الحسن بن عليّ، وتارة يُروى عن الحسن البصرى، ومرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، سُمِعَ يقول من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو محروم، ومن لم يكن فى مزيد فهو فى النقصان، وفى لفظ آخر من لم يتفقد النقصان من نفسه فهو فى نقصان، فالموت خيرٌ له. ولعمرى إن المؤمن شكور، والشاكر على مزيد.

رقم الإيداع ٧٤٩٨ لسنة ١٩٩١


آمون
للطباعة والتجليد